الغلاف بريشة الفنانة
سميحة حسنين

الريح

محاولة ترميم مذبح عتيق

بقلم:

كلود سيمون

الروائى الفائز بجائزة نوبل ١٩٨٥

ترجمة:

الدكتورة زينب عبد العزيز

دار الهلال

مقـــدمـــة

بقلم : د   زينب عبد العزيز

فى الحادى عشر من شهر أكتوبر عام ١٩٨٥ ، منحت اكاديمية استوكهولم جائزة نوبل فى الادب للروائى الفرنسى كلود سيمون . الذى يعد من مؤسسى الرواية الجديدة فى فرنسا .

لقد ولد اوجين هنرى ، المعروف باسم كلود سيمون ، فى العاشر من شهر اكتوبر عام ١٩١٣ بمدينة تناناريف باقليم كتالونى الاسبانى بجزيرة مدغشقر . ثم انتقل الى باريس ليدرس الادب الذى كرس له حياته . الا انه انجذب الى فن التصوير ، ومارسه طويلا قبل ان يتفرغ للكتابة . واثرت هذه الممارسة الفعلية للفن التشكيلى على اسلوبه الادبى وعلى رؤياه ذات الطابع الفنى المميز . ولقد نشر حتى الآن تسعة عشر رواية تنتمى كلها الى مدرسة " الرواية الجديدة " .

وترجع جذور " الرواية الجديدة " الى ازمة الرواية التقليدية التى بدأت فى اواخر القرن الماضى . وكانت هذه الازمة تدور اساسا حول مفهوم الواقعية ، وميل العديد من الادباء الى محاكاة كبار الكتاب . وبدأ مارسيل بروست بمهاجمة هذا التيار الغارق فى المحاكاة . قائلا ان " الحياة الحقيقية " توجد فى الانطباعات الكامنة فى اعماق الذاكرة ويتعين على الروائى ان يترجمها مستعينا بمختلف الصور والكتابات وهى نفس القضية التى اثارها اندريه جيد . بصورة مختلفة : فى رواية " المزيفون " فاستعان بالتقطيع الزمنى ليعبر عن الواقع فور معايشته .

وفى الخمسينات ، راح عدد ضئيل من الكتاب يعمل فى الظل بعيدا عن صخب الاعلام . ويمكن تقسيمهم اجمالا الى مجموعتين . مجموعة تحاول التعبير عن عالم مختلف ، يجذب القراء رغم ما به من اكتئاب وهلع يكشف عن الجانب الخلفى للعالم الذى نعيشه فى الحياة اليومية التقليدية . ومجموعة راحت ترفض الجوانب العادية لسيكولوجية مألوفة ، لتعبر عن المشاعر باثارتها وليس بتحليلها . واهمية عنصر الذاكرة وعنصر الزمن لدى هذه الفئة من الروائيين يجعلهم ينتمون الى مفهوم مارسيل بروست الروائى الباحث عن الزمن ..

وتقع موجة " الرواية الجديدة " فيما بين عام ١٩٥٠ وعام ١٩٦٨ ، اى بين تاريخين لهما مغزاهما الادبى والاجتماعى والسياسى بالنسبة لفرنسا ، اذ يمثلان حرب كوريا وثورة الطلبة وماتبعهما من ازمة وتغيير فى المفاهيم . وبدأت هذه الموجة للرواية الجديدة باعمال صمويل بيكيت ، ثم بمجموعة من الكتاب هم آلان روب جرييه ، ناتالى ساروت ، ميشيل بوتور ، وكلود سيمون .

وحقيقة مايربط بين هؤلاء الكتاب هو موقفهم الرافض للمفاهيم السائدة ومحاولة البحث عن التجديد ، بعيدا عن الانماط التقليدية للحبكة والشخصيات ومحاكاة الواقع ، من اجل الوصول بالرواية الى قوانين ذاتية .. اى رواية لاتعتمد على شىء سوى مفردات عناصرها بعيدا عن اى سرد منطقى ، وبعيدا عن الحكاية المترابطة فانساقوا فى تيار تجريدى يعتمد على ذاتية الكاتب ، وعلى اهمية الوصف ، مع تعديل وتبديل لموقف الانسان كموضوع للعمل الادبى اى ان مفهوم " الرواية الجديدة " قائم على رفض فكرة القصة او الحكاية المترابطة الاحداث .

كما قام كتاب " الرواية الجديدة " بقلب مفهوم صلة القارىء بالرواية فبعد ان كان القارىء يتمثل نفسه فى ابطال الرواية ، اصبح عليه ان يتمثل نفسه مع الكاتب ، ويتتبعه فيما يبحث عنه وفيما يحاول التعبير عنه .. اى ان يعايشه من الداخل ، بفضل معالم عليه البحث عنها وبذلك يتحول القارىء الى نوع من الوعى الحيوى الخلاق ، فما يقدم له لم يعد ذلك العالم المسبق التجهيز او المتجانس الذى اعتاده ، وانما رؤيا عليه ان يساهم فى تكوينها .

وهذه المشاركة فى تكوين الرواية هى التى تمثل صعوبة قراءة روايات

الموجة الجديدة .. الا ان هناك وسيلة يمكن للقارىء ان يكتسبها من القراءة ، او على حد قول ميشيل بوتور : " هناك أجرومية معينة ، على القارىء ان يتعلمها من خلال الصفحات الاولى " . فالرواية الجديدة فى نظر كتابها ليست مجرد نظرية ، وانما عبارة عن عملية بحث وتجميع لذلك الاسلوب المتقطع ولتلك الرؤيا المتناثرة .

ومن هنا كان اختلاف طابع الرواية باختلاف كاتبها . مما ادى الى تعدد اتجاهاتهم واختلاف اساليبهم . ولم تعد الرواية عبارة عن سرد او كتابة مغامرة معينة بالشكل المألوف . وانما اصبحت تمثل مغامرة الكتابة فى حد ذاتها . او بقول آخر ، تمثل المغامرات اللغوية والمغامرات التخيلية ! ولعل مانتج عن هذا التيار حاليا هو المزيد من الجرأة فى الكتابة والمزيد من الحرية فى التعبير ، وادى الى تحرر كامل من كافة الاشكال الروائية السابقة ، الا انه ادى فى نفس الوقت الى مزيد من صعوبة متابعة العمل الادبى من كثرة مايتطلبه من جهد وتركيز لتذكر شتى هذه الشذرات والربط بينها ..

ويعد كلود سيمون هو الاديب الوحيد المعروف وسط جماعة كتاب الرواية الجديدة منذ فترة ماقبل الحرب العالمية الثانية ، باستثناء ناتالى ساروت فقد نشر اول رواية له بعنوان " الغشاش " عام ١٩٤١ . ومنذ ذلك التاريخ وهو يواظب على الكتابة بعد ان اثراها بتجربته التشكيلية . ويعد التصوير بالكلمة من العناصر الاساسية فى رواياته والمميزة لاسلوبه .

ولعل كلود سيمون هو الوحيد ايضا وسط هذه المجموعة الذى لم يهتم بتأليف كتاب يشرح فيه نظرياته الادبية . وانما اكتفى بالتعبير عنها ضمنا فى نفس رواياته . وتعتمد كل رواياته على رفض القواعد التقليدية للحدوتة . كما تعتمد كلية على الشذرات المتناثرة وتوارد الخواطر ، بنفس التداخل الذى يحدث للمرء فى الواقع . وعلى القارىء ان يقوم بالربط بين شتى العناصر المتفرقة ليفهم مايود الكاتب قوله . فالنص مليء بالفراغات والبتر والتداخل ، واذا ماحاول القارىء ربط الاحداث كقصة متماسكة فقدت كيانها كرواية لأنها قائمة على هذه العناصر المتفرقة .

كلود سيمون لايقوم بنقل الواقع ، وانما يقدمه فى لقطات بدقة فائقة وبوصف تصويرى بارع . فالوصف يعد الاداة الاساسية فى كتاباته وقد وصل به الى اعلى المستويات دونا عن اى عصر مضى . والترابط فى

رواياته قائم اذن على الوصف والتداخل وتوارد الخواطر مما يعاونه على تثبيت المشاعر فى تحركات مختلفة ذات اهمية تفوق اهمية استمرار الحدث او الحكاية .

ويمكن تلخيص نظرية كلود سيمون التى بنى عليها رواياته فيما يقوله ببساطة من ان كل مايمكن للانسان ان يبتكره ليس فى الواقع الا اعادة تشكيل للرؤيا والاحداث .. لذلك يهتم بالتعبير عن كل مايمثل حالة معينة محددة المعالم . كأنه يسير بين مختلف مستويات العمل الادبى . وهنا تتضح اهمية عملية استيعاب الذاكرة لترجمة الصور التى تعكسها القراءة والكلمات . وهو استيعاب يتم بعيدا عن عملية التحديد الزمنى .

اما اسلوب كلود سيمون ، فمن المعروف عنه انه من اصعب الاساليب التى نجمت عن تجربة " الرواية الجديدة " . ويقول الناقد الادبى الفرنسى كلود روا عن اسلوب كلود سيمون : « انه يصيغ جملة متراكمة تراكم مكونات الحياة .. فهى جمل لاتنتهى ابدا .. انها متلاصقة لاتتفكك وكأنها كابوس تاريخى .. اعشاب لانهاية لها . تذكرنا هذه الجمل بأننا نسينا هويتنا » . اما الناقد إميل هنريو فيقول فى تعليقه على رواية « الريح » : « انه كتاب فذ قوى وعميق ، ينتمى الى سياسة النفس الطويل ، وذلك من خلال تلك الجمل الطويلة التى يقوم بصياغتها .. انه واقعى عنيد ، موفور الطاقة ، قوى ، غريب وشمولى .. ان السيد سيمون هو كل هذا . ونتيجة لاسلوبه النشاز فإننى لم استطع قراءة روايته حتى النهاية رغم العديد من المحاولات . انها بالنسبة لى عبارة عن وغل عميق »

ولاشك فى ان اسلوب الروائى كلود سيمون من اصعب الاساليب الادبية على الاطلاق ، لا من حيث المضمون وتوغله فى اعماق عالم بالغ الخصوصيات وانما من حيث تركيبته اللغوية بالاضافة الى بقية المقومات . فالجملة عنده طويلة ، بل شديدة الطول احيانا . تكثر او تنعدم فيها الفواصل ، فتتراكم الكلمات فى تتابع غريب على مدى صفحات . كما تكثر فيها الجمل الاعتراضية والجمل المتداخلة داخل الجملة الاعتراضية بحيث يشعر القارىء بالاختناق احيانا ..

الا ان الاسلوب التراكمى يسمح للكاتب بالخروج عن الزمن التقليدى معتمدا على الصيغة الآنية للفعل المضارع . وهى صيغة قريبة من عمل الذاكرة ، القائم على التقريب بين الاحداث المتباعدة زمنيا لكنها موجودة

فى أعماق الذاكرة .. مما يضفى على الرواية مايجعلها تبدو وكأنها دائمة الحركة تجاه الماضى . أو على حد تعبير العنوان الثانوى لرواية « الريح » : كأنها محاولة اعادة تكوين لشىء قديم ..
ورغم هذه الصعوبة الواضحة والمعترف بها الا ان الرؤية التى تنعكس فى مخيلة القارىء فى النهاية تكون واضحة مترابطة . ولعل ذلك يرجع الى العناصر الاساسية الاخرى لهذا الاسلوب .

ويمكن تحديد هذه العناصر المميزة لاسلوب كلود سيمون بأربعة مجالات هى : الوصف ، الزمن ، الجو ، والالوان .
يحتل الوصف منزلة مميزة فى روايات كلود سيمون . فهو وصف شديد الحساسية وشديد الدقة فى آن واحد . لكنه من قوة التأثير على القارىء بحيث يكاد يتصور الشخص او الشىء الموصوف بوضوح غريب . يقوم بدور فعال فى ربط تلك اللقطات المتقطعة والمتداخلة فى النسيج الروائى . وكثيرا مايكون الوصف آنى بصيغة المضارع . وان ادى احيانا الى ابهام ما ، لكنه ابهام لايطول ، اذ سرعان مايقوم المؤلف بتفسيره والرد على ماأثاره من تساؤلات فى جزء تالى او فى فصل آخر .
كما يعد الزمن من العناصر الاساسية التى يستعين بها كلود سيمون والتى تربطه بسلفه الادبى مارسيل بروست ، الذى افرد كل اعماله للبحث عن الزمن الضائع .. بل يمكن القول بأن الزمن يعد الدعامة الاساسية التى لاتدور حولها الاحداث فحسب . وانما يقوم بالربط بينها فى كافة المستويات اى انه ليس زمن تجريدى او نظرى وانما زمن موضوعى .
اما الجو ، فيقوم بدور اساسى آخر . بمعنى انه لايتواجد فى روايات كلود سيمون كخلفية تدور امامها الاحداث ، او كعنصر مكمل لها . وانما يلعب الجو هنا احد ادوار البطولة مثلما يحدث فى رواية « الريح » فعنوان الرواية عنصر من عناصر الجو ، هو : الريح . والريح فى هذه الرواية دائم التواجد بشكل لايمكن للقارىء ان يغفله . بل كثيرا ما يتساءل عن كل هذا الاهتمام بذكر الريح وانعكاساته على الطبيعة وعلى الشخصيات والاحداث . ولايدرك القارىء اهمية ومعنى الريح المتواجد طوال الرواية فى شتى المواقف واللحظات الا بعد ثلثى الرواية تقريبا . حينما يقرأ ان الريح فى هذه البلدة يكتسح شوارعها ومنازلها وسكانها وزراعاتها لمدة مائتين وخمسين يوما فى العام !

وترجع اهمية الألوان فى الوصف عند كلود سيمون الى تجربته التشكيلية وتعد انعكاسا لها . لذلك تحتل الصور ـ سواء كانت ناجمة عن الوصف او مستوحاه من لوحات حقيقية ـ تحتل مكانة الصدارة وهنا يقول كلود سيمون : « اننى اكتب كما يقوم المصور بعمل لوحة . وكل لوحة هى عبارة عن تكوين » . وذلك مايفسر قوله الآخر واهتمامه بتجميع عناصر الرواية . فلا يمكنه الشروع فى الكتابة الا بعد ان تكتمل كافة عناصر تكوينها . وكأن البناء اللونى والتشكيلى يعوض عدم وجود السرد النمطى ، كما انه يعطى الرواية طابعا تشكيليا مميزا تتجاوب فيه العناصر اللونية عبر العمل باسره .

ويؤدى تضافر مختلف هذه العناصر الى اضافة ميزة جديدة لاسلوب كلود سيمون ، الذى يبدو شديد التاثر بالمجال السينمانى واساليبه التقنية والفنية .

اما رواية « الريح » فقد نشرت عام ١٩٥٧ . وتدور الخطوط العريضة لهذه الرواية . ان امكن تلخيصها مجازا . حول شاب نشأ مع والدته بعيدا عن ابيه . اذ فاجأت الام ـ وهى فى الشهور الاولى من حملها ـ زوجها وهو يخونها مع الخادمة . فتنفصل عنه . وبعد خمسة وثلاثين عاما . تكون الام قد ماتت ، ويموت الاب فيرسل الموثق اخطارا للابن ليرث ضيعة ابيه الذى لم يره فى حياته .

ويتعرض البطل انطوان مونتيس الى العديد من المواقف الناجمة عن ميراث مزرعة الكروم الشاسعة وعن تكرار حادثة الخيانة . عبر ثلاثة محاور هى : ابن عم ابيه الارمل وابنتاه . ويمثلون الطبقة البورجوازية او الارستقراطية المتداعية . خادمة الفندق وزوجها الغجرى العاطل وطفلتاهما . ويمثلون الطبقة العمالية الدنيا لتلك البلدة الساحلية التى تكتسحها الريح طوال العام تقريبا ، ثم المسجل العجوز . حارس الارض وزوجته المتشحة بالسواد وابنتهما الغارقة فى المساحيق والتى كانت عشيقة الاب المتوفى . ويمثلون لؤم وبؤس اهل الريف وتشبثهم بالارض بأى ثمن ..

ومن خلال هذه المحاور الثلاثة . ومختلف المواقف النفسية والدرامية ، وحادثة سرقة ، وجريمة قتل . ينسج كلود سيمون رواية من اجمل روايات المدرسة الحديثة فى فرنسا . ويرجع الفضل فى ذلك الى الاسلوب الذى

يبلور اللحظة فى لقطات سينمائية واشبه ما يكون بالسيناريو . وهى لقطات تزخر بالنقد الاجتماعى اللاذع وغير الصارخ . والخفى فى كثير من الاحيان .

وبخلاف ردود الفعل المتعددة والمتنوعة لكل مجموعة من المحاور الآدمية الاجتماعية الثلاث امام تلك الثروة ووريثها . فإن الريح لا تقوم بربط الاحداث فحسب . وانما تلخص فلسفة المؤلف التى يختتم بها روايته فى الفقرة الاخيرة . والتى تعبر عن مأساة الاستمرارية المتكررة .. عن ذلك التكرار الازلى فى كل يوم . وفى كل فصل من الفصول . وفى كل عام . فى الحياة بأسرها وفى الاشخاص . ليخرج بأن نعمة الموت هى اجمل مافى الحياة ..

د /زينب عبد العزيز

« عبيط . هذا كل مافى الأمر ولا أكثر ولاأقل . وكل مااستطاعوا قوله أو اختراعه ، أو محاولة استنتاجه او تفسيره ، لايؤدى الا الى تأكيد كل ماكان يمكن لأى شخص أن يدركه لأول وهلة . مجرد عبيط ، الا أنه كان من حقه أن يتجول بحرية ، ويتحدث الى الناس ، ويوقع العقود ، ويثير المصائب اذ يبدو أن الاطباء يصنفون مثل هؤلاء الاشخاص على أنهم ضارين . حسنا . هذا موضوع يدخل فى اختصاصهم لكن ، بدلا من الاكتفاء برأيهم ، ماذا لو سألنا بعض الناس ممن هم مثلنا والذين ربما يعرفون عن الجنس البشرى أكثر مما يعرفه هؤلاء الاساتذة عن ملكات النفس .. لأنه فيما يتعلق بالانماط البشرية وأرجو ان تعيرنى سمعك جيدا ، تمر الانواع كلها من هنا . صدقنى . أما فيما يتعلق بالدوافع المحركة للناس ، فان كنت قد تعلمت شيئا طوال العشرين عاما التى قضيتها فى هذا المكتب ، فلا تخرج عما يلى : لايوجد سوى محرك واحد فريد هو : المصلحة الذاتية . اليك اذن ماأود قوله ... »

وبينما كان الموثق يحدثنى ، كان يعود ثانية ـ وربما للمرة العاشرة ـ الى نفس القصة ، أو على الأقل الى ماكان يعرفه هو ، أو على الأقل الى ماكان يتخيله ، بما أنه لم يكن لديه عن الاحداث التى وقعت منذ سبعة اشهر ، مثله مثل أى شخص ، ومثل نفس أبطالها ، وممثليهم ـ لم يكن لديه سوى تلك المعلومة الجزئية ، الناقصة ، المكونة من تجميع بعض الصور الخاطفة ، والتى تنقصها هى نفسها الرؤية بوضوح وبعض الكلمات الغامضة وبعض المشاعر المبهمة . وكل ذلك مستغلق ملىء بالثغرات والفجوات التى كان الخيال والمنطق يجاهدان بالتقريب لملئها بالعديد من الاستنتاجات العشوائية ـ العشوائية لكنها ليست بالضرورة خاطئة فاما أن يكون كل شىء مجرد صدفة ، وعندئذ تكون الألف رواية ورواية او الألف وجه ووجه لقصة وهى التى تؤلف أجزاء هذه القصة . بما أنها حاضرة ، وكانت وستظل هكذا فى عقل كل الذين عاشوا أحداثها ، وعانوا منها ، وتحملوها ، وتسلوا بها . واما أن يكون الواقع متميزا بحياة رائعة خاصة به ، مستقلة عن مداركنا وبالتالى فهو مستقل عن معرفتنا وخاصة عن فهم المنطق الذى نتمتع به ـ وعندئذ تكون مجرد محاولة العثور عليها ، والكشف عنها واظهارها ليست الا عملية لاجدوى لها ومحبطة للنفس مثل لعب الاطفال مثل تلك الدمى المتداخلة التى تشتهر بها اوروبا الوسطى والتى تحمل كل دمية فى جعبتها دمية أصغر منها الى

أن تصل الى شىء صغير ، لامعنى له : مجرد لاشىء . والآن ، وقد انتهى كل شىء ، فان محاولة استرجاع ، او اعادة تكوين ماحدث ، لأشبه مايكون بمحاولة لصق الشظايا المتناثرة ، والناقصة . لمرآة ما ، والاجتهاد بعناء لاصلاحها ، وتكون النتيجة عملا غير متجانس ، موقوتا ، عبيط حيث لايقرنا سوى عقلنا ، أو على الاصح سوى كبريائنا ، لكى لايصيبنا الجنون رغم كل إصرارنا للحصول بأى ثمن على ربط منطقى بين الاسباب والنتائج حيثما يكون كل مايستطيع العقل ان يتبينه بما اننا نتأرجح بين اليمين واليسار ، كالفلين الهائم ، بلا اتجاه بلا أفاق ، محاولا فحسب أن يطفو متألما . وأن يموت فى بحثه عن الخلاص ذلك هو كل شىء ..) اذ بينما كان الموثق يتحدث ، لم يكن بوسعى أن أمنع نفسى من تصور الشخص الآخر ، الذى أثار الاحداث فى المدينة والذى كان الناس مثل ذلك الموثق لم ينتهوا بعد من التحدث عنه . مثلما رأيته بالأمس ثانية وربما مثلما كان عليه ولاشك منذ بضعه اشهر مضت (فقد كان يبدو وكأنه ينتمى الى نوع من البشر اصابتهم الشيخوخة دفعة واحدة ، ولم يكن ذلك حتى أثناء شبابهم ، وانما فقدوا اليها منذ طفولتهم ووجدوا انفسهم ولاشك بعيدا عن الالم ، والمعاناة ، والزمن ، وبعيدا ايضا عن أثارها ، بحيث أن ماحدث أثناء هذه الشهور الوجيزة والاحداث التى أثارها او بتعبير ادق التى اطلق عنانها ـ وذلك على مايبدو ، بمجرد ظهوره وتواجده فحسب أكثر من أفعاله فى حد ذاتها . مثل ردود الفعل الكيماوية ، مثل تلك العناصر المثيرة ، أو على الارجح مثل الاشياء ذات الخاصية الحميدة أو الشيطانية والتى لاتحتاج لكى تعبر عن قوتها إلا لمجرد أن توجد ، أن تكون ماثلة ـ كانت تلك الاحداث تبدو وكأنها مرت عليه ، دون أن تصيبه بشىء ، أو على الأقل ظاهريا ، دون أن تترك آيه آثار ، لاأكثر ولا أقل من أيه عاصفة قادمة من أعماق العصور لتقع على أى حصى ملساء تتدحرج هى الأخرى منذ أعماق العصور : غير أنها ربما كانت اكثر ملامسة بحكم تدحرجها واحتكاكها ، وأكثر لمعانا ، وقد تخلصت من كل شوائبها لتصل فى نهاية الأمر الى ذلك السطح الخالى من المعالم ، الى ذلك الوجه الذى لاسبيل الى اختراقه ، وجه تلك المعضلة الغامضة التى لاحل لهاوأعنى بها : الخير والشر) حينما وصل ، حينما طب هنا بيننا ، فجأة مثل الحصوة فى البركة ، لايحمل معه من المعتاد سوى آلة التصوير التى لاتفترق عنه أبدا ، ودراجته وحقيبة سفر ترجع على الأقل الى أوائل هذا القرن وربما لاتحتوى الا على بضعة مناديل وجوارب ، وعلى ثلاثة أواربعة قمصان من الفانلا الرمادية ، كالحة اللون من كثرة الغسيل ، وقد نحلت ياقتها واساورها ، كما تحتوى على ذلك الملف الضخم الذى رأيته مرة فى غرفته . وكان له غلاف من الكتان يحيط به حزام جلدى ويحتوى بالكاد على بضعة خطابات قديمة ، وصور فوتوغرافية وبعض الأوراق التى تشوبها الصفرة والتى

كانت تمثل ، على مايبدو ، مجموع ثروته وعندئذ : وكنوع من التناقض المازح القاسى مثيرا فور ظهوره . الثورة والرغبات . والشتات والغضب بدا ، وفقا لكل المظاهر أو أراد ان يكون عكس كل ذلك . وهذا هو ماكتشفوه باندهاش . حينما انتهى كل شىء . حينما سقطت الاوحال والعواصف . ليس بكامل هيئتها وانما برمتها ، وربما لأنه لايستطيع أى مخلوق . حتى وان انكر ذاته أن يصل الى هدم نفسه تماما مالم يصل الى تنفيذ هذا الهدم على جسده ولعل ذلك يرجع الى انه يوجد نوع من السلام عبر هذا أو على الارجح فى اعماق كل المعاناه وكل الآلام ، مثلما فى قمة كل رغبة وكل كبرياء بدا لى وكأننى اراه جالسا هنا . فى نفس هذا المقعد نفسه حيث جلست أنا . ذلك المقعد ذى النقوش المنحوته التى تنغرس فى الظهر ، امام الموثق القابع خلف مكتبه الخشبى الأسود . ومن ورائه تبدو واجهات المكتبة الزجاجية ، السوداء أيضا والتى يعلوها شىء أشبه مايكون بالافريز شعار منحوت عبارة عن اطار بيضاوى عليه حرفان مذهبان متشابكان ، والحجرة كلها قديمة الشكل مهيبة جنائزية تتناقض مع من كان يحتلها . حينئذ انه رجل مازال شابا ، ذو شعر قصير مقصوص كالفرشاة ، ووجه رياضى ، يرتدى حلة مصنوعة من إحدى تلك المنسوجات الثرية القبيحة التى يختارها المرء على ارتفاع ثمنها وعلى هويتها المجهولة . فهو على عجلة ، سوقى بشوش كرجال الاعمال ، وبينما كان يقص على ذلك . ربما لاول مرة منذ جلس خلف ذلك المكتب منذ عشرين أو خمسة وعشرين عاما ، شعر فى هذه اللحظة أنه فى حيرة على كل حال ، بدا مضطربا ، قلقا ، رغم حرصه لكى لايبدو عليه أى انفعال ، وأستمر فى التعبير بنفس هذه الثرثرة ، ونفس هذه السلاسة ونفس هذه السوقية التى تعلمها من ارتياد الحانات ، والصالونات ومن المساومات ومع ذلك لم يكن يحاول ان يتعمق ، أن يفهم ما الذى يدور خلف وجه زائره فحسب وانما ان يضعه فى واحدة من الفصائل الخمس او الست ، لاأعنى تلك الفصائل الآدمية ، وانما تلك التى اعتاد ان يضع فيها امثاله فابتدرنى قائلا : « لأنه طوال عشرين عاما من العمل فى التوثيق ، اعتقدوا اننى رأيت تقريبا كل مايمكن لقسيس أو لطبيب أن تتاح له فرصة معرفته عن الناس ، وعن الحكايات ، سواء كانت خاصة ، أو عامة ، أو عائلية بل ماهو اكثر من ذلك : اننى أستطيع أن أرى جانبا من الموضوع لايعلم عنه شيئا لا القسيس ولا الطبيب ، أو على الاقل شيئا أخر غير ما يحكونه لهما .. فاسمح لى أن أقول لك ان المسألة ليست شديدة التنوع .. لا اذكر فى أى جريدة ولافيما يتعلق بأى موضوع قرأت انه قد تم حصر المواقف المسرحية جميعا فى اثنين وثلاثين . دعنى اضحك .. فبأصابع اليد الواحدة لديك مايكفى تماما لكى تعد به مختلف الحالات التى يمكن ان تحصى اليها الامور بل . وحتى اصبع واحد يكفى ، ذلك ، انك تعرفنى لست بحاجة لأنْ اقول لك اننى لاانتمى الى

الشيوعية وانه لايوجد مايثيرنى اكثر من ذلك المفهوم للعالم وللحياة القائمة على قوة قانون ما للمادة أو الاقتصاد ، ومع ذلك ، صدقنى ، اصبع واحد تكفى ، لآن: المحرك الوحيد لكل التصرفات الآدمية ، وكل الدراما السيكولوجية المزعومة ، وقد رأيت منها الكثير فى هذا المكتب بما يجعل من حقى ان اتكلم ، ذلك المحرك هو : المصلحة الذاتية ، ولا اى شىء آخر ولاشىء سواه لذلك لاأصدق أية مهاترات .. ومع هذا ، فاعترف اننى عندما رأيته هنا ، جالسا امامى ، بوجهه الشبيه بخيال المآته .. ورأسه الشبيه بالغرقى والخارج لتوه من الشاطىء ليصل الى هنا مباشرة دون حتى ان يكلف نفسه عناء تجفيفه ، او حتى شطفه بالمياه ، او عصره . وشعره الاسود المسترسل ، وطوله حوالى عشرة سنتيمترات ، وآلة التصـ[illegible] ذات المائة فرنك والمدلاه على بطنه والتى يأبى اى متسول فى المدينة قبولها [illegible]ما اعطيتها له ، وذلك المعطف الذى لابد وانه يستخدمه زيا للخروج وجلبابا للنوم ، الا اذا كان لاينام ، ولايرقد ، ويتجول طوال الليل بهيئته الضاحكة ولمجرد ان يؤدى الخدمات للأمهات اللاتى يرفض اطفالهن النوم ، وان كان حتى لهذا العمل لن يكون ذا أية فائدة بما انه على مايبدو لايفلح فى اخافة الاطفال وذلك يبدو واضحا من هؤلاء الاطفال الذين يلاحقونه لكى يصورهم او ليعطيهم واحدة من المصاصات التى يتزود بها فى الصباح قبل الخروج مثلما يقوم غيره بشراء السجائر او بجمع الفكة .. نعم : الاطفال والنساء .. حاول ان تفهم ان استطعت : فأن تحاول اذن شغالة عاهرة مثل روز ان توقع به قد يحدث ، لكن ان تذهب فتاة مثلى .. لتوقع بنفسها .. ايا كان الأمر ، فذلك لايعنينى . حسنا . أننى أعترف فقد أخطأت ، وتورطت ، وخزأت عينى ، وكل ماتريد . تماما . من الألف حتى الياء . ففى ذلك اليوم ، حينما رأيته يدخل هنا لأول مرة ، اقسم لك ، أننى لم أتردد ثانية فى أنه كان سيفعل أى شىء آخر سوى أن يقول لى « بع » ، ثم يوقع لى فورا على حق البيع ويعود ادراجه مثلما جاء وهو يعطينى عنوان اية مصيدة أو ربما دار للمجانين وليس رقم حساب فى البنك لكى أحول عليه النقود حينما تتم العملية . لكن بعد ساعة من الزمن وبعد أن شرحت له بالطول وبالعرض و للمرة العشرين كل مافى الموضوع وانه لايستطيع أى مخلوق ان يعيد مثل هذه الصيغة الى ماكانت عليه ، قد فتح فمه طيلة ذلك الوقت ليقول : « نعم » ، « لا » ، « ربما » أو « لاأعرف » ، وانى لاتساءل ان كان حتى قد كلف نفسه العناء لينصت الى ، فكلما حدت بنظرى عنه ، كنت أجده ، عندما أعود للنظر اليه ، مهتما بتأمل هذه اللوحة ، أو أعلى المكتبة ، أو السجادة ، أو هذه اللمبة ، وكأنه يود القيام بعمل جرد لها ، أو كأنه لم يدخل فى حياته من قبل مثل هذا المكتب ، وذلك هو الارجح ، لم يكن أول من أراه يحضر هنا لأول مرة ، مع الفارق أن الاشخاص الآخرين ، الريفيون الذين يحضرون هنا ، أو اولئك الذين نراهم مرة واحدة لتوقيع عقد زواج

ثم لا نراهم ثانية ، يجلسون عادة على حافة المقعد ولا يجرءوون على تحريك اصبعهم الصغير ، أما هو .. »

كان يخيل لى أننى أراه ، جالسا فى هدوء ، وطاقيته الصوف المعوجة على ركبتيه الموضوعة واحدة فوق الأخرى ، ويداه متشابكتان فوق الطاقية ، وألة التصوير متدلية على صدره ، بينما راح يتفحص الاشياء ، الموبيليا ، الديكور ، والشخص الجالس وسط هذا الديكور ، يتفحصها بنظرات شبه هائمة وطيبة مثل عيون الكلاب . كانت عيناه شديدتى السواد فى محجريهما : رأس كهل (« ومع ذلك » ، كان فى الاوراق التى معى ، السجل المدنى ، والتواريخ ، أنه لايزيد عن الخمسة وثلاثين عاما كنت أعلم ذلك !) ، وذقن طويلة وحاجبان عريضان متقابلان ، وكأنهما خطا بالفحم مما يجعله اشبه بهؤلاء الممثلين الذين لم يجيدو عمل مكياجهم فيبدو فى أن واحد بائسا ومقلقا ، ومضحكا .

كنا ، الآن فى الخريف ، وحينما حضر لم يكن الشتاء والربيع قد أتيا بعد : كانت تلك الأيام التى تزداد طولا كل يوم ، أيام فريدة ، أخر أيام الخريف ، حيث يتباطأ الضوء البارد ، يتلكأ ، يحتضر هناك ، فوق الاسطح ، فى السماء الخضراء ، الشديدة الصفاء ، الباردة ، فوق المدينة ذات الطرقات المهجورة ، التى تكنسها الريح العاتية الباردة . كان مكتب الموثق فى الطابق الارضى ويطل على فناء داخلى لأحد منازل الجنوب التى تزينها بعض النباتات ، الموضوعة فى صناديق ، نخلتان صغيرتان مرصوصة الافرع كالمروحة ، جافة ، شائكة ، مكسورة الاطراف ، تدفعها الريح احيانا الى الحائط ، يتنيها ، تهز الافرع ويصبح لها صوت جاف خشن ، اشبه بصوت كرمشة الورق ، رجفة قبيحة ، سريعة ، تعود بعدها الاغصان الى ثباتها . كنت أحاول ان اتخيله ، مثلما كان الموثق يوصفه ، وهو ينظر فيما حوله ، بتلك الهيئة الثابتة ، البشوشة ، المهتمة والشاردة ، فى أن واحد ، وهو ينظر الى تلك الاشياء الجديدة عليه : النخيل ، السماء الصافية ، الموبيليا الجنائزية التى فى المكتب ، ثم اتخيله حينما يخرج ، ويلفحه الريح ، فينحنى ، يتقوس ظهره ، وهو يحمل ، مثل التلاميذ ، حقيبته المصنوعة من الجلد السيىء الدباغة ، المفككة الخياطة ، والتى كان يضع بها ذلك الدوسيه الشهير ويصطحبها معه فى كل مكان . بينما اغرورقت عيناه بالدموع ، والتهبت من التراب ، وهو يجول بنظراته المندهشة الفضولية على الواجهات ، والحوانيت ، والناس ، مثلما يفعل من خلف زجاج عربة قطار الدرجة الثالثة ، وقد ارهق سفر الليل ملامحه ، وتناثرت الشعيرات السوداء حول وجهه ، وكان منذ أيام ، يتأمل المستنقعات وهى تنساب افقيا ، والهضاب الرمادية والغابات الصنوبرية ، وارض الكروم الحمراء ، والانهار الجافة الممتدة فى مجراها شديد الاتساع الذى يفترشه الحصى والذى لافائدة منه : منظر مرير

قاس تحت اضاءة الخريف التى لاترحم والتى كانت تضىء بعيدا عن الافق . شريط البحر المعدنى اللمعان . فتجبره على ان يغمض عينيه ، ذلك المنظر الذى وقف أمامه ثانية ، بعد ذلك بقليل . وقد التهبت اجفانه . وهو يتأمل بنوع من العته ، عربات القطار الخضراء . وجدار المحطة المصنوع من الطوب الأحمر ، ورصيف المحطة حيث استقر أخيرا وأصبح جزءا من الزحام الخريفى ، خاضعا له تحت عبء شنطته القديمة التى تخبط ساقه ، فكان يتعرف لأول مرة عبر الدخان الخانق ودوامات الريح العاتية ، على تلك العاصفة . ذلك الاعصار شبه الدائم ، العنيف بلا داع ، وبلا سبب ، والذى كان يحيط به ، فيهزه بعنف شديد .

وبعد ظهر نفس اليوم ذهب ليدق جرس الموثق . راح ينتظر بهدوء ، ممسكا بطاقيته ، حتى لاح الساعى ليسأله عما يريد . ثم راح ينتظر ثانية على الاريكة الركيكة الموجود فى المدخل ، وكأنه اشبه مايكون بشىء وضعه شخص ما هناك ثم نساه ، الى أن اعلن الساعى عن مقدمه . هل حضر الى هنا ذات يوم ؟ لابد وأنه قد توقع ذلك ، كان يعلم ذلك ، منذ زمن بعيد ، اذ كان من المحال ان يتصور شيئا أخر ، مثلما كان من المحال تصور ان احدا لم يقص عليه كيف خرج من هنا منذ خمسة وثلاثين عاما ، أو ان أحدا كان يحمله ، و أخذه بعيدا عن هذا البلد ، عن هذا النور ، عن هذا الريح ، وذلك قبل أن يتعرف على أى ضوء أخر ، لم يكن مجرد طفل مغطى بلفائف الاطفال أو بثوب ما ، أو فقد كان داخل البطن ، وأنه قد ساهم فيما حدث من سفرة فريدة لاعودة فيها . وقعت لامرأة مهانة ، اسىء معاملتها ، وذلك بينما كان فى عقر داره ، فى الوقت الذى اتت هى فيه لتعلن للرجل الذى أصبحت زوجته منذ بضعة أشهر انها تنتظر مولودا منه : فلقد ضبطته (زوجها الحديث العهد بالزواج) بين بابين (أو كما قالت عنه ذات يوم ، بعد عدة سنوات ، فى أحد المرات النادرة التى تحدثت فيها عن ذلك الموضوع : كانا مثل كلبين ، مثل حيوانين ، فى الطرقة . وقد تم الأمر باستعجال شديد بحيث أنه لاهو ولا الخادمة قد استطاعا الصبر أو كلفا نفسيهما عناء الصعود الى غرفة الخدم ، أو ربما لأن ذلك كان بالنسبة له مسألة عادية مثل الشرب أو التدخين - ولم تقل مثل الاكل ، ربما إيمانا منها بان المضاجعة . والنوم تختلف عن الأكل انها أمور لابد وان تتم وفقا لطقوس معينة لاتتغير . وفى أوضاع لها هيبتها - بحيث لايمكنه تأديتها واقفا ، أو مرتديا ملابسه ، أو وهو مستغرق فى التفكير فى شىء أخر . وربما كان ذلك هو الشىء الذى لم تقره فحسب : الوضع ، انتهاك الحرمات ، التحدى غير المقبول ليس للقوانين العليا فقط ، وانما للارتباط الذى تم عن طريق الزواج ، وللوعود ، وللعادات ، وللتراث أو على الارجح للعرف المتبع والذى ينص على ان تتم بعض التصرفات وفقا لطقوس معينة ، وأضافت ان مثل هذه الحيوانية ، وقد تناست انه فيما يتعلق بالمضاجعة فإن الانسان يعد الحيوان الوحيد الذى يملك حق التجاهل ، وعدم الاكتراث ، سواء الفصول أو الطقوس .

ان هذا الاستعراض ، هذا التوالى المحسوب والذى لايتغير لحركات وتصرفات لابد وأن تسبق الأمر وأن تؤدى الى النهاية المحتومة ، الى تلك النهاية التى لايمكن لحشرة مجنحة ، أو زاحفة ، تعوم أو تطفو ، أن تغير من نظامها ، ولقد ضبطته اذن ، مع الخادمة ، التى تمكنت بالكاد من انزال جونلتها ، وقد احمرت وجنتاها ، وخفضت رأسها بخزى ، دون جدوى ، لأنها مرت امامهما وكأنها لم تلحظهما ، ودخلت غرفتها التى خرجت منها بعد قليل ، ولم يكن معها حتى حقيبة ملابسها أو بعض الملابس الضرورية ، وانما مجرد حقيبة يدها ، مرتدية ثيابها وكأنها ذاهبة لقضاء بعض حاجياتها فى البلدة ، واتجهت هكذا الى المحطة وصعدت فى أول قطار يمكنه ان يوصلها الى أهلها .

لم تكن ثرية . لم تطلب الطلاق ، ولكن ، بما انها قد رفضت فتح بابها لتقبل الاعتذارات ، فقد رفضت أيضا النفقة التى حاول زوجها ان يدفعها لها ، لكى لاتدعه يرى ، الابن الذى انجبته ولو مرة واحدة .

أما المدينة ، التى تابعت هذه الاحداث ، (وقد تم ذلك بسرعة خاطفة ، وبقسوة ، بحيث اغلق الستار فور فتحه) أو التى علمت بهذه المسرحية باندهاش ، فقد كفت عن الحديث عنها ، ونسيت المرأة والطفل وقد ظلت قصتهما اشبه بالاسطورة : الزوجة الاجنبية (الغريبة عن المدينة وعن القطر) التى تعرف اليها فى مناسبة زواج احد اقاربه أو أحد رفاقه فى الحرب ، فى مكان ما فى الشمال ، فتزوجها ، واحضرها الى هنا ، واحبلها ، وخانها ، واختفت هى ، كل ذلك خلال بضعة أشهر . وقد غادرت البلد حتى قبل ان تتم كل زيارات تقديمها للعائلة ، هربت ومعها حقيبة يدها فقط وأخذت معها فى احشائها انتقاما ، داخل ذلك المعبد المغلق ، الذى يبدأ من اللون الاحمر وينتهى الى الظلام ، المغلق باحكام ، ذلك الذى رآته المدينة بعد خمسة وثلاثين عاما ، وقد اثار نفس ضجة الاندهاش والفضيحة التى رافقت رحيله : وحيث ان الفضيحة كانت موجودة قبل عودته ، لقد ترك فترة اسبوعين تمر بعد أن أرسل له الموثق الخطاب ، فكان يجب عليه ان يحضر على الفور ليسير خلف النعش الذى كان يحمل الى مدافن الاسرة (تلك المدافن التى لاتحوى رفات من حملته فى احشائها ، وارضعته ، وانشأته) جثمان الرجل ، الذى لم يره ولم يعرفه ابدا ، وانما كان يحمل اسمه (العربة الجنائزية تسير ببطء وترتطم عجلاتها باحجار الشارع غير المتساوية تحت عصف الريح اللاذع فى شهر فبراير ، والشمس باردة ، والاربع ريشات المنحولة تلوح فوق اركان العربة السوداء ، وحمار اسود ، يقبع تحت واحد منها قناع قبيح صارخ الماكياج ولم يكن بحاجة الى تلك الاصباغ ، كما لم يكن الجسد النحيل ، المنهك ، يألف الحذاء ذو الكعب الشديد الارتفاع ، الذى يتأرجح عليه ، وقد سندتها امرأة أكبر سنا ، تسير بجوارها ، جامدة الوجه ، لاتعبر عن شىء ، وجه من تلك الوجوه التى اعتادت ان تنحنى الى الارض ، والحقول أكثر مما تتابع

طرقات المدينة . المتعرجة . الصاخبة) وقد اندهش الجميع حينما رأوه . بحلته الغريبة - التى وصفها البعض بالثياب الرثه بينما قال البعض الآخر انها ثياب هارب من مستشفى المجاذيب - واندهشوا لوجهه الذى شاب مبكرا . كما اندهشوا لآلة التصوير التى لاتفارقه وللتعبير الغريب الذى ينبعث منه ، وازدادت الفضيحة والدهشة حينما علموا انه قرر البقاء . وانه سيقيم هنا . على حد قولهم . بلا عقل وبلا حياء . ذلك لأنه لم يقم بما كان الناس يتوقعون منه ان يفعل (أو كانوا يتمنونه) وانما مافعله (أى ان يزعم استغلال المنزل الذى لايمت اليه الا بفضل عملية تمت ذات ليل . تلك العملية الغامضة . الفاضحة . والعابرة . مجرد تلاحم واخصاب) بلا شهود ودون استمرار . وترجع الى اكثر من ثلاثين عاما . والجميع يعلم ماحدث : عملية الهروب . وانتقام الزوجة . وحرمان الابن من حقه . وذلك الذى لم يكن احد يعلم كيف يناديه . الأعزب ام المطلق . وان كان فى الواقع جمع بين الصفتين فى أن واحد دون ان يكون لا هذا ولاذاك . مما قضى عليه تماما : لذلك انتابه الشعور بالقرف . وبالاهمال . ولجأ الى الخمر . كانت مجرد الصدفة هى التى جمعت بينهما . اعقبها سوء تفاهم استمر عدة اسابيع تضاجع خلالها فى نفس الفراش رجل وامرأة يجهل كل منهما الآخر حتى تلك اللحظات وكتب عليهما الا يتقابلا بعد ذلك وكأن المرأة المجهولة قد اتت لتسطو على الرجل . لتنتزع منه أراضى الكروم الخصبة . لتغتصبها . لتأخذها من مصيرها الطبيعى . وهو له الذرية . السلالة التى لها كل الحق فى ذلك . ليس نتيجة مضاجعة عابرة وفاضحة . بما انها لم تستمر . (وقد اعقبها صفعات . وقلق . ودروس . ومشاركة فى المأوى . ودموع . وافراح . واساطير متوارثة ومتقاسمة) ولكن مايجعل من الطفل الوريث بدون ان ينازعه احد للممتلكات ولتقاليد ما . مثل اسلوب المعيشة . والجو العام . وطريقة التصرف . ان مافعله . اذن . (ثيابه . الشبيهة بملابس الفقراء . وتلك الدراجة المتداعية . التى يتعرفون عليه فى أى مكان وهو فوقها . وتلك النظرات الهائمة المتفائلة البلهاء . وذلك التعنت فى المستحيل . فيما لايمكن تحقيقه . رغم النصائح . وذلك التحدى الوقح) . لم يكن لأحد ان يقره . وذلك ماكان اى شخص اخر سواه يمكن ان يستنتجه : فاذا ماتعب الرأى العام واضطر الى ابتلاع كل شىء . بارادته أو رغما عنه . (فالرأى العام لايعبأ بالخير والشر مثل نفس هذه العناصر التى لاتعبأ به . ومع ذلك فلم يكن الرأى العام يتقبل رؤية عدم التزامه بأقل الشكليات الخارجية . والتى بدونها . يكون قد حرم من دعائمه مثل كوخ توم . فعالمنا ينهار وهو يتخبط بضعة لحظات فى الفراغ والعدم . دامغا معه فى دوامته عدد هائل من السكان المذعورين الهلعين) .

وهكذا . وبينما كان الموثق يحدثنى . كنت احاول اعادة تكوين ماحدث بينه

وبين زائره منذ اللحظة التى دخل فيها ، وجلس ، قائلا : « لم اتمكن من الحضور قبل ذلك ، كنت مريضا ، ان الطبيب .. » ، واجابة الموثق : « طبعا طبعا . ذلك شيء طبيعى اننى ادرك ان .. نهايته ، مثلما قلت لك ، ان الجنازة كانت يوم الاربعاء الماضى و .. » بينما هو يقاطعه : « بالضبط : كنت أود ، على الاقل كنت حضرت » والموثق يضيف : « بالطبع . بكل تأكيد : اصغ : لدى الكثير مما يجب على ان اقوله لك . اذا سمحت لى اولا سأطلب آلا يقلقنا أحد .. » ، وبعد ذلك بحوالى ساعتين ، الساعتين اللتين امضاهما فى مقعده دون حراك ، دون حتى ان يحاول خلع معطفه ولا حتى محاولة وضع طاقيته أو آلة تصويره على مقعد ، ظل جالسا يتأمل اللوحات ، والموبيليات الداكنة ، والخرائط أو العقود التى كان يأخذها من اليد الممتدة نحوه عبر المكتب ، يتاملها بنفس العين غير العابئة ، وغير المندهشة ، والتى كان يتجول بنظراتها فيما حوله : النخيل فى الفناء ، اللمبة المصنوعة من الأوبالين التى أضاءها الموثق حينما خفتت الرؤية ، بينما كان يحاول ان يشرح له ربما للمرة العشرين مامعنى مزارع الكروم ، وكل ماتحتاجه من مال وجهد لينزع الشجيرات ، ويزرع من جديد ، ويقلم ، وينتظر حتى تثمر مرة أخرى ، كما كان يحاول ان يشرح له فى نفس الوقت ، كيف ان الاهمال ، والتراخى ، والقرف الذى انتاب المتوفى ، قد ادى بالمائتى هكتار التى كانت فيما مضى من أجمل الضيعات فى البلد اصبحت الآن لا تعطى الا مايكفى لدفع الضريبة العقارية ، وفى هذه اللحظة فحسب ، سمع لأول مرة صوت زائره ، رغم انهما قد سبق ان تبادلا بعض العبارات الخاطفة منذ ساعتين ، وقد كان الموثق شديد الذهول ، مندهشا ، يحاول تفحص زائره ليتمكن من الاستماع الى الشخص نفسه ، الى الصوت الشبيه بالفوتوغراف ، ثم راح يقول : « لانه لايوجد سوى احدى هذه الآلات التى يمكنها تقليد ارتفاع ذلك الصوت دون خفضه مراعاة للذوق أو رفعه لتأكيد شيء ما : لذلك بدا صوته وكأنه ضغط على الرافعة ثم جلس بجوارها بسحنته الشبيهة بالكلب المبلل ، أو بالقرد ، يبتسم لك بينما صوت الفونوغراف يذيع عليك دون ان يرمش له طرف انه كان يتمنى ان يحضر دفن والد لم يعرفه قط فى حياته ، أو لم يفكر مرة ان يراه أو يتعرف عليه .. واعتقد انه يمكنه ان يسأله بنفس الطريقة منذ متى انت وزوجتك على غير وفاق وينام كل منكما فى غرفة بمفرده أو يستعلم بلطف عن صحة عمك الذى قد اضطر الى مغادرة البلاد بعد افلاسه ، وبعد ان تكون قد امضيت طوال بعد الظهر فى التحدث اليه عن أعماله ، تكتشف فجأة انه منذ فترة طويلة لم يعد ينصت اليك ، ولايفعل سوى ادعاء ذلك ذوقيا بينما هو مهتم بشيء أخر ، بل مستغرق فيه ، حتى يضج فيبدأ ، بنفس ذلك الصوت الفونوغرافى وابتسامة البائع الذى يعتذر عن ازعاجك ، فى استجوابك بدقة عن اصل لوحة ما ، وموضوعها ، وتاريخها ، وكيف

ولماذا قام جد جدك بتعليقها فى ذلك المكان منذ خمسين عاما فى حين تكون انت الذى تمر امامها منذ اربعين عاما لم يخطر ببالك ان تنظر اليها . انت تعلم ان .. »

لكننى لم اعد اصغى اليه : خيل الى اننى اراهما ، هما الاثنان ، هناك بجوار لمبة المكتب ، واستمع الى ذلك الحوار الذى قصه الموثق فيما بعد وكيف انه فى النهاية راح يتساءل ايهما كان العبيط . أو المعتوه . ذلك الحوار الذى لم يكن الموثق قد فزع من تذكره ، وان حياته لن تمتد مافيه الكفاية ليدرك انه استمع اليه :

« لا اريد ان ابيع ، يعنى اننى لا اعتقد

ـ بكل تاكيد بالطبع لكن لعلك لم تدركنى جيدا

ـ بلى لكن يبدو لى انه لم يكن ليقر ، ان ابيع ، مارايك ؟

ـ ان ما

ـ اى يبدو لى انه اذا ما كان يمتلك شيئا ولم يبعه فى حياته أو رهنه أو حتى كما شرحت لى الآن انه اقترض ليحتفظ به فذلك يعنى انه يرغب فيه

ـ انه يرى تود أن تقول أنه مراعاة لان السيد والدك أو نظرا لانه تماما . تماما انه .

ـ اليس كذلك

ـ على أية حال مرة آخرى اعتقد انه من واجبى مهما كان الأمر ان احذرك ، والا اجعلك تحلم بالحصول على عائد .

ـ تعلم ان والدتى قد تركت لى بعض النقود ثم ربما استطعت الاشتغال بالتصوير ، ثم خفض رأسه ، وأشار بيده الى الآلة المتدلية على صدره وبطنه وكانها بمثابة عين ثالثة بالنسبة له ، أو كأنها عضو اضافى ، ثم تركها واضاف « فى ايراجنى » اعنى حيث كنت اقطن نجحت فى تكوين بضعة زبائن مثل الذين يودون عمل صور الزفاف أو تناول القربان كما كنت أقوم بعمل صور نهاية العام فى المعهد ..

ـ بالطبع لكن لماذا لاتقوم هنا أيضا بنفس الشىء ؟ لدينا من يتناولون القربان أيضا والناس يتزوجون وينجبون ويقومون بتصوير مواليدهم عرايا مضطجعين على وسادة صغيرة ان امكن لآلتك ان تقوم بمثل هذه الصور .

ـ قل لى هل طلبوا منك ان تقدم لى عرضا ما ؟ .

ـ عرضا ما ، ليس هناك مايجعلك تفرض ذلك ..

ـ الا يتم الامر هكذا ؟ اعنى اذا اراد احد شراء هذه الدار ويعلم انك تهتم بشئون والدى

ـ اننى لست بتاجر ممتلكات ولا ارى

ـ لا تغضب منى كنت اعتقد ان الامر يتم هكذا وان الموثقين (لم اقصد اهانتك تعلم انى متوعك الصحة وان والدتى راعتنى منذ الصغر رعاية خاصة

حتى بعد موتها . نهاية اردت ان اقول انه توجد اشياء كثيرة لا علم لى بها لذلك سألتك .

ـ عفوا . ارجوك . ما علينا . بالطبع يوجد من اعنى . انت تفهم بينما يتحدث المرء هكذا ببساطة فى شتى الأمور لم يكن الامر يتعلق تماما بعرض ما ولايخصنى اعنى . اقصد عندما فاتحتك فعلت هذا لانك حدثتنى لكنك تعرف الناس . اقصد انه لابد وان يكون احدهم هنا قد فكر بما انك لست . اعنى انك لست مرتبط بهذا البلد .. »

وفجأة استمع الى صوت الموثق . فعلا . حقيقيا (كان موجها الىّ . على الاقل ظاهريا . فوفقا لنبرة الصوت . وتعبير الوجه . والابتسامة . وشدة العضلة التى تجعل وضع الشارب الصغير المقصوص على الطريقة الامريكية معوجا . كان من السهل ادراك انه فى هذه اللحظة لم يعد يتحدث الى واحد من هؤلاء الذين قص عليهم هذه القصة . خمسين مرة لكنه يتحدث اليه . الى الزائر الفريد الذى جلس هنا منذ ستة اشهر) . متدفقا . وهو يقول : « ثم ماذا ؟ انى اسألك ؟ مامعنى ذلك ؟ ايها الغبى ! لانه اسمح لى ان اقول لك : الشخص الذى يستطيع رفض ثروة ..

ـ ألأنها كانت ثروة طلبوا منك ان تعرضها عليه ؟

ـ لا تمزح . بجد : كم كان اكبر ماحصل عليه من رصيد فى البنك مثل هذا الشخص ؟ قل . لنفترض جدلا انه قبل ان يحضر الى هنا عرف مامعنى حساب فى البنك : ان مدير بنك الائتمان الزراعى قال لى ..

ـ آه ! لان مدير بنك الائتمان الزراعى ايضا ..

ـ ماله

ـ لاشىء . كنت أمزح . ترى فى نظرك ان المبلغ الذى يمكننى من فتح حساب لى فى البنك يمثل ثروة بالنسبة لمثل هذا الشخص ؟

ـ ليس السؤال ان الغائط الذى تركه وهو يموت . لم يكن يتوقعه . لكن ..

ـ ربما كان يتوقع المزيد ؟

ـ آل .. المسكين ! اصغ : ان الشخص الذى يمكنه رفض مثل هذا العرض وهو يقص عليك حكاياته المملة . وان يحتفظ بالدار لمجرد ان شخص اخر لم يره ولم يعرف عنه أى شىء بل ولم يكن ليعرف انه والده لولا وجود السجلات المدنية . بل وماهو ادهى من ذلك انه لم يهتم به حتى اليوم الذى اخبرته فيه بوفاته .. بصراحة هذا الشخص : يحافظ على ماذا ؟ وكأن العالم ليس قائما اساسا على الحركة والتطور .. لا !. حسنا . اسمع . اذن : مثل هذا الشخص . لابد وان يكون . اما فى غاية الذكاء . أو عبيط بدون حدود . لكن ايا كان ذكاءه أو عبطه ..

ـ لقد عثر على من يتحدث اليه ..

ـ الى من يتحدث اليه ؟
ـ على مافهمت لقد كانا اثنين .
وتساءل الموثق :
ـ اثنان ؟
ثم نظر الى بقلق وهو يسأل :
ـ من ذلك ؟
ـ الم تقل لى توا انه كان يوجد عبيط أخر مستعدا لأن يعطيه ثروة مقابل الدار التى على مافهمت لاتساوى شيئا ؟
ـ لكن .. اقصد .. انه ليس نفس الشيء .. اعنى : شخص من هنا ، شخص يعرف ال ..
ـ الا ان كانوا عدة اشخاص ؟
ـ عدة ماذا ؟
ـ عدة عبط لكى يستطيعوا تكوين مثل هذه الثروة . أليس كذلك ؟
ونظرا الىّ بارتياب ، وهو يعض شفته . ثم قال :
« اننى اضيع وقتك . أليس كذلك ؟ ماذا لو عدنا الى موضوعنا ؟ »
لكننى لم اكن بحاجة لمزيد من الاساءة الىّ . كنت أعرف البقية . تقريبا كل مايعرفه الجميع فى البلدة . أو كل ما استطاع الناس اعادة تكوينه شيئا فشيئا ، بجمع الشذرات ، من كثرة ما رأوه يمر امامهم فى الطريق . تارة على دراجته الغريبة ، التى يقودها بدأب مسالم ، بنوع من التشبث الهادىء ، ويجعله يتصرف خارج ارادته وعكس رغباته ، بينما انحنى على مقود الدراجة ، مؤكدا كل دفعة من ساقيه بحركة من كتفيه ، فيبدو وكأنه يجر بايقاع متقطع (ويظل مقطوع الانفاس ، شبه ساكن الحركة ، بين كل دورة جهد يقوم به ، متماسك التوازن على الطريق الذى تكتسحه الريح التى تدفعه فى نفس الوقت ، بنفس الدأب ، كأن الاعصار يمثل جزءا من تلك الحكاية التى اتت به الى هنا ، مثقلة بما اضافه الناس وكل العناصر الاخرى لتلقى به ، لتطرده ، وتعيده من حيث اتى) ، مسافة التسعة كيلومترات التى تفصل بين المدينة وتلك الدار التى لم يرها من قبل ابدا ، وان كانت قد ساهمت كديكور ، ان لم يكن لمولده (بما انه فى ذلك الوقت قد حمل بعيدا ، انتزع انتقاما من ذلك الوحش ، من الرجل ذى اللحية الزرقاء الذى انجبه) فعلى الاقل للاحداث التى سبقته : اولا ممشى طويل على جانبيه شجر الصنوبر ، غير منحنى من عصف الريح ، ولكنه يبدو وكأنه تم تشكيله بفعلها ، فيبدى متحجرا ، مبططا ، مدهوسا تماما ، شبه افقيا ، وكأنه تحجر كلية فى انحناءة نهائية ، كالموت ، الذى يشع من المبانى غير المسكونة ، ونوافذها المغلقة ، وجدرانها العارية ، وأفنيتها المهجورة ، حيث توجد بضعة براميل بأغطية صدأة ، وطنبور مفكوك ، وكومة من الاقفاص المتناثرة ، المهملة تحت

الضوء الساطع ، وكأنها عظام تتحجر . يشوبها البياض ، تنخرها الحشرات وكأن ازمن ، والشمس والرّيح قد تداخلت بنسب متساوية . ليحولونها مثل احجار المبانى ، مثل لحاء شجر الصنوبر الرمادى الشبيه بالاصداف المتحجرة اى الى شىء يتخطى الزمن ، ويتخطى التدمير ، بلا عمر ، الى شىء خالد .

اما هو ، هنا ، وقد نزل عن دراجته . محاولا التقاط انفاسه . ناظرا الى ماحوله ، باحثا عن اثر لمخلوق حى ، لوجود انسانى ، فراح يقفز ، ويستدير ، متهتها ، نحو الشخص الذى لم يسمعه عند وصوله والذى كان يقف الآن امامه ، كتجسيد لذلك العالم الشاسع العادى فى شكل آدمى : شخص كان هو ايضا بلا عمر يرتدى سترة من المعونات الامريكية ، ويضع على رأسه كاسكيته اخذها هى ايضا من المخازن التى قضت عليها الحرب ، له وجه نحيل فوق الوصف . اشبه بالارض ، احرقته الشمس ، نهشته الهموم والحمى ولم يفكر : « تماما ، هاهى : النقود ، ببساطة . المكسب ، الأرض المقلوبة . المحروثة . المجلودة . المحبوبة والملعونة » (فيما بعد وبينما كان يتجول بين اشجار الكروم ، محاولا اللحاق بالخطوات الطويلة التى لاتكل ، المتعثرة فى الظلام ، تنهكه الريح ، رآه ينحنى ، يحفر بنوع من الجنون ، بشغف عنيف ، مستخدما يديه ، بدلا من المعول ، بيديه اللتين بلون الارض التى تحفرها ، ثم ينهض وحفنة يده مملوءة بقطعة داكنة مالبثت ان تناثرت ، تحللت فى قبضته ، وانسابت ترابا رفيعا بين اصابعه . بينما كان الرجل الوحش ، الشبيه بالجثة المرتدى زى المعركة ، يتأملها وبعينيه الخاليتين من التعبير كعينى العصفور أنه شىء يصعب وصفه ، وان كان فى نفس الوقت يشوبه الغضب والهيام) مرددا فى ذهنه فحسب : « أنه مريض يجب عليه ان يعرض نفسه على طبيب ، لابد وان .. » . وبينما كانت العينان الصغيرتان السودوان ، السودوان والجامدتان ، تتمعناه طويلا ، وهو ممسك بالطاقية فى يده ، وشعره الطويل منكوش من الزوابع ، يقول : « انا .. اسمى مونتيس ، أنطون مونتيس ، انا .. » ثم ، وفجأة انفرجت اسارير ذلك الوجه المتشقق كالارض ، تهلل ، وكشفت شفتاه عن صف من بقايا الاسنان غير المتساوية فيما يشبه الابتسامة ، قائلا بدوره : « كنت اتوقع قدومك يسعدنى ان اراك . ان والدك ... لكن تفضل .. تفضل من هنا ، لا ، تفضل حضرتك اولا : انت فى دارك ! »

فى الداخل ، كان الظلام يخيم على المكان . كانت رائحة الاماكن المغلقة تنبعث ، رائحة الجبس العفن . وكما قص على فيما بعد ، كان يمكننى ان اتخيله ، يتحسس طريقه كالاعمى فى الطرقة المظلمة ، ليدخل ، مدفوعا بالآخر ، فى مطبخ يضيئه النور الكهربائى الاصفر (كانت التاسعة صباحا تقريبا وفى الخارج كان ذلك الضوء الساطع ببذخ والمرعب ، الاستقصائى والكاشف ، الذى يدخل هنا عبر الشيش المغلق وسلك الناموس والستائر ذات المربعات ، فيصل على هيئة

بصيص رمادى ، متردد ، باهت ، جنائزى) ، متبينا منضدة يكسوها المشمع ، وجهاز راديو ضخم ، ثم ، تحت غطاء المدخنة ، وعاء صغير من الصاج المطلى بالمينا ، لونه بين الاحمر والاصفر ، موضوع فوق الرماد - لم تكن هناك اية نار موقدة ، مجرد بضعة جمرات ، وخيط رفيع من الدخان ، يرتفع افقيا ، من بعض الحطب الذى كانت امرأة جالسة القرفصاء تجمعه من وقت لآخر ، أو على الاحرى تلك الكومة السوداء التى تحركت عند دخوله ، فنهضت ، ليطالعه وجه شمعى الشكل وبلا تعبير ، تشوبه الزرقة وهو محاط بشعرها الاسود المعقوص الى الخلف وزيها الاسود (لم تكن تتعدى الاربعين من العمر ، وربما كانت اقل من ذلك ، كانت جميلة فيما مضى ، ومازالت ، مثل الراهبات أو العاهرات اللاتى يتأمل المرء محياهن تحت الخمار أو تحت المساحيق ، محاولا تصور اعادة تكوين المرأة ، بعيدا عن البريق ، والضحك ، تحت قناع الشمع أو الألوان والدهن الشاحب اللين نتيجة التقاعد) .

وفيما بعد ، حينما عادا ، بعد الاربع ساعات التى تجول خلالها فى المزارع مع المسجل ، مع تلك الرمة المحشورة فى ثياب قام بتوريدها مكتب ادارة المعونة الأمريكية ، مصنوعة بالدستة ، بمئات الآلاف ، بالملايين ، ليزود بها الكل بلا تمييز باستثناء الأموات ، كل بؤساء العالم من شحاذين ، وزنوج ، وحماليـن صينيين أو هنـود ، و فلاحين ، بنفس ذلك الزى ذى اللون التبغى ، المرقم ، معلنا على كل الظهور المتصببة بعرق الارض السيادة المطلقة لجنس من المنتجين النمطيين ، مجتهدا فى متابعة ذلك الهيكل العظمى المحنى على الارض ، على هكتارات الارض الداكنة ، التى تشوبها الحمرة أو اللون البنفسجي ، المزروعة باشجار الكروم فقط والتى كانت الريح تعصفها ، تلفحها بلا هوادة ، وبلا نهاية (كانت جولة ، جولة تفتيشية ، أو على الارجح محنة تتجول فى الحقول ، طيفان يتتابعان ، طيفان ضئيلان شبيهان بالاطياف الميكروسكوبية الاخرى التى تلوح عن بعد ومن وقت لآخر ، منهمكة ، صابرة وبطيئة أو حتى لاحراك لها وسط سرعة الريح المرعبة ، وهناك تبدو العربة ، والحصان ، والانسان وكأنهم منزرعين منغرسين فى تلك الارض القحطاء والتى تثير من فوقها الحوافر سحب طويلة من الغبار والاتربة الصفراء الشبيهة بالدخان ، المتصاعد افقيا : وفى بعض الاحيان كان الرجل الأول يتوقف ، يستدير ، يتأمل ، صامتا ، مذهولا ، مهانا ، عينه الخالية والحادة كعين الجوارح مليئة بدهشة لاتصدق ، بفوز لايصدق ، بينما زميله يتلكأ ويتعثر فى تعاريج المحراث ، يحث الخطى ، وينهك نفسه) ، وفيما بعد اذن ، وبينما كان المسجل يقود خطاه (وان كان هناك شخص غريب لما استطاع أن يتوقف عن الضحك من هذا المنظر الهزلى ، المضحك : هو بهيئته الشبيهة بالغرقى ، ومعطفه البائس وآلة تصويره السياحية

المتدلية على بطنه ، وذلك الفيلمانى المسرع الخطى يقول : « تفضل بالجلوس ، استرح .. » ثم يقول : « انك هنا فى دارك .. » ثم يقول : « لاتقلق : فهؤلاء الموثقون اذا ماانصت المرء اليهم ! .. لكن ، دعنى اتصرف ، ثق بى .. » ، ثم يقول : « انظر كم ستسترح .. » ، أما هو فلم يفكر حتى فى فك حزام معطفه (وقد ضاعت التوكة منذ زمن بعيد ، بل ونسى انه كانت له توكه ، فكان يكتفى بعقد طرفى الحزام) رغم نار المدفأة ، أو بمعنى ادق نار الجمرات ، التى تطقطق فى المدفأة ، مجولا نظراته المندهشة على المائدة ، والمفرش النظيف المحمل والمختفى تحت اطباق المشهيات المتعددة الألوان ، وكأن ذلك القحط الخارجى ، وتلك الحقول الجرداء ، والمبنى المقبض ، والمرأة ذات الرداء الأسود تؤكد تناقضاتها بسخاء : كأنها شىء شهوانى ، لبابى ، شحامى ، شبه خليع فى وفرته ، وفى تلك الألوان الحادة ، المستفذة ـ لون الزيتون الاخضر ، ولون الفلفل الاحمر ، ولون اللحوم البنفسجى ـ مثل فواكه المستعمرات البضه اللاذعة المتخفية داخل قشورها الشائكة ، ودلف الى غرفة لم تفلح المدفأة ولا المائدة بكل ماعليها ، ان يكسباها لمسة من الحيوية : « وقد حكى فيما بعد ، بنوع من الدعابة البريئة المندهشة التى تميز بها ، ان ذلك بدا كما لو كانت فكرة عاتية قد انتابتهم لاقامة وليمة فى قبو العائلة القديم الذى تم فتحه خصيصا لهذه المناسبة ، مع اضافة بعض الحطب لمحاولة تبديد روائح الرطوبة والاملاح المتراكمة على الجدران منذ أجيال ، وصور الاجداد ، المندهشة لرؤية النور ثانية والتى تبدو وكأنها ترمش بعينيها من كثرة الضوء الساطع ؟ .. » وهناك مالم يقصه على : فتاة فى حوالى الخامسة والعشرين ، لم تكن صورة معلقة على الحائط : فتاة حقيقية ، ملطخة بالاصباغ ، تنتصب على حذاء يرتفع الى خمسة عشر سنتيمترا ، تبدو اظافرها كمخالب من المرجان الاحمر ، بينما بدا ثدياها وكأنها على وشك الخروج من فتحة ثوبها ، لكن يبدو انها لم تكن تخرج ، لاهى ، ولا رطوبة القبو ، ولا البرد (وجلست على المائدة وكانت تحمل ثلاثة اطباق فحسب : للرجلين ولها ، بينما كانت ذات الرداء الاسود تجىء وتغدو فى صمت من المطبخ الى غرفة الطعام ، دافعة امامها بوجهها الشمعى الخالى من التعبير ، وهى تقدم على المائدة بتتابع ودون ان تنطق بكلمة أطباق من اللحوم بالصلصة ، واشياء محشوة ، ثقيلة ، متبلة ، يكاد لايلمسها المدعوون) وكانت تبدو على اى حال غير مدركة لاى شىء ، باستثناء القادم الجديد الذى كانت ترقبه بعينيها المتفحمة التى بالغت فى توسيعهما بالقلم .

ربما حدث ذلك بسبب الفتاة . وربما لا . ربما حتى لم يرها . لا هى . ولا صدرها . ولا وجهها الملطخ بالمساحيق . وعينيها المحددتين بالقلم . أو على الارجح لم ير حقيقتها . واكتفى بانه اعتقد انها واحدة من فتيات الريف اللاتى لايعرفن كيف تزينن وجوههن بالاصباغ . أو أن العادة هنا كانت تفرض ان تقوم الام بالخدمة على المائدة حتى تكبر الفتيات ويرتدين السواد بدورهن ويأخذن مكانهن بجوار نار الجمرات . بل وربما لم يكن أيضا بحاجة الى هذه المعلومات الاضافية . غير الحكاية التى قرر فيها الاحتفاظ بالضيعة . إنه لم يخلف والده فى الدار الشاسعة ذات الرائحة العفنة وسط اشجار الصنوبر التى بطلتها الريح . وهكتارات الارض القانية . ومساحات الجذوع المرصوصة المملة التى تكسو السهل حتى الهضاب الرمادية . وحتى الحواف المليئة بالاعشاب الجافة للمستنقعات الميتة . وظل . اثناء الفترة الأولى على الاقل . فى فندق حيث كان قد نزل . صدفة . عند وصوله . فى حين ان البلدة كانت متحفزة . تنتظر . تضرب اخماسا فى اسداس عما عساه يفعله أو عما عساهم فاعلون : أولا . عما سيفعله هو . مونتيس (وقد اعتادوا مناداته بابن ال .. وليس انطوان مونتيس كما كانوا سينادونه لو اعتبروه واحدا منهم . واحدا رأوه منذ كان صبيا . ثم شابا . ثم رجلا . يخترق شوارع المدينة راكبا دراجة بخارية . ثم راكبا سيارة سبور . ثم على نفس الوتيرة لكن بأخلاقيات أقل . مع بعض الفتيات السوقيات . ثم بعض البائعات أو الكوافيرات . واخيرا مع امرأة من اللاتى يذهبن لتصفيف شعرهن ويدخلن المحال التجارية لا ليبتسمن وليجذبن الانظار . ولكن ليشترين ويطلبن) . كان هو . هو . ثريا . على مايبدو . بحلة وحيدة ودراجة واحدة (دون احتساب آلة التصوير بالطبع) . ثم يأتى بعد ذلك الموثق الذى احضره هنا ليعرض عليه صفقة هائلة (ثروة مقابل ضيعة لاقيمة لها) وهى صفقة قام برفضها . على عكس كل التوقعات . ثم يأتى بعد ذلك المسجل . وزوجته ذات الرداء الاسود . وابنته (التى سارت فى الجنازة وكأنها اقرب المقربين للأسرة . تسير بشكل مسرحى فوق كعب حذاءها المرتفع) .

والآن كان (مونتيس) يمضى معظم وقته جالسا تحت نظرات موظفى الآلة الكاتبة الماكرة الجالسين فى غرف جانبية لمدة ساعات متباطئة . حيث كان يقرأ

للمرة المائة اعلانات السندات . والسلفيات وقوائم المنتفعين بالتأمين وكلهم (سواء كانوا موثقين ، أو مساعدى مديرين فى البنوك . أو بعض الوكلاء - فقد كان له وكيلا ايضا) يبدون متشحمين . ومتباعدين . ينظرون اليه من خلف مكاتبهم وهو يتقدم ، ويجلس على حافة المقعد الذى لم يدعونه للجلوس عليه ، ويروح يتهته ، ويتلعثم وسط الملفات التى كان يخرجها من حقيبته الشهيرة الموضوعة على ركبتيه . وكان الناس يتغامزون فى المدينة (يتساءلون . مدفوعين بذلك الفضول التلقائى ، وبتلك الحاسة الحاذقة التى لاتخطىء لناس يعيشون فى المجتمع ، والذين ، مع نمو حواسهم التلقانية ، ذبلوا ، وضمروا ، ونمت عندهم مقابل ذلك مايشبه حاسة الحدس التى تسمح لهم بتبين الاشياء بثقة اشبه ماتكون بثقة الحيوان فى مواجهة خطر لايهددهم مباشرة ولكنه يمس ذلك الانسان الجماعى ، الشامل ، الذى تكمن طمأنينتهم بداخله والذى بعيدا عنه لن يصبحوا ولن يكونوا - روحا وجسدا - سوى فرائس شاحبة لينة : اذن فبالدفاع عن هذا المجتمع ، وهذا النظام ، ضد كل مايمكنه هز كيانه ، كانوا بالتالى أشبه بقطيع من البهائم المدركة لتهديد ما حتى قبل ان يتبينوا نوعه بالضبط ، مدركين كل ماهو غريب فى جميع اشكاله ، العدو ، والشر المتعدد ، الخصوبة السوداء ، كانوا يراهنون ، ليس على نتائج كل ذلك فلم يكن مشكوك فيها - لكن ببساطة يراهنون على قوة احتماله ، على عناده ، على عماه ، على المدة ، وعلى الوقت الذى سيستغرقه لكى ييأس لكى يصرف النظر ، فيأخذ امتعته ويعود فى أول قطار الى حيث كان يجب ان يظل .

وبدلا من المتوقع ، من المحتوم (على حد قولهم) ، علمت المدينة فجأة باندهاش (وقد تم ذلك بعد خمسة عشر يوما) انه استغنى عن خدمات المسجل . ولم يكن الرفت فى حد ذاته ، أو ايقافه عن العمل ، ولكن هو الامر الهام الطريقة التى وقعت بها الاحداث ، وفقا لما قاله الساعى فيما بعد ، وهو يصف الرجل ، تلك الجثة التى ترتدى كاسكيتة لاعبى البيسبول ، وقد وقف عند فتحه الباب وراح ينظر اليه بشىء من الاهانة ، باندهاش غاضب أخرس ، بعينيه المستديرتين الصفراوين (وقال الساعى : وكأنه غراب واحد من تلك الطيور آكلة الرمم التى أتت لتأكل رمته معتقدة انه ميت وانهم وضعوا له عينى طائر بدلا من عينيه . الا ان كان هناك شىء من الحقيقة فى قصص اعادة التجسد وانه كان هو نفسه غرابا أو حدأة فى حياة سابقة .. «) وهى تمتلىء بشكل مروع (يقول انه كان يمكنه ملاحظة ذلك بينما كان يتحدث اليه : العينان ، الحدقتان تضيقان بحدة وبسرعة وفى نفس الوقت تتسع الشعيرات ، فيتدفق منها نوع من الحبر ، نوع من السائل الأسود السام) بتعبير غضب بارد ، قاتل ، باحتقار شديد ، وبـ .. (« كان شىء مابداخله سينفجر ضاحكا وانه يقاومه ، كان الاهانة ، والاندهاش

والغضب تتضافر فى عقله فى نوع من الانفجار الجنونى ») . ثم فجأة . مثل العفريت الذى يعود داخل العلبة . يدير له ظهره دون ان ينطق بكلمة ويصفق الباب .

ويحكى انه ظل هناك ، دون حتى ان يعرف لماذا لم يركب دراجته البخارية ليعود الى المدينة ، وراح ينظر كالعبيط الى ذلك الباب الذى صفقه فى وجهه . ذلك الباب بكل ماعليه من بوية متشققة . والواح منفصلة عن بعضها . وعقد الخشب الرمادى التى لايظهر خلفها اى شىء حاليا . تماما فان الآخر قد لاح . مثل « لازار » واقفا على عتبة قبره . لكى يستمع الى محاكمة الآخرة . قبل ان يعود الى الأبد تحت اطنان الصمت التى تغلف كل شىء . المبانى . الفناء العارى الملىء بالاقفاص المهجورة ، وأغطية البراميل الصدأة وتلك الاشياء المتناثرة كالعظام : لاشىء ، سوى زئير الريح الطويل بين اشجار الصنوبر مثل صوت الزمن المنهك ، المتهالك : وفجأة وبلا مقدمات . وبنفس الحدة التى صُفق بها . انفتح الباب ، وعاد شبح لازار النحيل الاسود ليقف ثانية عند فتح الباب . مرتديا كاسكيتة الجوكى التى لاتتزحزح . بينما راح ينتزع من يد الساعى الورقة التى لم يكن قد تمكن بعد من وضعها فى جيبه ، وصفق الباب ثانية فى وجهه .

وفى هذه المرة ، يقول انه خيل اليه بعد حين انه يسمع صوت بكاء . بكاء حريمى . أو لعله كان مجرد صوت الريح ، مضيفا ايضا انه ظل هناك ، لايعرف لماذا ، يعيد تخيل المنظر ، الذى كان يحدث خلف الباب ، بينما تناثر الضوء على الجدران ، متخيلا انه هناك فعلا (لقد حمل أوراقا عديدة مثل هذه الورقة من قبل فى اماكن مماثلة ليمكنه تخيلها وتخيل مايوجد خلف الاحجار الغارقة بالمياه ، المتآكلة من الشمس) العتمة ، الاضاءة شبه الليلية ، الاحتجاز الارادى ، ولمبة الكهرباء الصفراء المغطاه بفضلات الذباب والموقدة فى وضح النهار . والرجل ، بتلك الكاسكيتة على رأسه ، جالسا امام المائدة التى كان قذف الورقة عليها عندما دخل (أو لعله قذفها للمرأة . لتلك الكومة السوداء التى كانت تنبعث منها التأوهات ، قائلا فقط : « خذى ! » ، « ها هى ! » ، أو « اقرئى هذه ! » ، « انه يطردنا ! » ، أو ربما لم يقل شيئا بالمرة) دخل بسكون ، مكتئب ، صلب العين ، حاد الوجه ، بينما كان يقف هناك (الساعى) وهو يردد لنفسه انه فى هذه المرة ما عليه الا ان يأخذ دراجته البخارية وينصرف ، ورأه (المسجل) يخرج فجأة من باب صغير بجوار الفناء (كان قد ارتدى جاكتة فى لون اللبان كالكاسكيتة ، والقميص ، ولها ياقة من فراء الخراف المنحول) ، ثم اجتاز الفناء وهو يلقى عليه بنظرة خالية ، غير مبالية ، ولا حتى محتقرة ، ولا حتى مندهشة من وجوده هناك ، وخرج فى اللحظة التالية من الحظيرة ، دافعا امامه بعربة نقل قديمة ، ذات نوافذ زجاجية عالية ، راح ينظر اليه عبرها ، رآه متخشبا ، أشبه بالجثة ، لايعبر عن شىء ، مهان ، يحرك عجلة القيادة وكأنه يقود سيارة سباق ، ويقفز على ارضية

الفناء ذات الحفرات . ثم يحيد فى استدارة كادت تقلب العربة القديمة . اختفى عند نهاية الممشى الملىء بالاحجار المتعرجة .

وعندما قاطعت السيارة طريق مونتيس ـ وهو يسير بشكل متعرج فوق دراجته القديمة ، يتقدم مترا مترا عكس الريح ـ اعتقد مونتيس ان المسجل مر امامه دون ان يتنبه ، واعتبره مجرد راكب دراجة ، فاندفعت العربة القديمة بأقصى سرعة وكأنه الريح ، تنقض عليه بكشافاتها المستديرة ، كنوع من الحشرات القارضة ، وكادت ترتطم به . لكنه واصل السير . وحينما استدار . ونظر من فوق كتفه ، كانت السيارة قد هربت . اختفت . تبخرت : كان الطريق خاليا ، مهجورا ، لدرجة انه خيل اليه تقريبا انه يحلم لولا انه قد لمح لمدة اقل من الثانية ذلك الوجه المحترق الشبيه بالجثة وهو يمر امامه . تلك المومياء المتشبثة بعجلة القيادة ، بعينه الحادة القاسية كالطير الكاسر المثبتة على ذلك الطريق حيث كان يرمى المركبة القديمة ـ ثم اضاف ، وحتى فيما بعد نهاية الطريق . وكأنه لم يكن يلمح شريط القطران الذى كان غطاء سيارته يبتلعه بنهم هو والمنحنيات . واشجار الصنار المزروعة على حافة الطريق ، تاركا ليديه . ولردود فعله التلقائية ، وربما للريح المألوفة . عناية قيادة السيارة ..

واضاف الساعى فيما بعد : « لكن . اننى اسألك ماهى حاجته لكى يأتى هنا ، على هذا الطريق . فى مثل هذه الساعة ؟ ما الذى كان يود عمله ؟ يلتقط صورة ؟ يحتفظ بتذكار ؟ لمجرد ان يتأكد ان مثل هذا الشخص قد وجد بالفعل ، وليس فى خياله فحسب ؟ اذا كان الامر كذلك ، فيمكنه القول انه نجح . فسواء كانت معه صورة ام لا . فهو غير مستعد لنسيانه . حتى وان كان قد صوره ، من قدميه ، بما فى ذلك كاسكيتة الجوكى . لأن .. ووصف المنظر : حينما قرر اخيرا ان يركب دراجته ويأخذ طريق المدينة . فما ان وصل الى ثلث المسافة تقريبا ، حتى لمح عن بعد العربة القديمة ، لكنه لم يلمحها من الخلف وانما من الامام ، فى مواجهته ، بحيث قال انه اعتقد « من المحال ، من المحال ان يكون قد تمكن من الوصول الى المدينة فى هذا الوقت القصير ، ويعود .. » ثم ادرك ان العربة لم تكن تتقدم نحوه وانما ظلت ثابتة على حافة الطريق ، معوجة قليلا . ثم ، بينما كان يواصل سيره ، رأى ان العربة تخفى عنه ، خيالين طفيلان يبدوان وكأنهما يرقصان وهما متماسكان من الاكتاف : الا انها لم تكن رقصة بالضبط ، أو على الاصح نوع من الرقص . ان مالفت نظرى أولا هو شعره الاسود : يبدو انه فقد طاقيته وان الريح أو الهزات جعلته يرتفع عن رأسه كالتاج بحيث يمكن القول ان الشخص الآخر كان ممسكا بمكنسة ، أو بزعافة ، وانه كان ينفضها من التراب . كان ذلك بالضبط : زعافة ، المعطف القديم يتراقص تحتها مثلما تمسك انت بمعطفك وتنفضده فى الهواء لتفرد كسر القماش وثنيات الاكمام قبل ان تلقى به

على ذراعك . لكن حينما رأيت اين توجد يدا ذلك الطائر الكاسر . تماديت فى الاسراع وانا اصرخ بأعلى صوتى . لانه كان يخنقه فحسب ، نعم ! كان قد استدار ادراجه ، ولحق به ، وسبقه . واوقفه على الارض مثلما نرى فى افلام العصابات الامريكية ، وكان الآن يهزه كشجرة البرقوق وهو يضغط على رقبته صارخا فى وجهه ان والده العجوز القذر قد الحق العار بابنته ، وربما لم يكن هو مدركا تماما لما كان يفعله ، حينما اقتربت منه واخذت أخبط على كتفه ، كنت كأننى أخبط على خشبة أو على سلك كهربائى . بحيث خيل الى للحظة انه لو لم يمر أى شخص أخر يمكننى الاستنجاد به ليساعدنى . كان سيقضى عليه ، هكذا ، امامى ، دون ان اتمكن من عمل اى شىء . ثم فجأة ، يبدو انه انتبه الى وجودى . ربما بسبب صراخى اكثر من وقع ضرباتى عليه . فتركه . ونظر الىّ برهة ـ لكن لم يكن كأنه يرانى . كأنه لا يتبيننى ـ ودون ان ينطق بكلمة صعد الى سيارته وانطلق . ربما كان ثملا . ربما كان قد افرط فى الشراب ، بين الفترة التى انتزع فيها ذلك العمل من يدى واللحظة التى رأيته يخرج فيها بجاكتته على ظهره ، لا اعرف . كنت احاول اللحاق بالعبيط الآخر الذى كان يسند نفسه بيده على شجرة ويتحسس رقبته باليد الاخرى ، محاولا ان يبلع ريقه . واستعادة انفاسه . وحينما استطاع ان يتحدث ، وهو مازال مستندا على الشجرة ، راح يكرر : « انها غلطتى ، ما كان يجب ان .. لاشىء ، انها غلطتى ، ما ان يجب ان اسلك هذا الطريق .. » ـ « على اية حال كدت الا أعود منه بتاتا ، بالله تصورت انه سيخنقك تماما . بالله عليك كيف حالك ؟ كان مازال مستندا الى الشجرة ، تشوبه الزرقة ، وهو يقول : « اذا كان ابى قد اساء فعلا الى هذه الفتاة ، فإننى .. » فقلت : « فتاة ! » ثم اضفت : « اساء ؟ ان هذه الخواتم الشبيهة بسدادات الزجاجات التى ترتدينها فى كل اصبع ؟ اتسمى هذا اساءة ؟ » ثم قلت : « يا الله ! هل تتخيل انها جنتها صدفة من بين اشجار الكروم ؟ »

وقال الموثق « لقد وجد نفسه مطرود من داره . والادهى من ذلك أنه مطرود وفى عنقه هذه القضية . كان ، من السهل التنبوء بذلك ، لم يرفض ذلك الشخص اخلاء المكان فحسب ، لكنه اجبره بفسخ العقد بالاكراه فبدلا من ، لو كان استمع الى .. لكن ، اعط النصائح لعبيط ! لابد انه كان قد وجد شخصا اكفأ منه . على اى حال لدى وثائق اكثر اقناعا من التى معى . ياللمسكين . أفليس من الغباء أن يحملّ نفسه بكل هذا العبء بسبب مثل هذه العاهرة ..

ـ آه .. انها لا ..

ـ نعم ؟ وما الذى يمكنها ان تكونه ؟ ان المرأة التى ..

لكننى لم اعد انصت اليه . كنت اتمكن من رؤية الفناء من النافذة والنخلات الثلاث الضامرة تهزها نوبات الريح المتقطعة . ذلك الريح دائما .. وفيما بعد قال لى مونتيس كيف اضطر الى ترك أول فندق نزل فيه ليسكن فى ذلك البنسيون الحقير الخاص بعمال التراحيل وبالمندوبين المتجولين من الدرجة الثالثة حيث كان يجاور زبائن يعانون من الفاقة أو من المشكوك فيهم ، الخاضعين لميزانيات صعبة ومشكوك فى قدرتها على الصمود طوال الشهر ، كانت اصعبها مشاكل أيام آخر الشهر . لم يدر بخلده انه يمكنه اقتراض مايسمح له بالعيش بشكل افضل (بافتراض هذا الحل له اى معنى بالنسبة له) ، وان الموثق أو أى شخص أخر كان سيقرضه كل ماهو بحاجة اليه ـ وربما اقرضوه أكثر مما يحتاج ـ اعتمادا على الضمان الوحيد الممثل فى وصية ابيه . فراح يبحث عن غرفة يكون سعرها مناسبا لامكانياته وافضل من ذلك الفندق القريب من المحطة حيث اعتقد انه لن يمكث سوى بضعة ايام . واعتقد ، أن السعر سيكون مناسبا لميزانيته وسيشعر أيضا بمزيد من الحرية ، أى أن يتوافق معه مثلما يشعر بالتوافق داخل جاكتته المصنوعة من القطيفة المنحولة ، والمعطف والحذاء الرث . لأنه كان من هؤلاء الاشخاص الذين لايمكن تخيلهم بأزياء حديثة ولقد أفضى الىّ ذات يوم ان ارتداء حلة جديدة يعد بمثابة عذاب بالنسبة له) وليس بوجه نضر أو بشعر مقصوص حديثا (لقد قابلته مرة ذات يوم وهو خارج من عند الحلاق ، فبدا

وكأنهم شوهوا شكله ، أو كأنهم اعتدوا عليه ، باعمال العنف ، قبل ان يطلقوا صراحه ، ويطردوه فى الشوارع ، عاريا ، بلا اى دفاع ، شكله مبتئس ولا صلة له أكثر من اى وقت مضى) . ومرة اخرى حاولت ان اتخيل ذلك :

ذات يوم احد (لأن المكاتب كانت مغلقة فى ذلك اليوم ـ وربما كان الوقت عقب مطالبة بعض ملاك قاعات السينما التى تم تحدد سعر استهلاك مقاعد قاعاتهم بمائة فرنك فحسب فى الساعة مقابل آلاف التذاكر المطلوبة كاحتياطى لميزة الانتظار على الارائك أو المقاعد المكسرة فى غرف قاعات مكاتب وكلاء النيابة أو المحاميين) وبالطبع كان الاله ، هو الريح ، وشخشخة الاوراق المذعورة ، ودوامات الاوراق والفضلات ، التى تثيرها رياح شهر مارس ، التى لا تكل ، عاصفة دائمة تنهال بلا هوادة تحت سماء « ديافان » تنهك نفسها ، تسكر من غضبها ، من قدرتها التى لافائدة لها ، الخالية من المعنى ، التى تئن فى الطرقات الضيقة فى المدينة القديمة أو تنهال ضد التجمعات السكانية الحديثة ، مدفوعة متوهجة عاتية على البويات القديمة ، أو ڤيللات تجار النبيذ المشيدة على النمط « الهوليوْدى » الخالية من الحدائق ، وحمامات السباحة ، والنخيل « الهوليودى » أو القاعات القديمة للتجار وقد تحولت الى مقاهى على أخر صيحة (متوهجة ايضا ، ومزودة فى قبواتها القوطية النمط ، بنفس الابواب المصنوعة من الزجاج الشفاف المثبتة على مفصلات غير مرئية ، مثل محلات « اونيبرى » أو الموائد ذات الدعامة الواحدة المرصوصة فى بار امريكى) تطل على الميادين الخالية ، ذات اشجار السنط الهائشة ، واعلانات السينما ذات الوجوه الضخمة التى تمثل الابطال والتى تعترض طريق المارة بدقات الاجراس الحادة المعلنة بداية الحفلة الصباحية ، الاحتفال ، الحلم ، الفلاحون ، الشباب بملابس يوم العطلة ، بلا معاطف ، وقد رفعوا ياقات جاكتاتهم الزرقاء أو الوردية ، متعجلين فى جذب أخر انفاس اعقاب سجائرهم التى تحرق اصابعهم بالسراب : وبينما كانت .(الريح) تموج سطح ماء الترعة الآسن بين جانبيه المزروعة باشجار الراند الوردية المتموجة بلا هوادة ، المنهوكة ، المتهالكة ، وهى تحاصر الديار الفخمة للملاك (ليس ذات النمط « الهوليودى » ولكن المشيدة على نمط محال الحلوى لعام ١٩٠٠ المميزة للثروات المستقرة ، والفنادق البالية ذات الافنية العفنة والجدارن العفنة ، والسجاد المنحول ، والاسقف المتداعية ، التابعة لآخر ملاك ضيعات الاسلاف ، المقسمة المتناثرة والمحجوز عليها) ، وفى الاحياء الآهلة بالسكان تنساب الريح بصوت الحرير على واجهات محال الخردوات والبقالة ، والحانات ذات رائحة العرقى ، والمساكن الشعبية الذين يثرثرون ويصرخون ، الثرثارة وعمالها الذين لايكلون ، والحرفيون ، والاطفال المقملين ، والاسبان المتضورين جوعا الذين يراقبهم البوليس والنساء المتشحات دوما بالحداد ، باحذيتهم

السوداء ، وجواربهن السوداء ، وثيابهم السوداء ، وايشارباتهم السوداء التى تحيط بوجه ازلى : لاحراك فيه ، متشابه ولون الشمع ، بعيون مغمضة ، وافواه جافة وحادة كالسلاحف : اما فوق الهضاب ، فينسج نوعا من الضباب السميك ، شريط سميك تشوبه الحمرة ، ولفحات الاتربة الصفراء الثابتة المثارة ، المدفوعة بهلع ، والتى تبدو المدينة باسرها وكانها تكتسح فى دواماتها ، كمجموعة جزر من الأشباح ، بعماراتها الشاهقة الجديدة ، ومساكنها ، ومدافنها ، واجراسها ، وكنائسها بعوارضها الشامخة ، الداكنة ، الباردة ، العميقة ، فتكسح ليلهم بثقوبه الذهبية ، وروائح الشموع المريرة المتراقصة ، وترنيماتهم المثرثرة ، وعذاريهم المغتالة بالخناجر ، الواقفات فى ثياب الآلام الفاخرة ، واصابعهن الملوية المثقلة بالماس ، وعيونهم ذات الدموع الماسية المرفوعة نحو ابنهم المصلوب ، ذى الاقدام اللامعة من شفايف المعجبات والاطفال ، وقد احاطت الدانتيلا النظيفة بارادفه العارية ، الأسود ، اليهودى . أما هو (مونتبيس) فكان جالسا هناك ، أو على الاصح متقوقعا فى احد اركان سطح هذه الحانة حيث كانت موجات الريح تدخل حتى بين سياقيه التى كدعائم الموائد المصبوبة ، وبأغصانها وزغبها لم يقل كيف وصل الى هنا ، فاذا ماكان قد مر منذ الصباح على كل فنادق المدينة ـ على الاقل الفنادق ذات الواجهات ، حيث الشكل الخارجى الدال على انها تتفق وما كان يبحث عنه ـ أو ان كان قد مر امامها من قبل سواء كان ذلك محض مصادفة ، متذكرا حوالى الساعة الواحدة ، او الثانية بعد الظهر ـ وربما الثالثة أو الرابعة ـ انه جائع ، أو انه يجب عليه ـ أو ان المرء اعتاد أو ان الجسم الانسانى مكون بحيث لابد وان نقدم له الطعام من وقت لآخر ـ ولاشك انه حينما فكر ، ثم عدل بسبب الريح ، فى تلك الاريكة فى الميدان حيث قابلته ذات يوم ، جالسا فى هدوء ، يأكل بعض قطع البسكويت الصغيرة التى كان يفتتها بين اصابعه ، مثل أولئك الذين نراهم هناك عادة ، (الاسر الريفية وهى تفتح سلاتها لتخرج محتوياتها ، بأزيائهم الجديدة ، الخشنة ، ومناشفهم المصنوعة من التيل الابيض السميك الخشن ايضا والمفروشة على ركبهم ـ وتلوح منها ثنيات الكى بارزة ، كالكرتون ، نظيفة وعليها ايديهم الداكنة ، الجافة كالارض ـ أو كالبائعات أو طابعى الآلة الكاتبة ، وهن يخفين بارتياك فطيرة أو خبز ، بسرعة ، ثم ينفضن جونلاتهن ، أو كالرجال الذين يعيشون بمفردهم ، المهندمين ، وملابسهم الداخلية فقط غير الناصعة ، وهم يسحبون ساندوتشا من حقيبتهم الخاصة بالوسطاء أو بالمندوبين ، وكلهم يتفادون النظر الى المارة ، وكلهم يعلو وجوههم ، ذلك التعبير الجاد ، المتمعن والخجول فى آن واحد معا ، يمضغون ببطء ، بعين ثابتة ، خالية تنظر بعيدا وحزينة) أما هو ، حينما لمحنى ، فلم يرتبك بتاتا أو بمعنى اصح ـ كما قد يتبادر لأى شخص ـ وقد فاجأه احد وهو يقرقض

البسكويت فوق احدى ارائك الميدان ، بدلا من تناول وجبة الغذاء ، لم يكن هناك ما يسبب له الحرج أو الخجل ، وهو جالس هناك (انه لم يقل لى ذلك ، ولم يشرع حتى فى تفسيره ، بل ولم يتخيل ان هناك اى تفسير عليه ان يقال) ولا اعتقد انه تصرف هكذا من الناحية الاقتصادية ـ رغم انه لم يكن معه فى ذلك الوقت سوى القليل من النقود ، ـ ولم يكن ذلك على سبيل الزهد كما تهكم البعض ، ولكن ببساطة لأنه لم يكن يرى اية ضرورة فى ان يجلس المرء فى ساعات ثابتة امام مائدة ما ، حتى وان لم يكن جائعا ، ويلتهم من الطعام اكثر مما يستطيع هضمه ، لمجرد ان الساعة دقت الساعة الثانية عشر ظهرا وان جميع الناس فى هذه اللحظة يقومون بعمل نفس الشيء . فلقد كان جالسا على رصيف المقهى المكشوف الخالى ، بينما وقفت خادمة المقهى تنظر له بطرف عينها بعد ان قدمت له زجاجة المياه المعدنية وقامت فى نفس هذه اللحظة التى وضعت فيها الزجاجة والكوب امامه بتنظيف المعطف بما عليه من بقع ، وبنطلونه غير المكوى وحذاءه الرث ، فوقفت هناك ، امام الباب عند الستارة المصنوعة من قطع الفلين ، لمجرد ان ترقبه لتتأكد من انه لن يهرب قبل ان يدفع الحساب ، بينما أخذ يقلب محتويات شنطته التى يحمل بداخلها عشوائيا معدات التصوير ، وقطع من السكر ، وعلب افلام وافلام احتياطية . والبسكويت الذى كان يدفسه آليا فى فمه ، وهو يتابع بعين زائغة زوابع الاتربة الصفراء الطويلة وهى تتتابع وتدور بلا هوادة على ارض الميدان ، وفى النهاية ، اعتقد ان خادمة المقهى رفعت منكبيها ودلفت الى الداخل ، لم يبق هناك سوى الستارة المصنوعة من قطع الفلين المتراقصة ، تصدر صوتا مكتوما وخال كالعظام الجافة .

وفوق باب المقهى توجد لافتة مكتوب عليها " بار استعمارى " بأحرف غائرة على خلفية من اللون الاخضر الداكن ، وفوق اللافتة توجد نافذة علق على طرفها بالسلك المعدنى سطلا مربى من المعدن الذهبى الصدىء يتدلى منهما البؤس . وعلى حبل مشدود ، بنطلون رجالى منشور ، بجيوب مقلوبة للخارج . تهزها الريح . فوق النافذة كان يمكن قراءة كلمة " فندق " المكتوبة باحرف كبيرة سوداء شبه باهتة .

وفى الداخل اربعة اشخاص مسنين ، يرتدون زى يوم العطلة ، وعلى رأس كل منهم كاسكيته أو قبعة ، تلتصق بشفتى كل منهم سجائر نحيلة ، يلعبون الورق ، خيل الىّ أننى اراهم : شبه محنطين ، باعقاب سجائر شبه محنطة أيضا ، تشوبها الصفرة أو على الارجح الخضرة ، تنطفىء ويعيدون اشعالها بين كل دور لتوزيع أوراق اللعب ، وما أن تنطفىء حتى يتساقط الرماد على صدرياتهم ، تاركا تلك الاسطوانة السوداء المصنوعة من الورق الرخيص غير المحترق تماما ، وكان الصوت الوحيد هو تلك الكلمات الشحيحة ، النادرة ، شبه المتآكلة ، التى تصل

من خلف أسنانهم المتآكلة ، واعقاب السجائر المتآكلة ، وحركاتهم الشحيحة ايضا ، الحادة البطيئة ، بأياديهم الجافة كالممياوات وهى تجمع أوارق اللعب ، وتفردها ببطء كالمروحة امام وجوه الممياوات ، وعيون المومياوات ، وحينما دخل هو ، (مونتيس) ، وأزاح الستارة المصنوعة من قطع الفلين ، ارتفعت نحوه نظرات احد هذه المميوات ، رمق لحظة ذلك الطيف الذى ظهر ، المرتسم فى الظلام عند فتحة الباب ، الفاتحين والباهتين ، وجلد جفنيه المكرمش يرمش بسرعة وكأنه يحميها من شدة الضوء ، أو حتى من اية رؤية ، ومن اى تدخل يأتى ليقلق الشكل الخارجى لهذا السلام الكئيب ، لهذا الفراغ ، لهذا اليأس : اى لذلك الوقت المتصلب ، المتحجر ، المهزوم : وارتفع احد هذه الاصوات المتآكلة ـ دون ان تطرف له عين مرة ثانية ـ ونادى : « روز ! » وخيم الصمت من جديد ، وحينما أتت ظل يرقبهم ، كالمبهور ، وهم يجمعون اوراق اللعب القديمة التى تاهت مصالحها بينما راحت هى تعيد عليه سؤاله ، قائلة : « غرفة .. ؟ » ، وتفحصه من جديد ، تفحصه من قمة رأسه لاخمص قدميه ومن اخمص قدميه الى قمة رأسه الى ان قالت : سأرى . سأسأل المديرة . هلا تكرمت بالحضور الى هنا ؟ .. »

ثم ادارت له ظهرها . وكاستمرار للمقهى ، كانت هناك قاعة اخرى طليت جدرانها بالاخضر ، تزخرفها بعض اعلانات الخمور الفاتحة للشهية ، وست أو سبع موائد تعلوها تلك المفارش المصنوعة من الورق ذات الاحرف المزخرفة ، المتسخة بالبقع والآثار البنفسجية المستديرة التى تخلفها الزجاجات . لكننى لا اعتقد انه التفت الى الرائحة ، المنبعثة من الطبيخ الرخيص البارد ، ومن النبيذ الرخيص ايضا : وقص لى انه ظل هناك ينتظر ، واقفا فى تلك العتمة الباردة ، التى تشوبها الزرقة الخضراء ، ناظرا ، عبر احدى النوافذ المطلة على الفناء الخلفى المليء بصناديق البيرة الفارغة ، والكرمة النحيلة المتعرجة العارية ، منصتا الى صوت الريح الدائم التواجد القادم من الخارج ، الى ان شعر بذلك الحرج الناجم عن نظرات تصوب نحوه فاستدار عندئذ واكتشفهما : أولا لم تكن الخادمة والمديرة ، كما قال لى ، وانما زوجان من العيون المتماثلة ، شديدة الاتساع ، السوداء ، العميقتان ، المصوبتان نحوه ، وبعد ذلك تبين الطفلتان ، الجالستان عند احدى الموائد ، قرب النافذة الاخرى ، كانت الصغرى تمسك فى يدها باحدى تلك الاشياء اللزجة التى كانت منذ ساعة مضت قطعة من الجاتوه وقد تحولت بعد المص أو اللعق الى ذلك الشكل لطعام نصف مهضوم حتى قبل أن يؤكل ، وكل مايحيط بفمها قد تلوث ، واصابعها ايضا كانت ملوثة لزجة ولامعة وهي مازالت تمسك بقطعة الجاتوه عند فمها ، مثلما كانت تفعل فى اللحظة التى

دخل فيها الغرفة خلف تلك المرآة ، الا ان شفتى الطفلة لم تكن تتحركين حاليا ، ولا يدها . ولا زورها ، عيناها فقط هما اللتان ترقبانه ، اما الفتاة الاخرى وكانت فى حوالى الثامنة أو العاشرة من العمر ، فكان لها وجه من تلك الوجوه التى ليست بجميلة أو قبيحة ، جلده غير لامع ، شبه زيتونى اللون ، مشدود على العظم ، ليست من جراء نحافة غير طبيعية أو مرض ما ، لكن لان هذا لشد كان يبدو ، مثل حدة النظرات (ليست فضولية ، وليست وقحة ، لكنها مجرد نظرات مشدودة وجادة هى) يقظة ، حادة ، نفس طبيعتها ، كأنها كانت ، على حد قوله لى ، نوعا من التجربة أو بمعنى اصح من معرفة الاشياء التى يكتسبها المرء فى حياة سابقة فتشكله على هذا النحو : تعبير لايمكن اختراقه ، لا ينم عن شىء ، عينان داكنتان ترقبانه وهو يتقدم بين الموائد ، وتظل ترقبه وهو ينحنى (يداها واصابعها المتسخة بالحبر تمسك بالريشة المدهونة بالأحمر ، تنهمك على كراسة الخط ، لتكتب بذلك الحبر البنفسجى ذى الطيف الاخضر الذهبى) ، وفمها المغلق باحكام لم يفتح الا حينما كرر سؤاله للمرة الثالثة ، فقالت بسرعة فى نفس واحد : « تريزا سبيناس » وماكادت تنطق بها حتى اغلقته ثانية ، فأعاد سؤاله : « ماذا ؟ » ومرة ثانية كررت نفس الصوت المقتضب ، السريع ، الهامس ، بوجه مازال لا ينم عن شىء ، لايمكن اختراقه ، وما كادت تنطق حتى اغلقت فمها ، أو بتعبير ادق ضمته ، برشمته (وقد قال لى فيما بعد ، كان تعبيرها يجمع بين الاحتقار ، والتعالى ، والوحشية ، كأنها تتنازل لى عن شىء أو لعلها اجابت بنفس الطريقة التى تجيب بها فى المدرسة ، عن أسئلة والبالغين ، بان تلضم الاسم واللقب فى كلمة واحدة ، أو على الاحرى مجموعة من الاصوات خالية من المعنى ، وغير مفهومة مثل ملامح وجهها . ذلك القناع الصغير الذى لاينم عن شىء ، وكأنها تود ان تبتعد عن اى منال ، وأن تختفى ، ماهى مجبرة على البوح به) فسألها : « تريزا ؟ » فسكتت ، وعاد يسألها : « أليس كذلك : تريزا ؟ اسمك تريزا ؟ » فاكتفت بان رمقته بعينيها البراقتين ببرق أسود فى العتمة ، ثم سألها : « واختك الصغرى ؟ أليست اختك ال .. ، ثم لاحظ انها لم تعد تنظر اليه فى تلك اللحظة ، وان لم يتغير اى تعبير فى وجهها ـ فقط مجرد تحريك الحدقتين الداكنتين ، أو قطعتى الفحم ـ ، لكن ثمة شىء خلفه . مخيما استدار فرأى ذلك الشخص الواقف عند فتحة الباب المؤدى بين المقهى وقاعة المطعم ، وقد وصل هناك دون ان يشعر به احد ، لأنه لم يسمع اى صوت ، تماما مثل تلك الافلام ذات الخدع الخيالية حيث يلوح فجأة وسط ديكور خال ، شخص ما مجسد من لاشىء ، وفجأة يرتكن بلا مبالاة على حائط ما ، وبعد عدة اشهر تذكر ان أول مالفت نظره ، كان ذلك التناقض الحاد بين المساحة الناصعة لصدر القميص ووجهة الداكن : قميص ابيض بخطوط وردية ، شديد النظافة ، بياقة مرتفعة

مقفول الأزرار ، بدون رابطة عنق ، والبدلة مضبوطة ، مكوية بعناية ، لكنها منحولة ، ويده السمراء تخرج من اسورة شديدة النظافة منحولة ، ممسكا بين اصبعيه سيجارا لا اسود صغيرا ، اكبر قليلا من السيجارة ولم يتركه من يده (وذلك ايضا مما لفت نظره : تلك المهارة ، تلك الطلاقة التلقائية ، الوقحة ، شيء ما خليط من الارستقراطية والحيوانية ، لا للشخص نفسه ، لصاحب اليد ، لكن لليد ذاتها ، التى بوسعها ، حتى دون ان يبدو عليها ذلك ، ان تؤدى عدة حركات فى أن واحد) وحينما انحنى القادم الجديد ليمسك الطفلة الصغرى من تحت ابطيها وهى تنطلق نحوه رفعها فى الهواء ، ثم قذف بها الى أعلى والتقطها عدة مرات ، وكانت هى تشهق من الضحك ، ظلت الاخرى ، الاخت الاكبر ، فى نفس ثباتها خلف المائدة ، والتفت مونتيس ، يتأمل المنظر ، وفجأة توقف كل شيء ، تحجر : المرأة ، خادمة المقهى ، دخلت من الباب الخلفى بآخر القاعة ، واخترقتها بخطوات مسرعة ، واتجهت مباشرة ناحية الرجل ، وانتزعت الطفلة من يديه ، ودفست اصبعين بحدة فى الفم المفتوح ، ثم اخرجتهما توا ، وألقت بشيء ما ، وانتشلت من يد الطفلة قطعة الجاتوه الملطخة ، وألقتها ايضا ، ومسحت اصابعها بسرعة بطرف مريلتها ، وحينئذ فحسب قالت : « ألست بمجنون ؟ الا ترى انها تختنق ؟ »

وربما لم يلحظ (مونتيس) كل هذه الاشياء مثلما قصها على فيما بعد . اقصد التفاصيل (القميص . الخاتم المطلى بالذهب . او ربما كان من النحاس . وقد لبسته اليد الممسكة بالسيجار بلا اكتراث وكانه خاتم من الذهب الخالص . والبدلة المنحولة . المثقوبة عند أحد المنكبين . لكنه يرتديها بنفس الطلاقة التلقائية كما لو كانت جديدة . خارجة بالامس من عند الترزى . وليست مصنوعة من ذلك النسيج الذى على وشك التمزق من كثرة المكوى فى نفس الثنايا . والذى نحل حتى صار تقريبا مثل ورق السجاير . اما ثنية البنطلون فكانت اشبة بحافة الموسى . والاساور الشديدة النظافة المشرشرة لم تكن تحاول الاختفاء تحت الكم لكنها كانت تتعداد بشدة . بنفس الوقاحة وكانها كانت مصنوعة من الدانتللا) . ونفس الشيء بالنسبة لبقية ماحدث . فقد ظل يرقب . ويسجل دون ان يدرك تماما . بحيث ان ما قصه علىّ كان خطا . مفتعل مثل كل ما يحدث لسرد الاحداث بعد فوات الاوان . فإن مجرد سرد . الأحداث . والتفاصيل . وشتى الوقائع . تتخذ شكلا مهيبا . لايضاهيه شيء مثل لحظتها . الا انه . كان هناك . ينتظر مديرة الفندق التى راحت خادمة المقهى تستدعيها . فكان يستعرض ربما للمرة المائة سلسلة المضايقات التى لاحقته منذ وطات قدماه هذه المدينة . محاولا التنبؤ بسلسلة المضايقات التى لا مفر منها والتى على وشك الحدوث كان . يحسب ويعيد حساباته ويحصى النقود التى تبقت معه بعد مختلف المصاريف والاستقطاعات التى قام بها مستشاريه (وكانت حساباته تقريبا

كالآتى : «غرفة بالكثير ٤٠٠ فى اليوم . وان تناولت وجبة واحدة ٣٠٠ ؟ عينان اسمها تريز .. الاجمالى : ٧٠٠ فى اليوم ١٠ الفطور . غير ضرورى . بسكويت حسنا . ياله من شخص غريب . أهو غجرى ؟ .. نسيت الخدمة . ١٠٪ . لا ١٥٪ . الاجمالى حوالى ٨٠٠ - ٨٥٠ . كثير . ترى لو كان سعر بانسيون ؟ ان ذلك ارخص لكن ليس بوجبة واحدة . تقريبا نفس السعر . ترى : شهر او اثنان ؟ اذن : ٨٥٠ × ٦٠ .. ») وربما لم يكن يرى . مثل آلته الفوتوغرافية التى لاترى . ولا يعرف . وليس قادرا على التذكر : ان عدسته نعم . ذاكرته . نعم . (لأن الانسان عبارة عن شىء آخر غير المادة : ليس اكثر منها . لكن ايا كان الامر فهناك شىء ما أكثر . ما يكفى لسوء حظه . فمن الافضل له الا تكون له مقدرة على المعاناة اكثر من آلة التصوير . وان يكون بوسع المرء فى كل لحظة وكلما بدا له ذلك ان يرفع الغطاء . ويسحب الفيلم الذى تم تصويره . يلقى به ويضع محله فيلما بكرا . ويبدأ فى العمل . يشحن الآلة ويضغط على الزر . بنفس الحركة الآلية وبنفس اللامبالاة الجديدة) . بما انها (ذاكرته) كان بوسعها ان تستعيد كل شىء فيما بعد : المطبخ حيث كان بوسعه الآن ان يرى من الباب المفتوح المرأة وهى تجلس وتجلس الطفلة على مقعد . وتخرج من الدولاب قطعتين من الشيكولاته قامت بتوزيعهما مع شريحة من الخبز لكل من الطفلتين (اضاءت النور الكهربائى . هو الآن بمفرده . مازال منزرعا فى نفس المكان فى قاعة الطعام التى بدأت العتمة تزحف اليها) بينما الشخص الغجرى الذى تبعهن (لم يلتفت بتاتا الى مونتيس . بل ولم يبد عليه انه لاحظ وجوده . مثل تلك المرأة التى لاتكترث بوجوده) فقد ارتكن الى حلق الباب يراقبها فى صمت وهى تعبث فى الفرن المنطفىء . تكرمش جريدة . تسحب حزمة من جذوع الكرمة من خلف الفرن تكسرها بسرعة . تدفس كل ذلك فى فتحه الفرن وتضيف اليها قطعتين من الخشب . تشعل الثقاب . وعندما بدأ الدخان يتصاعد من بين الدوائر مرتفعا . احاط بالسطل . ارتفعت اصوات الجرافة الآتية من الفتحة وهى تتساقط فى الماء . وعندما عادت . كانت الطفلة الكبرى تقف امام قطعة مرآة معلقة قرب الحوض شبت على اطراف قدميها لترى مفعول ذلك العقد الرخيص حول عنقها . وهو مثل تلك العقود التى تلتقط من الاسواق الرخيصة المقامة فى الهواء الطلق . ووقف الغجرى بجوارها . وعندئذ . خرجت هى (المرأة) من صمتها . وضعت السطل . وقالت (الغجرى والطفلة يقفزان فزعا . التفتا فى حركة واحدة) : « نعم ؟ كان من الأفضل ان تشترى لها ثوبا » ثم . كمن ادركت انها تحدثت طويلا . رفعت منكبيها . اخذت السطل . حملته حتى الفرن . انتصبت . مسحت جبهتها بكمها . انحنت لتمسك بالسطل ثانية . وبينما كانت تضيف مزيدا من الفحم فى فوهة الفرن . ارتفعت ألسنة اللهب . اضاءت وجهها بانعكاس اصفر

الى ان وضعت غطاء الفوهة . ثم عاد وجهها من جديد الى العتمة فى حين راحت . وهى منحنية الى الارض . تلتقط وتلقى فى السطل بقطع الفحم المنحدرة على البلاط .

وانني لأتساءل اذا كان هو (مونتيس) . حتى الآن . قد لمحها . او حتى ان كان قد رأها فى هذه اللحظة . لاختلجت مشاعره من منظر ذلك الوجه الذى لم يكن لينساه طوال حياته . لم يقل لى ذلك هو . لاشك لانه لم يكن لدية مايقوله فى هذا الشأن . فلم يكن من ذلك النوع المخادع او الذى يدارى . على العكس . اذن لم يقل لى اذا ماكانت قد تركت فى نفسه اى تأثير (ومازلت اعتقد : ولا اى تأثير . على الاقل بالمعنى الذى يقال عادة بان امراة ما قد اثرت على رجل) بل حتى لم يصفها لى . قال لى فقط انه ظل هناك ينتظر وانهم على الارجح قد نسوا وجوده (او انه على الارجح . فى اعتقادى . ووفقا للوصف الذى قالت به خادمة المقهى لصاحبة المحل انها تعمدت الابطاء فى النزول أملا فى يأسه وانصرافه) . اما اولئك الذين كانوا فى المطبخ . والذين يبدون وكأنهم يكونون اسرة ما : فكانت هى . والطفلتان السمراوان وذلك الشخص الذى كان يرقبها وهى تعمل وقد وضع يداه فى جيوبه وكمن خشى ان يعرق او ان تتسخ اساور قميصه الناحلة الشبيهة بالدانتللا . فحرك بقدمه حذءاه فحسب ليشير الى قطعة فحم نسيت ان تلتقطها . وفى النهاية (وكأن الحديث يمثل بالنسبة اليه جهدا . او قد يتصبب عرقا . او ان يفكر . او كأن الكلمات التى يسمعها كانت بحاجة الى وقت كى تصل الى عقله . لتولد فيه اجابة . ووقت أخر لكى تنتقل الاجابة من عقله الى شفتيه) تبادر منه بعدم اكتراث : « فستان ايضا . ولم لا ؟ » . واستدار هذه المرة ناحية الطفلة قائلا : «كيف تريدينه ؟» وفجأة انطلقت ثورة عارمة . فالمرأة التى كانت فى تلك اللحظة تغسل يديها فوق الحوض . استدارت لتقول بفظاظة : « انها لاتبغى شيئا " لا تريد من تلك الثياب التى تدفع ثمنها من حيث تعلم . هل فهمت ؟ لم اعد اطيق ذلك السوق هناك . هل فهمتنى .. » وقالت الطفلة : «اى سوق ؟». فأسكتتها المرأة قائلة : «لاشىء اكملى خبزك » . وردت الطفلة : «لست جوعانة . اى سوق ؟» وراحت عيناها المتوحشتان السوداوان . اللامعتان . تتنقلان بسرعة بين الرجل والمرأة . بينما واصلت المرأة حديثها . بصوت مكتوم . منخفض . سريع وتحرك الغجرى من مكانه . بنفس عدم الاكتراث دون ان يتعجل . وهو يشعل سيجارا صغيرا أخرا ودون ان يكف عن التدخين دفع الباب بقدمه . فوجد مونتيس نفسه بمفرده . فى ذلك الظلام شبه التام . والى ان ظهرت امرأة عجوز عند طرف السلم . ضغطت على مفتاح النور الكهربائى . تفحصته لحظة قبل ان تقرر النطق لتقول له : «هل انت الذى طلبت غرفة ؟».

كانت افرع شجرة الصنار تكاد تصل الى النافذة الضيقة . واثناء الليل . كان المصباح الكهربائى يلقى بظلاله المتحركة . ويرسم فى السقف ما يشبه تداخل السيوف المتماوجة . التى تتبدل وتتضاعف اشكالها لتتشكل بلا هوادة . وكل يوم . وكلما كان الربيع يقترب . كان مونتيس يستطيع مراقبة النبت الزغبى وهو يتكون تدريجيا . ثم ينفصل عن جذعها الخشبى . نحيل . متغطرس . منتصر .

وطوال اليوم . كان الميدان يبدو وكانه يعيش حياة خاملة متكاسلة . بينما فى الصباح . تتواجد مجموعات النسوة الثرثارات حول حنفية المياة العامة وسط أحواض الاباريق وهى تصطك . يجررن اقدامهن فى احذية بالية فقدت اربطتها . لم يصففن شعورهن . او . يمررن بعد ذلك وقد وضعن رغيفا طويلا من الخبز تحت ابطهن . كما كان يوجد دائما هناك . وبطول جدران الثكنات الحربية . غجريان . او ثلاثة يجلسون فى الشمس وسط التراب (الشبان) او (المسنين) يجلسون فوق مقاعد يسحبونها الى هناك . وعند الظهيرة كانت تمر لحظة تدب فيها الحياة فى الميدان . بينما يخترقها عدد من الأطفال العائدين من المدرسة . فيصحو الميدان على صوت موتورات بعض سيارات النقل التى ركنها سائقوها لفترة تناول الغداء . وفى فناء المقهى مجموعة الشبان الغارقين بتكاسل فى مقاعدهم امام المنضدة (ذات القائمة الواحدة) التى لا يعلوها شىء (لم يطلبوا شيئا . واكتفوا بالجلوس هناك . مضطجعين الى الخلف على مقاعدهم . يتشدقون . مفلسون وصاخبين) . ويعود الصمت ثانية . يغرق الميدان فى خمولة . فى مهب الريح . وسحب التراب الخالدة التى تعتريه من ركن لآخر من الارض العارية مع هبات الريح المتقطعة . كانت هناك دائما امرأة ما بجوار مضخة المياة . تغسل وكان هناك دائما . غسيل ما منشور فى عدة شبابيك . انواع من الغسيل الملون المتراقص على الحبال . وفى المساء تدب الحياة مرة ثانية فى الميدان . يأهل بالناس مرة اخرى قبل مجىء الليل بصراخه . أطفال يمرحون . ونسوة بمرايلهن وشعورهن المنكوشة من فعل الريح . واحيانا توجد مجموعة من لاعبى الكرة بعد الفجر ببنطلوناتهم المتهدلة . وبدلهم المنحولة . او حتى الرثة . لكنهم دائما وقحون . مزدرون . تحيط باعناقهم ايشاربات رقيقة

الالوان فاتحة تحت وجوههم السود . وايضا بضعة أعراب دائمي التواجد . طيبين جائعين حزانى تواقين الى الماضي ، وكأنهم يعيشون خارج الزمن الملغى خارجون من طرقات التاريخ البعيدة ذات الظلال حيث تبدو مواكب وجوه المحاربين وبنفس شواربهم الداكنة ونفس النظرات الحيوية الحزينة . غير المبالية ، على خلفية الخضرة الخصبة للبلدان المهزومة . لنفس ذلك الريف القاني المسقى بالدماء الخصبة والعرق الخصب .

ومن نافذته ، كان مونتيس يتابع كل يوم ذلك التكرار الهادىء الذى لايقاوم . وذلك التلوث الغامض الجليل . الساحر . وذلك التتابع من الاحداث الثابتة . شيء أشبه مايكون بما يدفع ذلك النبت . وتلك البراعم الملحة المتورمة التى يهزها الريح بلا هوادة ، الى الانبثاق . وبعد عدة ايام لم يعد اهل الحيّ يلتفتون حتى ناحيته ، فقد اعتادوا رؤيته . سواء خارجا او داخلا الى الفندق حاملا بعناء تلك الحقيبة الضخمة المصنوعة من جلد البقر . أو فى احيان اخرى جالسا على احدى الارائك فى الارض الخلاء . يتأمل اطفال الحى بشعرهم الاشعث وثيابهم الرثة يرمحون ويلهون احيانا بآلة التصوير . ويدفعون بعضهم البعض حوله ويزقزقون ، يحيطون به . او يقفون فى الهواء الذى يكتسح الرصيف . وسط الصف الاول للنسوة . والاطفال والعرب الصغار الذين يرقبون لعبة المراجيح بالخيل الخشبية وهى تدور على نغمات هشة تحت خيمة بالية مرقعة . بينما وقفت الطفلتان اللتان شاهدهما فى الفندق تلعبان فوق خنزير أو اوزة . او بجعة . أو خيل . او عجلة صدأة . وقد تصلب عودهما فى هيبة . ولمعت عيونهن من السعادة وهن ينظرن اليه بتساؤل حينما كانت المرجيحة تبطىء فى دورانها . تتوقف . وكان كل مرة يكتفى بان يومىء لهن برأسه . وعلى وجهه تعبير متألق . سعيد ، وهو يخرج من جيبه كيس نقوده المصنوع على ما يبدو من نفس نوع الجلد الذى صنعت منه تلك الحقيبة الشهيرة . ثم يعد قطع العملة فى يد العامل الذى يشغل اللعبة . فتضاف الدورات على الدورات دون ان يشعر اى احد منهم لاهو ولا الطفلتان ببرد المساء الذى بدأ يزداد . ولا بالريح . بينما كانت ايدى الطفلتين مطبقتين على الجادون او على الدعامة الحديدية وحمرة البرد تعلو وجهيهما . اما هو فظل يتأملهن بتلك الابتسامة الدائمة . وقد اعتلت الحمرة انفه ايضا ، رافعا يده احيانا ملوحا بها كلما مرت الفتاتان امامه . واستمر ذلك الى ان حضرت خادمة المقهى ـ وكان الليل قد كاد أن يخيم على المكان وبشىء من العصبية ، امسكت بالطفلتين . بينما تقدم مونتيس . يعترض طريقها . بشىء من الخجل . وكأنه ضبط متلبسا بخطأ ما . مبدلا من موضع قدميه بينما راحت المرأة ترمقه بذلك الذهول الواضح كاليوم الذى رأته فيه لأول مرة . عندما كان جالسا فى شرفة المقهى (وقد أرتنى فيما بعد . الصورة الوهمية . التى التقطها لها ويا

لسخرية الاقدار . فقد كانت تلك مهنته . واكثر من مهنته . على ما يبدو . او شغفه . فقد كان يمضى وقته فى تصوير كل مايمكن تصويره والغريب انه لم يصور خادمة المقهى . ولو مرة واحدة . وانما التقط لها صور مع مجموعة من الناس ، وفى مثل هذه الصور التى تلتقط بمناسبة الاحتفالات او الافراح : وربما كان ذلك بعد ظهر ذات يوم احد ، مع صاحب وصاحبة الفندق . والطفلتين ـ بدون الغجرى ـ تحت التكعيبة فى الفناء الخلفى حيث كان يمكن تمييز صناديق البيرة المتراصة فوق بعضها : كانت امرأة فى الثلاثين من عمرها . بيضاوية الوجه . بأنف مستقيم شبية بسكان البحر الابيض المتوسط . طويل الى حد ما . ممتلئة الشفتين . شعر شديد السواد وقد لفحه الريح فى لحظة التقاط الصورة ونثره على وجهها . كانت جميلة الى حد ما . بل جميلة حقا . لكن من ذلك النوع من الجمال المهان . الأكثر مما يطلق عليه عادة جمال . تعلوه مثلا اشياء اخرى غير تلك التشوهات او ذلك اللون الداكن الذى يعلو رءوس التماثيل التى يتم العثور عليها وسط الانقاض (مثلما عثر عليها ناعمة . ملساء . شاحبة) . اذن . كان الوجه صارم ـ او متحجر ـ وملفت للنظر . بلا مساحيق ولا اصباغ . بجسدها ـ او بمعنى ادق ما يتخيله المرء تحت ذلك النسيج السميك المصنوع من التريكو . والجونلة الداكنة . اى تقريبا لاشىء : مجرد زى . غطاء ما ـ مايمكن ان يطلق عليه انتصار الزمن . نفس ذلك الشىء الجامد . الذى لا يطل ـ كالمهرة . على حد قول مونتيس ، ذات يوم : مهرة حلوب بأردافها الثقيلة . القوية ورغم ذلك الانثوية ـ ذلك الهدوء الذى لايقهر الذى يعلو الحجر او البرونز المقسو عليه المهان . والذى يواصل تواجده كحجر او كبرونز) . كانت تنظر اليه اذن بذلك الاندهاش . الذى لم يعلوه حتى الاحتقار . ولاحتى العداء : اندهاش فحسب . يقول : «أتعرف ؟ عليها ان تتم واجباتها كان يجب ...» . ثم ادارت له ظهرها ـ وربما لم ترفع كتفها ـ واتجهت الى الفندق . ممسكة باصغر الطفلتين من يدها وظل هو واقفا بينما كانت تبتعد . ظل فى شبه ضياع . فى حيرة . بجوار اللعبة التى كان صاحبها يقوم بتغطيتها .

ثم بدا ذلك كشىء مقبول . معترف به : فمثلما اعتاد الحى رؤيته وهو يروح ويغدو . اعتاد رؤيته بصورة شبه دائمة بصحبة الطفلتين (اى فى الوقت الذى لم يكن يمضيه فى قاعات الانتظار بمكاتب المحامين وحينما لم تكن الطفلتان فى المدرسة . او لعله كان يتصرف بحيث تتوافق ساعات الانتظار مع مواعيد المدرسة) وهو يخرج كيس نقوده فى كل مناسبة ليبتاع لهن المصاصات او الحلوى التى يعلوها التراب التى كانت تبيعها المرأة الجالسة عند ناحية الثكنات القديمة المتهالكة المطلة على الساحة . ومعها تلك الحلوى الشبيهة بالثعابين الغارقة فى الزيت الصفراء الملفوفة على هيئة مقانق طويلة بيضاء من الرمال والسكر . والعديد من «البنبونى» بألوانه الحامضة الشاحبة المرصوص على

قطعة من نسيج الايتامين الاحمر الذى يلفحها الريح وكأنها جونلة . والآن ، كان هو الممسك بيد الطفلة . بينما راحت الاخرى تجرى امامه او تلعب السيجة مع اطفال آخرين وجلس على الاريكة يرقبها بعينيه . هو نفسه لم يقل لى سوى اشياء قليلة ، او على ما اعتقد لا شىء بالمرة . فيما يتعلق بتلك الاسابيع الاولى التى تلت اقامته فى هذا الفندق . وربما لانه لم يكن هناك ما يمكن ان يقوله ، او ربما لم يكن هو لديه مايقوله ، بما انه لم يشعر بشىء ، او بمعنى اصح لم يدرك اى شىء ، اكثر مما انه وجد نفسه هناك مثله مثل اى واحد من نزلاء الفنادق المنعزلين والذين يتبادلون بضعة كلمات عن حالة الطقس مع صاحب الفندق او مع خادمته ، او مثل ذلك الذى اعتاد الجلوس على المائدة التى بجواره حينما يفرغا من طعامهما ، فيلعب مع القط الذى يحوم حول ساقه ، او يجلس احدى الطفلتين على ساقه بعد احتساء القهوة : ولا أى شىء أخر . او على الاقل ذلك هو ما تخيله (مثل دون چوان ، العاشق الذى كان ، والواثق من نفسه وهو يفكر فى غطرسته ، وفى كبريائه قائلا : «وامرأة اخرى ! ما عساى افعله بها ؟» . وربما كان هو يفكر على عكس ذلك ـ ان لم يكن نوع من الغطرسة ايضا ، او الكبرياء ـ : «ما الذى ستفعله بى ؟» ، او ربما لم يقل حتى ذلك . وقال فقط : « ان كان هناك ثمه ما انا فى منأى عنه .. » ، وربما لم يقل حتى ذلك : لاشىء بالمرة) . ألم ير ، او ألم يخيل اليه رؤية وجهى الطفلتين السعيدتين على الخيل الخشبية او امام الحلوى المرصوصة واللتين كانتا تسمحان له باستخدام كيس نقوده لعمل شىء أخر فى حياته سوى ابتياع باكو البسكويت والجريدة بعد ساعات الملل القاتلة التى كان يقضيها فى غرف الانتظار عند المستشارين القانونيين ، ومساعدى مديرى البنوك وخبراء الحسابات . ربما .

ثم فجأة ، تعاقب تباعا ، مايمكن ان نطلق عليهما الحدثان ان لم تكن الكلمة فى حد ذاتها ، مبالغا فيها ، واكبر مما يجب ، بالنسبة لأحداث تعبر فى حدذاتها وخارج مضمونها ، لاتمثل اهمية كبرى أولا تلك الزيارة ، او بمعنى ادق ذلك التدخل ، او محاولة الدخول بالتحايل ، او بالمغالطة المعنوية الى حد ما ، ليس فيما اصبح يطلق عليه الآن غرفته فحسب (الفندق ، تلك الغرفة البائسة) لكن فى خصوصياته فى تلك الحياة التى استقر فيها حاليا وان لم يكن ذلك حقيقة عدم التكرار (او استمرار ، او مرادف) لزيارة اخرى (لتدخل) ، يرجع الى شهر مضى ، حينما كان مازال يقطن ذلك الفندق القريب من المحطة : فذات صباح اقتحم شخص غرفته ودفع الباب حتى قبل ان تتاح له فرصة الرد على الطرقات . كان ضخم الكيان احمر الوجه ، محتقن ، «مبطرخ» ، شكله هام ومتضرر فى ان واحد ، وقدم نفسه على انه عمه (وراح يبحث بعينيه فيما حوله ، فى نفس اللحظة الى كان يمد له يده بل وحتى قبل ان يدعوه الى الجلوس ، فلم يكن هناك سوى

مقعد واحد عليه جاكتته الوحيدة ومقعد وثير تحول الى مخزن لمعدات التصوير . فاختار ان يلقى بكاهله الضخم على حافة السرير غير المرتب بعد) ، ليس عمه تماما ، كما شرح له . لكنه شديد القرابة . أى عمه على اية حال بما انه ابن عم والده المتوفى ، وخاصة اكثر من قريب : فقد كان صديقه (كانت نظراته طوال الحديث تحيد لتستقر على البنطلون ، ورباطة العنق البالية ، والكوفية القديمة ، مترددا ، متسائلا ، رغم تحذير الموثق ـ فلم يكن فى وسعه الحصول على العنوان الا منه ـ اذا ما كان احسن التصرف بمجيئه ، وان كان من الصالح الاستمرار فى البقاء ، الا انه فى نهاية الامر حسم الموقف ، والقى بدعوته بلا امل يرجى) . وقص على مونتيس فى ذلك العشاء ، تلك الامسية ، ذلك البيت حيث يبدو ان احدا لم يحرك اية قطعة اثاث منذ قرن او اكثر : لم يكن الديكور قديما فحسب ولكن بلا روح ، بلا حياة ، الألوان اغتالها السواد . الستائر القطيفة ذابلة ، الاوانى محرومة من الخضرة ، ساعات الحائط توقفت عقاربها ، زخارف المدفاة التى كانت من هدايا زواج الأجداد الذين توفوا وتم نسيانهم من زمان مازالت باقية فى اماكنها ، منسية هى ايضا بالضبط فى نفس مكانها ، يمرون عليها صباح كل يوم بريشة تنظيف عابثة تمسك بها ايدى مرتزقة ، وكذلك مجموعات الاسلحة ، وسيوف الفروسية ، والبنادق والمسدسات التى راح يعلوها الصدأ ببطء ، مهملة منفرة ، يعلوها شىء ما من عدم العظمة ، تتوارد فى الخواطر على ذكر فيلق الخادمات ذوات منافض الريش وجيل الضباط ذوى الاسلحة المشتراه فى نفس الوقت مع شهاداتهم وبنفس اللقب ، اى انها فخرية ، زخرفية ، لكن يستخدم فقط فى الاستعراضات ، فى حفلات العرس ، مدلاه من القايش الذى يزداد توسيعه كلما زاد محيط الخصر وازدادت استدارة بطون الرجال الضخمة ذوى الوجوه المعقدة كما فى رؤيا يوم القيامة ، بزيهم المذهب ، تحيط بهم النقوش المذهبة التى يعلوها التراب ، وقد استقر التراب هنا بطريقة مميزة ، ليست وقحة ، ولكنها شديدة الوضوح الى حد الاهانة ، ولكن ان امكن القول أنه استقر بطريقة منقوشة ، متينة : «ذلك لانه حتى جيش من الخادمات لايمكنه ابدا تعويض الاثر الذى يتركه أصبع اتهام لامرأة يمر على سطح قطعة موبيليا اغفلتها ريشة التنظيف ويبدو جليا انه لم تقم ايه امرأة بعمل ذلك هنا منذ مدة طويلة ، واى واحد من الفتاتين التى كان سيسمح لها سنها الآن بالقيام بمثل ذلك العمل ، لابد وانها تركت المنزل الآن الى دارها حيث يقع عليها عمل الكثير من شئونه ، اما فيما يتعلق بالاصغر منها فلا بد وانها لم تصل بعد الى ذلك السن . ان افترضنا إنهن يصلن اليه طول عمرهن ، وان تكتشف فى نفسها الميل للقيام بمثل هذه المهام . والاستعدادات التى تميز كما نقول عادة بين الفتيات والشبان ...» وشرع يصفها لى : مخلوقة فيما بين الشاب والمرأة . بل وحتى الحيوان ، يعلوها شىء

من الحيوية . بل من العنف . عيناها تجمعان بين الاصفر والرمادى . وشعرها او بتعبير ادق شعرها غير المقصوص وانما المجزوز ـ كان قصيرا وكذلك وجها ليس لقطة ولكن لقط . رقيق ، حاد ومتوحش فى أن واحد . بالاضافة الى ما اعتلاها . فى ذلك المساء ، من غضب . نظرا لانها اضطرت الى محنة ارتداء ثوب بدلا من البنطلون «البلوچينز» والبلوڤر اى ما اعتادت ان ترتديه . واختها الكبرى . موجودة من اجل المناسبة ، تقوم امام والدها بدور ربة البيت . فيما يبدو وعلى مضض ايضا ، وان لم يكن لنفس الاسباب «كالبنت الولد » فكونها ارتدت ثوبا لهذه المناسبة ـ فلا شك انها لم ترتد شيئا أخر ـ لا من اجل ازدياد حجم خصرها وبطنها المثقلة التى كانت تحملها امامها بشىء من الغطرسة . الهادئة والفخر الصافى . بوجها المنتظم الملامح الهادىء المتوتر قليلا . المطبوع بضيق اخرس ، وبعدم موافقة خرساء حينما كانت تراه صدفة فى نطاق رؤيتها (لانها لم تكن تنظر اليه بمعنى الكلمة ، اذ كانت تمتلك المقدرة والموهبة الرائعة على محو ، وشطب ، والغاء اى شىء إراديا واخراجه من نطاق بصرها او من عقلها فكانت تتجاهله ، ضيف والدها فكانت تتجاهله اذن . بينما كانت تتبادل معه الحديث وكأنها تتحدث إلى الفراغ . الى هواء الغرفة . بتلك اللهجة اللطيفة . غير الخاصة والتقليدية . لتقول تلك العبارات اللطيفة غير الخاصة والتقليدية التى تتطلبها مثل هذه المواقف : «وابتدرنى مونتيس قائلا : إتعرف . . ان ابن العم المتباعد المسكين ، بل والذى نسقطه من الحسبان . والذى لم نره ابدا بسبب احدى تلك الروايات التى تذكرها افراد الاسرة احيانا بينما يحتسون الكحوليات المهضمة ويتناقلونها بصوت خافت من اجل الاطفال والغرباء . والذين يتمسكون بسلامة المظهر امامهم رغم كل شىء . ليس من اجله تماما ولكن لان هناك مفهوما ثابتا مثل الالتزامات العائلية يقوم على اظهار الامر لكل الناس إن . . » ـ «فقلت ، نعم ، ادرك» . كنت استطيع تخيله فى تلك السترة المصنوعة من القطيفة المضلعة المنحولة نسيجها كان لونها . حتى اللون . يعطى الاحساس بالعفن إنها السترة التى كان يرتديها بعدم اكتراث ـ على اية حال لم يكن يمتلك سواها . لكن هل كان فى مقدوره تكوين تشكيلة باسرها ؟ . اعتقد أن النتيجة سيان . فلكى يقوم بزيارة الموثقين والمحاميين . ويجوب الريف . او يلبى دعوة . بتلك القيافة المضحكة الشبيهة بضحكة القرد والارستقراطية فى أن واحد . وشعره الطويل وجمجمته الطويلة ، وهذه النظرة المتفحمة التى تجعله يبدو كخائن الكوميديات او مثل فاتنة النساء كما فى موضة الافلام الايطالية ايام ١٩٠٠ . إمامه ذلك العم . الاعزب ذو الوجه القرمزى مثل كبار قادة مصر الامبراطورية ، مثقلا عليه بترحابة الثقيل الصاخب ، المتعطف الابوى ، مكملا بالشقيقتين . وهذان الشخصان ـ الزوج والخطيب ـ اللذان يمثلان فى عدم تشابههما ، نفس التشابه فى الانتماء الى ذلك النوع من الرجال الذين يعد مصيرهم مجرد ان تختارهم النساء . بمحض

ارادتهن . ببرود بغية استخدامات معينة . او وظيفة محددة بوضوح : احدهما . الرجل الواثق من نفسه . المتباعد . المحايد المختار الذى ربما ميزته الابنه الكبرى بسبب نفس هذا التباعد . وعدم الكينونه هذه . ليخصبها لكى تحمل منه . وما ان يتم لها ذلك حتى يصبح عديم الفائدة . فتبعده بارسالة الى مكتبه . الى شئونه والى عدم كينونته اما الآخر الذى كان يقف بجوار تلك الفتاة المتوحشة الشكل العنيفة . بشعرها ذى الانعكاسات الحمراء المقصوص كالولد . ليكسبها شيئا من التوازن . كان شكله ينتمى الى الولد اقل منها . كان يجمع بين رجل وامراة ليس له سوى صفة ثابتة ومحتملة لمبادىء ذكرية وانثوية . ففيما يتعلق به كان يضيف ما ينقصها من انوثة ليكونا صورة الزوجان المتكاملة التى تظهر على البساط الاحمر باعلى درجات السلم عند الخروج من الكنيسة وسط رائحة الشموع وعظمة موسيقى الارغن . بينما يكونا مثار ثرثرة المديح . والاعجاب . والتخمين . والتخيلات التى تكمل الجانب الاحتفالى الفاخر لهذا الاخراج المسرحى ـ او ذلك هو ما افترضوه وما تمنوه ـ اما من ناحية الاحداث الليلية . وخاتمتها الغاضبة الشبيهة بتصرفات القردة . فكانت نهاية دامية من الاجساد العارية ومن النصاعة المنهوبة .

لكنه كان قد مضى على ذلك اكثر من شهر . وهو يتخبط وسط كل مضايقاته . التى كاد ان ينساها . لذلك لم يتعرف عليها فى البداية . وقال لى : ربما . دون ان يدرى بالضبط لماذا ؟ انه كان قد كون لنفسه عنها فكرة البلوچينز والبلوفر وحذاء الباسكيت . بعيدا عن حفلات العشاء العائلية وعن سخريتها . ثم راى شعرها الاحمر . الوحشى . الخشن المتداخل . المقصوص عشوائيا . ثم نفس النظرة غير الارادية . الصارمة التى لم تكف طوال هذه الامسية عن تفحص وجهه . ترمقه بتلك الجسارة . بوقاحة فضولية . كانت الآن ترقبه وهو يتقدم فى قاعة المقهى . فى الدور الارضى من الفندق . حيث كانت تقف . تتحدث مع صاحبة الدار . بينما المرايا المنثور عليها بقايا الذباب تعكس صورتها . جسدها النحيل المستقيم الذى تضع عليه الثياب الغالية . بطريقة تجعلها تبدو وكانها اشترتها من محل عاديات . يفوح منها عطر ـ يكاد لايشم احد اريجه ـ لزهور غالية . وجلد غال . ومساحيق تكاد لا تلمحها العين . شبه غانية شكلا كتمشيط شعرها لكنها غالية ايضا ثم راى فمها وراى شفتيها . شفتاها تشبهان زهرة . تتحركان . تقولان : «ومع ذلك . هاهو . » (صوت . نطق مفاجىء . حيوى . عصبى) وحدقتاها البنية اللون مستمرة فى تفحصه . بنفس ذلك التعبير المحتقر . الذى يشوبه شىء من المضايقة وعدم التصديق . بلا احراج . ولا حرج . كما لو كانت ترقب حيوانا نادرا او غير معروف فى حديقة الحيوان . شىء غريب . مجرد شىء . وتقاطع بصوتها عبارات المجاملة التى كان يحاول قولها . بينما كان هو يفكر

«اذن ، كان ذلك هو الموضوع . لم اخطىء : البلوچينز وكل الباقى مع الفارق انه بما انهم لايسمحون لها بارتدائها دائما بدلا من ذلك الثوب ذى الاربعين الف فرنك . فانها ترتديه كتعويض . كى تنتقم . وعندئذ ارتفع الصوت المفاجىء . الواضح الوقح ، ليقول : «اين يمكن للمرء ان يعثر عليك بالله عليك !» . وبعد فترة دون ان تكف عن تفحص وجهه . ودون حتى ان تتصنع انها تنصت الى اجابته : «هل ستتركنى واقفة هكذا فترة طويلة ؟» فاجاب : «نعم . حقا . اعتذر . انى ...» ثم ألقى بنظرة كالغرقى فيما حوله . نظرة احتوت القاعة البائسة . والموائد العارية . والمقاعد الحادة ، والمسنين الثابتين وكاسكتاتهم الثابتة . واعقاب سجائرهم الثابتة . الذين كانوا الآن ينظرون اليهما بعيونهم الميتة . واوراق اللعب البالية معلقة فى الهواء : «بكل تاكيد . هيا بنا . ان اردتى لنذهب ...» . واستدار ناحية الباب ، واندفع ليفتحه لها ثم قفز . وتوقف . تسمر من جراء ذلك الصوت السريع المباشر : «ان اخرج ؟ فى هذا الريح وهذا التراب ؟ اشكرك . اعتقدت ان لديك غرفة هنا او شيئا من هذا القبيل . اليس كذلك ؟» فاجاب : «غرفة .. تعنين غرفتى ؟» ، فقالت : «غرفتك . نعم . ماالذى عساك تتخيله . ان اتورط فى شىء ما ؟ ان خطيبى سيتشاجر معى لاننى دخلت فى .. ؟ تلتها ضحكة قصيرة وقحة (اى شخص آخر يكون قد سمعها لابد وان يتصور : انها مهينة ايضا) . ثم اضافت : «هيا بنا من اين ؟»

وحينما صارت بالغرفة راحت تنظر بذهول الى الفراش الضيق ، والجدران المخدوشة ، واستدارت قائلة : «محال ؟ هل انت مفلس الى هذا الحد ؟ ثم اضافت بسرعة شديدة : اعتذر . لم اكن اعنى ذلك . اقصد لابد وانه توجد فنادق اخرى ، اقصد : فى اماكن افضل من هنا . اعنى : فى مثل هذا الحى الشعبى تكون احيانا الفنادق اغلى من ...»

فأجابت : «اكثر .. لا : انه ليس غا .. ثم اننى احب هذا المكان خاصة بسبب المنظر ...»

فقالت : «الـ ...» واقتربت من النافذة ، وازاحت الستارة بيدها وهى مازالت ترتدى القفاز ، وتأملت الميدان لحظة والارض الخلاء العارية التى تكتسحها هبات الريح ، وخلفية الميدان ، والجدار المتآكل للثكنات القديمة . والغجريان او الثلاثة الجالسين القرفصاء فى الشمس . ومرة ثانية حينما استدارت نحوه . رمقته بتلك النظرة المرتابة التى لاتصدق شيئا . بفضول . لكنها غير واثقة هذه المرة ، فجاءت بها بسرعة . واستدارت بتوازن . وهى تبحث عما تقوله ، ثم بتلك الحيوية غير المتوقعة التى توجد عند الفتيات . او بمعنى ادق . ان أثرنا . قلة منهن (الثقل . ثبات البنية التحتية ؟) الذى يسمح لهن باخذ ملف على خمس واربعين درجة او حتى تغيير الفيتيس من السرعة الثالثة الى السير فى اتجاه

الخلف دون الحاجة الى الاستعانة بالفرامل ، ولاحتى بوضع الفيتيس فى نقطة الوقوف (ربما كان بسبب ذلك ان قيادة السيارات تمثل بالنسبة لهن مشكلة لاحل لها ، واذا ما كان مجمع الكرادلة الشهير قد انعم على النساء بأن لهن روح ، فلا شك ان الفتيات معدومات منها . اذ ربما كانت مانطلق عليه روحنا ليست فى الواقع الا ذلك الثقل ، تلك الكتلة غير المتحركة الثقيلة التى نجرها كالحمل الاجبارى خشية ان ننقلب او الذى لولاه لصرنا مثل تلك السفن خفيفة الحمل ، الثملة والتى يصعب احكام سيرها فى المساحات العاصفة) فتداركت ، او بمعنى ادق قفزت (بحيث تساءل اذا ما كانت لحظة توقفها ، او ما تخيله كذلك ، لم تكن الاخيالا ، مجرد احتمال نظرى افترضه عقله ، العقل الذى يعرف ـ يعرف معنى عشر الثانية الزمنية فى التصوير ، لحظة أن ترتطم الكرة وتنطح على الجدران ـ لكنه لا يعرف ، لايلحظ ، لا يلتقط بواسطة العين الا صورة الكرة المندفعة ناحية الجدران ، وتنطلق منه بنفس الدفعة فى الاتجاة العكسى وكأنها لا تعمل الا لكى تواصل خط سيرها اللامادى ، اللا متغير ، اللا معدل ، فى الامتداد السليم ، لكن فى الاتجاه العكسى من مسارها الاولى) ، قفزت بسرعة بحيث قام بجهد لكى يمسكها (الفتاة) ويتدارك لحظة تأخرها ، وحينما امكنه اسنادها كانت قد عادت الى مواصلة الحديث منذ مدة لأنه لم يدرك سوى نهاية جملة (وربما كانت تعيدها للمرة العاشرة ، لأن صوتها الآن كان يشوبه الضيق ، نبرة من الغضب المقلق ، وهى تقول) : وكيف وجدتها ؟ فأجاب : «آه ، بينما كنت اتجول ذات يوم احد ، كنت » فقالت : «ما الذى تقوله ؟» فقال : «كنت اجلس فى الشرفة ثم ...» هى (وان لم تكن بالفعل قد دقت الارض بقدميها ، وظلت واقفة فى ثيابها الغالية الجرسية التى ارتدتها عشوائيا ، على كعب حذائها الرفيع الغالى الثمن ، بجوار المقعد الوحيد الذى قدمه منها حينما دخلت ، فقد خيل اليه انه يسمعها ويرى : الحذاء فضربة الارض الجافة ، بهذه الحركة السخيفة ، الغاضبة ، المندفعة) : «اننى لا احدثك عن هذا الفندق ، احدثك عن اختى» ، وقبل حتى ان يحاول الاجابة : «لكن ربما لم تدرك ذلك جيدا ايضا ، ربما كنت شاردا ذلك المساء ايضا : المرأة الشابة الشقراء ، الصورة الملتقطة لعيد الام ، نعم» ، وهى تشير بيدها بسخرية امام بطنها المبطط لتقلد شكل بطن منتفخة (وكانت الحركة ايضا ، مثل الصوت : فجائية ، غير متوقعة ، يداها متشابكتان كالسلة وهى تحوى دائرة بطن خيالية وقبل ان يراهما يتحركان ، ويعودان فى اللحظة التالية الى مكانهما ـ خلف ظهرها ، ويد تضغط على رسغ الاخرى فى وقفة صبيانية) ، ولا شك انه تأخر برهة فى فهم ما تعنيه ، فراحت تعنفه مرة اخرى لانها لم تكن تتحدث عن اختها هذه المرة ، وهى تقول : «الشخص الطويل الاسمر ، خطيبى» ، وتمكن هو من قول : نعم ، لقد فهمت ...» وقالت : «هل يعجبك ؟» ، فقال : «بكل تأ ...» ، فقالت :

«طبعا . بكل تأكيد وان كنت قد رأيت شخصا اذنيه كالفيل وسيقانه راسية .
ستقول ايضا انه .. لكن سيقانه ليست راسية وهو شاب وسيم . الا تجده كذلك ؟
اعرف بكل تأكيد لا تتعب نفسك ، ثم انه ثرى . ليس فى مثل ثراءك بالطبع
لكن ...» فقال : «ثرائى ؟» فقالت : «اى انك ستصبح ثريا اعلم ذلك . يتحدثون
كثيرا عنك . انك محط الانظار حاليا . انك ...» ثم توقفت فجأة ، تنظر ثانية وكأنها
تكتشف لأول مرة الغرفة البائسة ، معطف المطر الذى قال عنه الموثق ان اى
متسول يأبى اخذه مجانا والحذاء الرث ، واصبحت نظراتها فيها ذلك التعبير غير
المصدق ، لدرجة انها اشاحت بوجهها لحظة من الوقت تكفى لتلقى نظرة عابرة
من النافذة ، كمن تتأكد انها لاتحلم ، وانها رأت تماما ، وان جدران الثكنات
المتآكلة ، والفجر ، والاتوبيسات الثلاثة المتهالكة مازالت هناك . ثم قالت :
«بالطبع لابد وان ذلك يبدو مثل روايات من عالم اخر ؟» .ثم تلك
الضحكة الصافية ، الخفيفة ضحكة اشبه ماتكون بالنبع
الصافى . لكن هو (مونتيس) بدا مضطربا ، يقضم شفتيه . مرير . ثم جاء ذلك
الصوت الصافى ، البرىء او الوقح ، الذى يبدو وكأنه يسمح لها بالجرأة على قول
اى شىء ، قالت : «بالطبع لايبدو انك فكرت فى النقود كثيرا حتى الآن . لانه لم
يكن لديك شىء . لكن انتظر سترى : ان مايمكن ان يتخيله الناس حينما يملكون
النقود شىء لايصدق . وكلما كثر ما يملكونه منها كثر تفكيرهم فيها . اتعرف : بل
ينتهى بهم الامر الى انهم لايتحدثون عن آى شىء سواها ، ان ذلك الغبى المدعو
ابى ...» ومرة ثانية انطلق النبع الصافى ، الضحكة ، ثم قامت بحركة من تلك
الحركات غير المتوقعة ، المحيرة فى تغيير اتجاهها . بزاوية حادة . بلا مقدمات ،
وبلا منطق ظاهرى ، قالت : «هل ستشترى لنفسك سيارة ؟» ثم لابد وانها اعتقدت
انه لم يسمع السؤال الاخير ، وان الزمن مرة اخرى قد مر بالنسبة له أسرع مما
مر بالنسبة لها . لأنه ابتسم ، وتراخى فى وقفته ، ودبت فيه الحيوية وهو يقول
بصوت شبه ، مرح : «سيارة . نعم . كنت أود ان .. اى انه بالنسبة للتصوير .
تدركين ، لكى اتمكن بسهولة ...» ثم بدأ يتلوى فى مكانه ، ويخفض بصره ، ثم
يرفعه ، بشكل مبتئس ، محرج ، وهو يقول : «الحكاية اننى .. لم اتمكن ابدا .
تعرفين ، ذات مرة ، حاولت صديقة لوالدتى تعليمى القيادة ، دهست كلبا .
اتدركين ؟» فقالت « انت ؟ .. ثم ماذا » فقال : «اتدركين : كان يصرخ مثل نباح
كلب فقالت : «اتصور ذلك . ثم ماذا ؟» فقال : «لاشىء ، الا ان صراخه ؟ اننى ..
يبدو لى اننى ساتخيل دائما اننى ادهس كلبا ما . لذلك يبدو لى ...» فقالت :
«هو .. (ولم تعد مندهشة الآن ، ولم يعد عدم التصديق يرتسم على محياها .
وانما الغضب الحقيقى ، ثورة باردة صاخبة ، وهى تقول) : «انتظر . لحظة !

هاهو ...» كانت تبحث بغضب فى محتويات حقيبة يدها ، واستطاعت اخيرا اخراج خطاب ، ظرف مكرمش راحت تبسطه بيدها ، ربتت عليه مرتين فارتفع منه تراب خفيف من الطباق الاشقر ، ومدته اليه قائلة : «اتفضل . هاهو . انه لك . والدى اعطانى اياه لأضعه فى صندوق البريد بينما كنت خارجة من البيت لكننى كنت سآتى الى هذا الحى على اى حال .. ان الامر لم يكن ذا أهمية . فاحضرته معى» ، حاول ان يتكلم وهو يتناول منها الخطاب ، دون ان يفتحه ، ظل ممسكابه فى يده بينما راح بدوره يتفحصها ، وقد ازداد اندهاشه ، فقالت : «لماذا لاتقرأ . اراهن انه يدعوك مرة اخرى لتناول العشاء . اراهن ...» ثم ، مرة ثانية ، بلا مقدمات ، غيرت فجأة من لهجتها ، وقامت لثالث مرة بذلك التغيير الفجائى الذى لايعرف سره سوى الفتيات ، وانطلقت ضاحكة (نفس الضحكة المقتضبة . الصافية الوحشية) . وهى تقول : «غير صحيح بالطبع اننى لا آتى الى هنا ابدا . اتيت لأننى فى مهمة رسمية . نعم : انى مكلفة باغرائك . فحينما علم أبى أنك طردت المسجل ...» مازال هو محتفظا بالخطاب فى يده ، ومازال واقفا مرتديا معطف المطر الذى لم يفكر حتى فى فك ازراره منذ دخوله الغرفة . لم تتمالك نفسها وقاطعته وهى تطلق ضحكاتها من جديد قائلة : «لا انها اكذوبة اخرى . والدى لم .. اى انه لم يجرؤ . لا . كان علىّ حقيقة ان اضع الخطاب فى صندوق البريد . لكن فكرة المجىء راقت لى . انه الفضول . اتدرك ذلك ؟ ، ثم (وفى هذه المرة ايضا بدات وكأنها ضربت الارض بقدميها ، وان كانت لم تتحرك من مكانها ـ مجرد انتفاضة غير واضحة ، مجرد انقباضة عضلية ، رجفة خاطفة فى صدرها تحت نسيج الجرسية ، لكنه لمحها) فقالت فى نفس الوقت : «افق ! هل نمت ؟ اننى اسألك . شىء لااهمية له . فزورة . أجب : ماالذى تعتقده صوابا ؟ ان والدى ارسلنى لاغريك ؟ اننى اردت توفير ثمن طابع البريد ؟ اننى كنت امر صدفه من هذا الحى ؟ اننى ...» فبدى كمن يستيقظ ، انتفض ، ابتسم . تحرك ، ليقول بسعادة : «يبدو لى .. اى : اعتقد انك اردتى المزاح فحسب ، أليس كذلك ؟» . ومع ذلك فلم يلب الدعوة الثانية التى يحتوى عليها الخطاب . ليس ريبة ، ولا سوء نية ، ولكن بين هذه الريبة وسوء النية (بعد ذلك بيوم او بيومين) وقع الحدث الثانى ، التدخل الثانى ، لكن هذه المرة كان من الداخل ، وليس بحكم الواقع ، ان البطل ، هذه المرة كان احد نزلاء الفندق ، لكن لان ذلك الشخص لم يتصرف الا كنوع من الحافز ، الكاشف : ان نفس هذا الشخص ، موريس ، الذى لعب فيما بعد دورا فى غاية الاهمية فى هذه الحكاية ، كان واحدا من اضعف الشخصيات شكلا ، على الاقل مثلما وصفه لى مونتيس ، بشعر اكرت تعلوه المساحيق مصفف بعناية ، مهندم باهتمام، بشكل مفتعل : واحدا من هؤلاء

البائعين الشبان ، بائعى العطور او بعض التقاليع ، ذلك ما تخيله عندما رآه لأول مرة ، اى عندما لمحه ، او بمعنى ادق حينما اجبره الآخر على الالتفات اليه . فقد قال لى انه كانت قد مضت على اقامته فى الفندق فترة طويلة ولم يكن قد لحظه من قبل (او لم يذكر انه رآه) حتى وان كان قد تناول وجبات طعامه على بعد عدة موائد منه (ولا شك ، انه تخيله ، على ضوء ماعرف فيما بعد ، كان يلاحظه منذ البداية ، ربما يتجسس عليه ، يرقبه ـ جالسا بين الشبان المفلسين الآخرين غير المكترثين الذين كانوا يتأرجحون على مقاعدهم فى شرفة المقهى ساعة احتساء المشروبات فاتحة الشهية ـ بينما كان يصطحب الطفلتين بعد أن انتهيتا من لعبة مراجيح الخيل الخشبية الى بائع الحلوى ومن بائع الحلوى الى المحل الصغير حيث يبتاعون قطع العرقسوس ، ولعب الاطفال وطواحين الهواء المصنوعة من مادة السليلويد المتعددة الالوان ، ولعله قد حاول فى عدة مرات ان يتحدث معه . كان مونتيس يجيب بعدم تركيز يقول نعم اولا ، بما انه حتى غير قادر على الاهتمام كلما لم يستطع اى وجه او اى شخص على لفت نظره بصفه خاصة ، لكى يتجاذب معه بأدب اطراف حديث طويل حول حالة الطقس او مصاعب الحياة ـ اى انه كان دائم الريبة ، اكثر من ريبة : دائم الاندهاش ، بل ولا حتى الاندهاش ، او الفضول ـ فلم يكن يعره اى اهتمام اكثر من القط الموجود فى المنزل او ذلك الطعام الحقير الموجود فى طبقه والذى كان يسرع فى التهامه دون حتى ان يعرف ، ولا حتى ان يسأل نفسه ان كان الاكل طيب الطعم ام لا ، وينهمك فى التفكير فى شىء آخر) . وكنت اتخيل المنظر : قاعة الطعام شبه الخالية فى المطعم ، وخادمة المقهى تروح وتجىء لتنقل ما على الموائد من ان لآخر ، مونتيس يقلب فنجان القهوة بالملعقة ، بينما الآخر يحاول التحدث اليه منذ فترة طويلة عبر المائدتين أو الثلاث التى تفصل بينهما ، ومونتيس يجيب كالمعتاد ، دون حتى أن يعرف ماالذى يقوله ، والشخص الآخر يلقى عليه بنظرات خاطفة سريعة ، وفى لحظة ما ، فيما بين سؤالين وجوابين حول حالة الطقس ، يقترب بخفة (ممسكا بطبق فنجان القهوة فى يد ، وبحركة انتقالية سريعة ، دون ان يكف عن الحديث ، دون ان ينهض ، وانما ناقلا مؤخرته من مقعد الى آخر) ، وفجأة يكتشفه مونتيس وهو جالسا بجواره ، دون حتى ان يستطيع معرفه متى ولا كيف حدث ذلك ؟ فيتفحص ذلك الرجل باندهاش وقد جلس واستراح على مقعده ، وكأنهما صديقان حميمان ، تحيط بهما هالة من رائحة الطباق الاشقر ، تلتف فى الفراغ . فرحة (وفى نفس الوقت ، يواصل مونتيس ، كان هناك شىء ما محموما ، قلقا ، فكان يسحب انفاسا طويلة من سيجارته ، وينفضها كثيرا بسبابته فوق طبق فنجان القهوة ليسقط الرماد غير الموجود) ، وانطلق فى نوع من الحوار المنفرد ، المونولوج تتعثر الكلمات احيانا لتترك مكانا لضحكات قصيرة خاطفة ، زائفة ،

كأنها محمومة ايضا ، ثم يستدرك قائلا : «منذ اللحظة التى كنا نأكل معا » .. ثم يضيف : «لكن اعتذر ، يجب على اولا ..» ثم يضيف بلهجة مسلية : «فلنقم بتقديم بعضنا بعضا ..» و عندئذ يقول ذلك الاسم الذى لم يسمعه مونتيس ولم يسمعه ابدا من قبل ، ولم يتذكره ابدا وان علق الرجل اهمية كبرى على ذلك ، متفحصا وجه مونتيس بقلق ، باثارة ، قائلا : «لعلك سمعت عن ذلك ، أليس كذلك ؟ الجنرال ؟» ثم يرتخى فى جلسته ، وكأنه مرتاح ومهان فى أن واحد ، وعاد الى تلك النبرة المراوغة : شبه الوقحة ، ليقول : «كان والدى ، نعم ، كان : انه متوفى الآن ، ستقول لى جنرال متوفى حاليا لايقلل او يزيد من شىء فى يومنا هذا .. لكنهم لايموتون فى فراشهم .. ها .. ها .. وهذه ايضا نهاية اسطورة ، اى ليسوا جميعا ، فمنهم .. لا اهمية لذلك ! فعندما يموت المرء فإن الطريقة التى يحدث بها ذلك لاتعنى شيئا .. ها .. ها .. ! اننى اسألك جديا : ان يتطاير من جراء لغم او بسبب عدة طلقات نارية .. أليس موتا ؟ اعتقد انه لاتوجد هناك ست وثلاثون طريقة ، أليس كذلك ، ست وثلاثون طريقة للموت بما فى ذلك مايطلقون عليه الموت فى المجد أو بدون مجد او حتى بعدم شرف .. ها .. ها .. دعابة طريفة . لكن ، ماذا بعد ان ينتقل الشخص الى الجانب الآخر ؟ اذ بعد الانتقال المصير واحد بالنسبة للجميع : لحم يأكله الدود ، ها .. ها ! والآن ، اعتقد انه هو ايضا : قد التهمته الديدان تماما ، باستثناء الاجزاء النبيلة التى لا تؤكل من كل جنرال وهى : عظامة ، طقم اسنانه ، سيفه ، نياشينه ونجومه المعدنية المطلية بالذهب . ها .. ها ! وهكذا انتقل ..» . كان مونتيس مازال ينظر اليه ، وقد تباعد قليلا بمقعده ، شاعرا بشىء من عدم الارتياح ، شىء يصعب تحديده وان كان يحاول دون جدوى التوصل اليه او استكشاف ما وراء ذلك الوجه الغاب المثلث الشكل ، الشاحب ، الذى لاهو ثقيل الظل ، ولا خفيف الظل ، بينما كان ينصت إلى الجمل وهى تتتابع ، أو بمعنى ادق ، أجنة الجمل ، فكثيرا ما كان يتركها بلا استكمال ، واحيانا يتوقف فى منتصفها ، واحيانا اخرى لايكاد يبدأها وكأن من ينطقها يتحسس الدروب المتتالية ثم يتركها لدرب أخر قد بدا له افضل مما سلكه لكن سرعان ما يتركه بدوره ، أو كأنه يهمل مواصلة السير ، ليصبغ على جديثه ذلك الطبع المألوف ، او على الارجح ذلك الجو الغامض ، مثلما يحدث بين شخصين يتفاهمان تلميحا مفترضا ان بينه وبين مونتيس شيئا من التواطؤ ، او التساوى ، أو الترابط ، ثم ادرك مونتيس ، وفكر فى ذهنه : «لكنه ليس سوى كلام معسول . لابد وان لديه شيئا مايود بيعه لى ..» ثم اضاف بعد قليل : «ترى ماذا ؟ ارجو الا يكون من العطور ..» وقال بصوت عال فى نفس اللحظة : «لا ادخن .. واضاف : لاشكرا .. اننى لا .. اؤكد لك .. لا ليس لى .. بينما الآخر ينادى : «روز !» وقال

ثانية : «لا . لا آخذ ابدا ..» ووقفت خادمة المقهى أمامهما ، ومهما حاول الا ينظر اليها ، كان يخمن تعبير وجهها وهى تنتظر ، بينما كان وهو يحاول ان يكرر : «لا .. اؤكد لك .. لاتطلب لى .. اننى ..» وقال الآخر : «كأسان ، ياروز ، كأسان «دوبل» . وتحركت الكتلة الداكنة لخادمة المقهى ، ابتعدت ، ولم يكن هو ينظر اليها طيلة الوقت وهى تبتعد ، بينما كان الآخر يستدير الآن نحوه ، ليقول بصوت منخفض قليلا : «انه الشىء الوحيد المعقول الذى يمكن ابتلاعه فى هذا المطعم الحقير لانه لا يمكنهم تصنيعها . ها .. ها» ، ضحك ، ثم قال ثانية : «ياله من سجن ؟» ، ومونتيس يفكر اكثر من اى وقت مضى : «ترى مالذى يود ان يبيعه لى ؟ ..» كنت اتخيلهما ، الطريقة التى حدث بها كل ذلك ، هذا الحوار ، او بتعبير ادق ، ذلك المونولوج ، مونتيس متأهب ، غير مستريح نفسيا ، يرقب الآخر بنظراته السوداء ، الثقيلة ، القلقة ، وهو مستمر فى التأرجح على مقعده بعدم اكتراث ، قائلا : «آه ، اخيرا » ثم : «كم تأخرت ! ترى ماالذى حدث ؟ هل كان صاحب الفندق يؤنبها ؟ ، وكان مونتيس الآن يتأمل يدى روز وهى تضع الكأسين امامهما ، تملأهما بالسائل الاصفر ، ثم توقف الزجاجة ، وتدفس الفلين بخبطة من يدها ، دون ان تجيب ، وقال موريس : «هل هناك شىء ما ليس على مايرام ياروز ؟ انك .. » لكن خادمة المقهى تدير ظهرها ثانية دون ان تجيب ، واعاد موريس مقعده الى وضعه ، وتابعها بعينيه الى ان اغلقت باب المطبخ ، فأمسك بكأسه ، ورفعه فى الهواء قائلا : «فى صحتك» ، ثم عاد بمقعده مرة ثانية الى الخلف واخذ رشفة وهو يقول : «ان روز فتاة صارمة حقا ، أليس كذلك ؟ اننى اراك دائما بصحبه طفلتيها ، انهما ظريفتان للغاية ..» ثم انتظر برهة ، راقب مونتيس من فوق حافة كأسه ، وفجأة شعر مونتيس ان الوقت يمر بسرعة فائقة ، وكأن شيئا ما قد فتح الهويس بعنف بحيث اصبح من المحال غلقه ، يسمع تدفق السائل ، قويا ، والزمن ينساب متدفقا ، لايمكن وقفه ، يستحيل تحويل مجراه ، وهو ينتفض بصخب تدميرى عضال ، مفكرا : «والآن سيبيع لى مالديه .. الآن ..» ثم فكر : «وحتى ان لم ابغ شرائه سوف يعطيه لى هدية ، وحتى ان رفضتها فسوف يجبرنى على .. » ووصل الآن صوت موريس الى اذنيه وكأنه يأتيه من بعيد عبر طبقات من القطن ، قائلاً : «اعتقد ان بها شيئا ما لايسير على مايرام . منذ بضعة ايام ، اكتشفت فجأة .. اعتقد انه فتاها ، اتفهم ؟ ثم غمز بعينه (وهنا ايضا لاشىء سوى بضعة كلمات يتبادلها نزيلان فى فندق واحد وهما يحتسيان القهوة ، ومع ذلك فإن مونتيس الآن ظل اخرس ، ثابتا فى مكانه ، يحاول تفادى النظر الى الشخص الآخر ، مثبتا نظراته عبثا امامه على الكأس الذى لم يقربه والموضوع على المفرش المصنوع من الورق ، بينما الآخر ، ازداد عدم اكتراثه ، وراح يسحب نفسا طويلا من سيجارته ، ثم ابتلع رشفة من كأسه .

القى بنظرة خاطفة تجاه باب المطبخ ، وهو يقول من خلف سحابة الدخان : «الغجرى الملاكم القديم !» ثم انخفض صوته اكثر ، ليقول بعدم اكتراث دون ان يكف عن التأرجح الى الامام والى الخلف : «اعتقد انه اقترف شيئا ، شيئا مريبا ، اتفهم . والآن ، انها خائفة تخشى على نفسها وعلى الطفلتين ...») .

ولابد من أن نحاول تخيله ، بمفرده ، فى هذا البلد الذى لم يكن يعرف فيه احدا ، حيث لم يحضر من قبل ، منقولا او بمعنى ادق : مقتلعا بلا مقدمات من قريته الصغيرة على بعد ثمانمائة كيلومتر من هنا ، اى من بلدة صغيرة فى مكان ما من ناحية مقاطعة أوب أو إيون ، منطقة ، على حد وصفه لى ذات يوم ، تنبت فيها الاشجار مستقيمة (ولم اكن بحاجة ليصفها لى لكى اتخيلها : احدى تلك المقاطعات السكانية ، أو التكتلات ، او حتى بضعة مجموعات متناثرة من الأسطح كما نراها من نافذة القطار السريع ، وهو يلف ببطء تجاه الريف الاخضر ، فتبدو وتختفى من بين ستائر أشجار السرو الخضراء النابتة طوال الانحناءات المتعرجة البطيئة للنهر ، يقبع وسطها ذلك القصر القديم الذى لابد وان نصادفه فوق ربوة صخرية ما وتلك الكنيسة المشيدة على طراز روما القديم ، ومصنع ذو ورش طويلة منخفضة يصنع أى شىء ، مزود بمدخنتين او ثلاث من الطوب الاحمر يعلوها تاريخ سنة ترجع الى بداية القرن ، ثم يلف ببطء حول المدينة بأسرها ، كأنها صينية ، فى منتصف الانحناءة الواسعة التى تخطها السكة الحديدية : شىء خارج الزمن ، شىء لايمكن تعديله ولا هدمه بما فى ذلك الواجهتان او الثلاث لمحلات اعيد تشييدها وفقا لنمط الموضة قبل الأخيرة ؛ ومدينة العمال المبنية من الحجر الجيرى ، الحدائق الصغيرة ومحطة القطار ذات الجرس المرتجف التى يعبرها دون ان يبطىء وسط اكوام متطايرة من الاوراق القذرة والاتربة ، التى تتصاغر ، وتتباعد وكأن اعماق الزمن الخضراء تمتصها ، فتختفى خلف تراكم ستائر السرو الهادئة ، الدائمة التواجد ، الدائمة التشابه) .

وكلما فكرت ، خيل الىّ اننى أراه ، مثلما كان عليه الآن الطاقية ، الكوفية والمعطف (مع ذلك الفارق الوحيد انها كانت نظيفة ، اما مغسولة ، او مرسلة عند محل التنظيف ، او متجددة اكثر من الآن) : وكأنه زى رسمى ، يرتديه منذ كان فى الخامسة او السادسة عشرة دون ان يخطر بباله ان يغيره لأن المرأة (والدته) التى اختارته له فى اول مرة لم يخطر ببالها ابدا انه يمكن ان يرتدى ثيابا تختلف عن زى الكشافة ، باستثناء ذلك البنطلون الطويل . وربما لا ، ربما لم تتم المسائل بهذا الشكل . ربما كان هو السبب ، وليس هى . وليس بسبب قلة الافكار ، او التخيل ، بل على العكس من ذلك وربما نظرا لفكرة محددة تماما : ارادة ، او

ذوق ، او ربما تفضيل ، او حتى مجرد عدم قدرة ودوار من ان يرى نفسه مرتديا شيئا أخر ، وذلك بشكل قاطع ليس فيما يتعلق به ولكن بالنسبة لما يحيط به ، انها لم تكن الثياب والديكور ، والاشياء فحسب ، ولكن حتى الاشخاص ، الناس ، فقد اعترف لى بذلك ذات مرة ، وهو يحكى كيف فسخ خطبته فجأة مع فتاة هناك فى اليوم الذى ادرك فيه انه لا يطيقها وأنه لن يتحملها ، اذا ما غيرت تصفيف شعرها أو غيرت الثوب الذى كانت ترتديه فى اليوم الذى التقى بها فيه لأول مرة ، وكان يقص على ذلك بنفس شكله النصف المرتبك ، نصف المخطىء ، وكأنه ، وفى نفس الوقت الذى يعتذر فيه ، يسخر من نفسه ، يتسلى ويحزن ، كما لو كان فى كل مرة يتحدث عنه يفعل ذلك بنفس الحرج المرح والمعاتب ، كمتفرج ضعيف ، حزين وساخر لمجريات حياته او بتعبير ادق لحياة تفرضها عليه ذات اخرى دون ان يكون من الممكن البت فيما ان كانت بموافقته او غصباعنه ، وأن كان يكن لتلك الذات الاخرى ، مثلما يحدث من جانب الشقيق الاصغر نحو الشقيق الاكبر او زميل الدراسة الذى يشقيه ، نوع من الاعجاب السرى الذى لا يستبعد السخرية او النقد ، بحيث يتساءل المرء ايهما ـ المعذب او الضحية ـ يدفع الآخر ، فى حالة الثورة او ان كان يفرط فى استخدام السلطة : فقد قال لى : ان اول رد فعل له ، حينما كان ينظر الى كأس الخمر الذى لم يمسه (وبجواره موريس هذا ، الذى لايكف عن الحديث ـ والذى لم يعد ينصت اليه ـ هذا الشخص ذو هيئة بائعى المستحدثات ، وان علم فيما بعد ، انه لم يكن يبيع لا رابطات عنق ولا قمصان وانما ، بكل بساطة ، بعض الاسمدة ، بعض هذه المنتجات التى تحتاجها اشجار الكروم والتى كان عليه ترويجها) فكان اول رد فعل له إذن ، انه يود الابتعاد ، ان يلم حاجياته ويترك الفندق فى نفس المساء . «فلقد تسممت حياتى بما فيه الكفاية على هذا النحو ، لعلك تدرك ، فمنذ ان وصلت الى هنا ، بل ومنذ ان استلمت خطاب الموثق (وناقشت الامر فى ذهنى بل وقبل ذلك بكثير ، منذ ان التقى رجل وامرأة لم يكونا لبعضهما وانما تفاهما بالقدر الكافى ، لكى يجتمعا ذات مساء ، وينجباه ، ثم ينصرف كل منهما فى اتجاه ، اما هو فقد شب تحت نفوذ امرأة مهانة ، تكره مجتمع الرجال جميع الرجال فى شخص واحد منهم ، ولاشك انها حاولت ان تنتزع منه ايه آثار لذكرى كرهتها لتضع مكانها كل ما كانت تحمله من عطاء كامل لايلين) ، ولم اكن اتمسك ب ...» «فقلت » ، لكنك بقيت ، كنت تعلم تماما انك قررت البقاء ، أليس كذلك فنظر الى ، بنفس التعبير المندهش المفكر ، الصادق ليقول : «نعم . اعتقد أننى كنت اعلم ذلك» وراح يحدثنى عن تلك الطفلة ، الكبرى ، عن تريزا ، بوجهها النحيل وجلده المشدود ، الشبيه باحدى هذه الممياوات المجففة لاطفال الاينكا ، وانفها الصغير ، وكأنه مجرد

عظمة ، وعينيها الواسعتين ، واسنانها الناقصة من الامام ، وشعرها الاسود ، الخشن ، اللامع ، ودون ان يتوقف راح يصف لى المرأة ، روز ، واقفة امامه فى الغرفة (جرى ذلك ذات صباح ، اليوم بعد التالى الذى حدثه فيه موريس : ثمان واربعون ساعة هى الفترة التى استغرقها قبل ان يقرر - ان يمزق نفسه بين رغبته ، او على الارجح بين ارادته ، وعزمه على السلام ومايدفعه الى البقاء) .
قال لى انه قد عاد الى الفندق مبكرا قليلا عما اعتاده ؛ لم يحدد لى ان كان فعل ذلك عمدا او بمحض الصدفة : صعد السلم ، دفع الباب بقدمه فوجدها هناك ، محنية فوق السطل ، تعتصر خرقة المسح المبللة واضاف انه كان يرى من فتحة ثوبها العرق المتصبب كاللؤلؤ فى التجويف الابيض الصدفى الشكل ، بين منبت ثدييها ، وذلك الرداء ذى الورود البنفسجية والصفراء على خلفية من اللون ليست سوداء تماما لكن من ذلك الاخضر الداكن الذى تتحول اليه تلك الاقمشة الرخيصة وهى تبلى ، وتحت كل ابط ارتسم هلالان فى لون الحبر ، وتحت النسيج الواهى الناحل ذلك الشىء الذى لايبلى ، ولايتهدم ، مثل اللا انهزامية الهادئة للحجر الذى يتلفه الزمن ويجليه مثل ذلك التعب الذى يستحيل انهزامه . وقص على انه كان يشعر بكل لحم الانثى هذا وهو يتنفس ، ويلمح نبضاتها الخفية تحت جلدها الشفاف ذو الشعيرات النحيلة الزرقاء ، كما ان ضوء الظهيرة الساطع كان يفترس المكان عبر النافذة ، والريح تعصف بالستارة المصنوعة من نسيج تقليد الدانتللا ، اما الضوء والريح فلم يكونا سوى شىء واحد ، او بمعنى ادق غياب شىء ما : الفراغ ، انه العدم ، خيل اليه انه يقف وسط نوع من الخواء المبهر ، مجردا من كل شىء عار من اللحم ، بل اكثر من ذلك : غير مجسد ، وقد تحول الى ابسط تعبير ، اى ولاحتى الى هيكله العظمى ، ولاحتى بضعة عظام : مجرد مسمار متآكل ، اقل من العشب ، لاشىء ، وفيما وراء المرأة التى كان خيالها يرتسم داكنا عكس مستطيل الضوء ، وفيما وراء الاغصان المتأرجحة لشجر السرو ، كان يتبين الارض الخلاء الغارقة تحت الشمس ، اشبه ماتكون بشاشة مضيئة ، صفراء فاتحة وغير محددة المعالم يعلوها بضعة نقاط متحركة غير محددة المعالم ايضا وفيما بعد تذكر انه فكر آليا : «حسنا : انها الظهيرة . هاهم الناس هاهم الاطفال ..» ثم تذكر الطفلتين اللتين على وشك العودة من المدرسة ، وفى نفس اللحظة ادرك انه يتحدث ، او لابد وانه كان يتحدث ، مستمعا الى صوته وهو ينفصل عن ذاته ، وكأنه يأتى اليه من الخارج ، غير محدد المعالم هو ايضا ، يلتقطه عبر المرئيات ، كاصداء تتردد برنين معدنى فى ذلك الفراغ الذى يقفان فيه ، هما الاثنان ، شراعتان فارغتان ، يملأهما الضوء والريح : ولاشىء آخر سوى اصداء صوته ولا حتى ما كانت تقوله الكلمات والجمل ، وتلك المادة اللزجة وغير المريحة التى لم يكن يتمكن من التخلص منها لأنه تبين فجأه صوت المرأة عنيفا واضحا ، مفهوما ، وهى تقول بشىء من عدم الصبر والضيق : « ما

الذى تقوله ؟ الا يمكنك ان تكف عن التلعثم ؟»

فقال : «نعم بكل تأكيد . انتظرى .. اسمعى . كنت اود فقط ..» ثم رأى تعبير وجه المرأة يتغير تدريجيا ، وعندئذ ، ورغم انه كان دائما يعجز عن تكرار الكلمات التى تنطقها شفتيه أو لا تنطقانها ، تخيل انه تمكن من قولها . «وربما لم يقل شيئا ، على حد قوله فيما بعد ، وربما لم يكن سوى ذلك التلعثم المحزن ، لكن ، ربما هن لسن بحاجة الى كلمات ليفهمن ، ربما يمكنهن الاستغناء عنها .. : وبدأ يتبين كلماته بينما ينمحى من على وجه روز تعبير الاندهاش ، والذهول المرتاب ، وبدأ يرتسم عليها تدريجيا تعبير جامد ، عدوانيا ، ثم بدا يتبين صوتها ، جافا ايضا ، هائجا : «متاعب ؟ من ذا الذى قال لك ذلك »

هو : «انا .. اى ..»

هى : «من ذا الذى قص عليك ذلك ؟»

ثم ، قبل أن يتمكن من الاجابة ، ادرك وهى تقول : «ذلك الوغد ! لقد شكك ..» ولم تكمل جملتها . لم تعد تنظر اليه الآن ، كانت تفكر ، عيناها ثابتين ، وكأنها نسيت وجوده (فى الخارج كانت الريح مازالت تعصف باغصان شجرة الصنار ، وتثير بتكاسل موجات التراب من ركن الى آخر فى الميدان ، والدخان الرمادى ، الذى تشوبه زرقة خفيفة ، يتبخر تدريجيا فوق الارضية البلاط) ، وقال مونتيس وهو يلوح بيده ، منحنحا حلقه : «اذا» ، ثم انطفأ صوته ثانية ، توقف ، وتحركت يده كمن يزيح شيئا ، أو كأنها تحاول التعبير عما عدلت عن قوله شفتاه ، ثم عدلت هى أيضا ، تجمدت بلا حراك ، وظل مونتيس واقفا غبيا ، ضخما ، يشعر بالاثم ، مبتئسا ، ثم قال صوت المرأة وبنبرة حادة ، عدائية ، وان تفادت النظر اليه وهى تقول : «الا ترى انه من الأفضل ان تهتم بشئونك ، أليس كذلك ؟» وفى هذه اللحظة ارتفع صوت الطفلة قائلا : «ماما !»

روز : «نعم !»

مونتيس : «اسمعى ، اننى ..»

روز : «اهتم بشئونك ، من فضلك !»

ومرة ثانية ارتفع صوت الطفلة وهى تنادى من السلم : «ما !» وفكر مونتيس بصوت عال قائلا بعبط «لقد وصلتا من المدرسة ، انهما ..» ثم سمع المرأة بالقرب منه ، وهى تكاد تصرخ ، وان لم ترفع نبرة صوتها ، لكن بحدة ، بيأس : «اذن لماذا لاتذهب الى البوليس ، ذلك الوغد ، ليشى به ..» ثم فى هذه المرة شىء ما نقص فى صوتها ، وبدأ شىء يتناقص منها ايضا ، يخونها ، وقال لى هو (مونتيس) انه لاحظ ذلك وان لم تتحرك من مكانها ، لم تأت بحركة : كان هناك شىء ما بداخلها يتصدع ، يرضخ ، مفاجىء حدث تراخ غير ملحوظ فى عضلاتها ، فى جسدها ، بينما ارتفع صوت الطفلة لثالث مرة : «ما .. ما ! ..» فقالت : «انى قادمة !» ، لكنها لم تتحرك من مكانها ، ظلت تركن نفسها الى

الحائط ، خافضة الرأس ، ثم سمع صوتها ثانية ، كئيبا ، اخرس وهى تقول بسرعة : ايا كان ، بما انك تعلم الموضوع .. لماذا لا اثق فيك ؟ .. لقد كنت طيبا مع الفتاتين . والآن لم اعد احتمل . ربما تصرفت بحماقة ، لكننى لااقوى . لقد قلت له ذلك . قلت له الا يشركنى فى موضوع هذه السرقة . قلت له ذلك ليس من اجلى فلا يعنينى شىء . لكن من اجل الطفلتين ..»

وفى هذه اللحظة ، لقد قال لى ذلك فيما بعد ، تصور ان اول رد فعل لها كان هو التعبير السليم ، وانه كان من الافضل له ، منذ ثمانية واربعين ساعة . ان يترك ذلك الشخص يستمر فى التأرجح على مقعده أمام كأس الكونياك وأن يصعد مباشرة الى غرفته ليجمع قمصانه الاربعة فى حقيبته ، ويلملم اوراقه ، يدفس كل شىء على عجل فى حقيبة يده ، ويهرع باسرع ما يمكن متفاديا المرور من قاعة المطعم حيث كان من المحتمل ان يلقاه . لم يقل لى فى نفس الوقت انه كان يفكر فى شجر السرو الذى ينبت مستقيما ، او فى تلك الفتاة التى طلقها حتى قبل ان يتزوجها لانه شعر مقدما انه ليس مخطىء فى التخلص منها من اجل خصلة شعر ملفوفة فى الاتجاه العكسى ، لكن ماشعرت به والذى ربما كان هو ايضا يعرفه ، انه على الرغم من عقله الذى ظل يواصل تأنيبه لأنه لم يستقر بعد فى فندق آخر فى المدينة (او ، من الافضل ، فى مدينة اخرى ، او من الاحسن : فى بيته على بعد ثمانمائه كيلومتر من هنا ، وسط الهضاب الخضراء الهادئة) ، فى المكان الذى كان يود فى الواقع ان يكون فيه ، يتمنى ذلك ، لكنه لم يستطع الا ان يكون حيث هو .

فسألته انا : «لكن ماالذى كنت تتوقعه منه ؟ ان يذهب ؟..» فرمقنى بنظرة وسكت . ثم قال : «نعم ، بكل تأكيد . لكنه لم يكن لصا بمعنى الكلمة . كان مجرد غجرى . ملاكم قديم . يبدو انه كان على مستوى عال منذ عدة سنوات ، فى مرسيليا ، اما الآن فلم يعد يساوى شيئا ، والنقود القليلة التى كان يمكنه كسبها لم تكن سوى عدة ورقات من ذات الالف فرنك ، يحصل عليها بالتحايل فى مضاربات اجتماعات الهواة حيث يأتى الفتيان من الريف او بعض الحرفيين الذين يقدمون وجوههم مجانا للكمات لأنها الطريقة الوحيدة التى يأملون بها الا يظلوا طوال حياتهم قابعين خلف المحراث أو المخرطة . ولعله هو ايضا قد بدا حياته بنفس هذه الطريقة . لكنه لم يكن لصا حقيقيا ، فهمت ؟ والدليل ، انه لم يكن يعلم الآن كيف يتخلص من هذه المجوهرات . كان قد اخفى الصندوق الصغير عندها وتركه هناك . عندها ، اى عندهم . اى فى تلك الغرفة التى كانوا يشغلونها فى الثكنات المتهالكة ، على الجانب الآخر من الميدان ، فى ذلك

الحصن نصف المتهدم حيث كانت تدخل لكى تنام كل ليلة مع الطفلتين . وربما لان كل انسان يود ان يكون له مسكنه الخاص ، حتى وان كان منفرا . وكذلك لأن صاحبة الفندق لم تكن لتقبل ان ينام الغجرى تحت نفس السقف الذى ترقد تحته . حسنا . الا انه كان قد مد يديه فى الصندوق الصغير . اى انه اخذ ما تخيل انه اسهل شىء يمكن بيعه : الذهب . حوالى عشرين جنيها من الذهب كانت مع المجوهرات . والآن وصل الى درجة من الخوف ، بحث لم يأت لينام منذ عشرة ايام ، وهى لم تره ثانية . وظلت تحتفظ بالصندوق الصغير الذى لم تتمكن حتى من تسليمه للبوليس نظرا لما نقص منه ، ولم تستطع ان تأخذ على عاتقها .

«لكن . ...» وما ان بدأت اتحدث حتى توقفت . فقد قص على كل ذلك فيما بعد ، وكان افضل ما اقوم به ، هو ان استمع اليه اولا فذلك كان كل مايطلبه منى ، وعلى ايه حال لم يكن بوسعى عندئذ وانا اتحدث ان اغير من شىء فيما حدث ، وحتى ان استطعت التحدث فى حينها لما غير ذلك من شىء : اولا اعتقد انه كان سيستمع الى بنفس ذلك الانتباه او عدم الانتباه المؤدب الذى عارض به الموثق فقد تركه يتحدث ليثبت مبرراته التى جمعها بالعقل والمنطق . اذ ان قراره هو كان قد اتخذ حتى قبل ان يدخل المكتب ، وقبل حتى ان يركب القطار الذى اقله الى هنا ، بحيث لم يكن هناك اى منطق ولا اى عقل يمكنه تغيير شىء فى الموضوع ، ثم لانه لم يكن واثقا ان العقل والمنطق كانا فى صفى وليس فى صفه هو (بما ان الامر هنا كان يتعلق بالعاطفة) على الاقل العقل والمنطق الخاص بالعاطفة وليس العقل والمنطق الخاص بالموثقين (تلك التى اتفق على تسميتها كذلك ، لان الموثقين معروفون كأشخاص يجيدون النصح ، ولديهم الخبرة ، والحكم الصائب الحريص ، على الأقل حتى اليوم الذى يحملون فيه نصائحهم العاقلة ونصائحهم المنطقية ، دون ان ينسوا ايداعات زبائنهم ، ويهربون بها) .

وفيما بعد وصف لى هذه المرحلة من حياته (بعد تلك الاحداث العنيفة - وكأنها تضافرت بنفس عنف ذلك البلد ، وهذه الريح ، وهذا الضوء المفرط العدوانى - ليرث ضيعة شاسعة ، ويتعرض لاغراء المال ، ثم لاغراء الجسد ، ثم يهاجم ، يؤنب ، يكاد يتم خنقه ، ثم ، وبينما خيل اليه انه عثر على مأوى ، على شبه هدوء ، راحوا يراقبونه ، يقيّمونه ، ودون ان تتاح له فرصة فهم كيف تم ل ذلك ، أُقحم فى قصة مريبة) . وقال لى بذلك المرح المميز له (بينما كان يرقب رصيده يتضاءل يوما بعد يوم . وتلك الضيعة التى لم يكن قد وطأها بقدميه ، وتلك الثروة التى لم تكن تمثل بالنسبة له سوى بؤرة مصروفات) تظاهر بأنه شبه اسطورة ، حقيقية وغير موجودة فى أن واحد مثل (هو الذى قال هذا التشبيه) احدى ناطحات سحاب بابل فى امريكا المشيدة كلية بالاقتراض على ارض مشتراه بالدين بضمان دين ثالث ثم الحصول عليه بمقتضى العمارة التى ليست بعد سوى رسومات على ورق وانما مجرد مشروع كأنها بابل مهددة فى كل لحظة بكارثة اذا ما تبادر الى ذهن احد العمال ان يطلب دولارا من رئيس العمال ليشترى حفنة مسامير من عند بائع مواد البناء الذى على الناصية .

وفيما حوله ، تلك الاطياف غير واضحة المعالم . غير الملحوظة تماما ، غير المتكاملة (الطفلتان ، روز ، موريس ، والعم ، وتلك الفتاة . الولد التى ذهبت اليه بكل وقاحة فى فندقه لكى تتفرج عليه وكأنه حيوان غريب بينما كانت هى بين موعدين موعد زيارة الترزى وموعد تناول الشاى فى محل الحلويات ، وقال لى ربما استبدلت زيارة لحديقة الحيوان بزيارتى بما ان المدينة لم يكن بها حديقة للحيوان) اطياف ترتسم بغير وضوح فى فترة زمنية هى نفسها غير واضحة ، غير اكيدة فلم يكن هناك اى ترابط بين قصته ومختلف الاحداث او الصور التى كان يثيرها ، مثلما تحدث فى تلك الاحلام حيث يمر المرء فجأة من مكان لآخر ، من موقف لآخر بلا تمهيد ، وعنصر الاستمرار الوحيد الحالى هو المتسلط الغامض والقهرى انه لابد وان يعمل شيئا من خلال هذه العقبات والموانع . وان لم يتبين ماذا بالضبط (الا ان كان يحاور . املا فى ان يكون مخطئا . او ان جزءا

من ذاته يستطيع خداع الجزء الآخر ، محاولا اقناعه بأنه لم يكن يعرف ماالذى قرره ومالذى حدده ، وقام بتنفيذه مقدما ، مع سبق الاصرار وكأنه مدفوع بلا هوادة . بذلك الشعور الغاضب العاجز .

وهكذا كنت اراه ، بينما يحدثنى ، كأنه منوم مغناطيسى ، مفتون ببقعة الشمس الزاحفة ببطء وبتسلط على الجدران ، وهى تتغير بالتدريج لونا وشكلا ، بينما مندوب منتجات الفوسفات ، والسماد وكبريتات النحاس يعيد ما يقوله للمرة العشرين ويعبر له عن التعاطف الذى يكنه له . لم يقل لى كيف وصل . قال فقط انه وصل لعل الآخر كان قد قابله - وربما بمحض الصدفة - فى الطرقة أو على سلم الفندق ، تهلل ، احاطه بذلك الترحاب الغريب المبالغ فيه ، الذى يجمع بين الوقاحة والتواضع ، ممسكا اياه من ذراعه ، ثم يدفعه فى غرفة اشبه ماتكون بالغرفة التى كان هو يحتلها ، بنفس الحقارة ، بنفس الضيق ، لكنها فى حالة فوضى لا يمكن تصورها ، ثم يعتذر ، يفتح النافذة بسرعة ليطرد رائحة الطباق ، يتعجل ، يقدم مقعدا (لكن مونتيس لايجلس) ، يقدم له علبة سجائر (لكن مونتيس لا يأخذ) ، يعتذر ثانية ، يعبث بظهر يده (وهو لايزال يلاحظ مونتيس ، ويرقبه) وسط مجموعة من ربطات العنق المعلقة على حاجز السرير النحاسى ثم يقذف بها بعدم اكتراث ومعها زوجا من الجوارب لتنضم الى كومة من الملابس القذرة بداخل الدولاب ، رأى مونتيس منعكسا على المراية المعلقة داخل ضلفة الدولاب التى دفعها بقدمه ، برهة ، وكل ذلك الديكور الحقير الذى يقف وسطه بتحركات متألقة ، براقة ، ثم توقف عند حافة المائدة ، تعلوها طفاية سجائر من اعلانات المقاهى ، مملوءة بالاعقاب ، واثنين « كارت بوستال » يمثلان اشجار الارز عند ساحل البحر مثبتان على الحائط ، وكل شىء يبدو وكأنه يرتجف لعشر من الثانية ثم يثبت بينما صوت موريس يقول : « .. لأننى لاحظت فورا انك لست مثل الآخرين هنا ولا اتحدث عمن فى هذا السجن الحقير وانما اعنى أولئك الذين فى ذلك البلد الحقير حيث معظم ساكنيه من المشرق ، عرب أو أسبان ، ولابد أن أوضح لك أننا لسنا من هنا اننا من أسرة عريقة فى بريتانى ، وقت نزح أبى إلى هنا ، سأشرح لك ذلك لكنه يقول أنهم يزعمون أنهم من أصل لاتينى ، وهم فخورين بذلك ولا يتشدقون الا بتعبير الحضارة اللاتينية وميراث الحضارة اللاتينية ، علما بأن كل مايحيط ببحرهم المتوسط هذا الشبيه بالبركة الآسنة ليس الا من سلالة التجار اليونانيين سواء كانوا من مالطة أو كورسيكا أو نابولى فقد كان لابد وأن يكون المرء تاجرا يونانيا ليتمكن من اختراع جدول فيثاغورس وتلك الديانة القائمة على الآلهة والآلهات والقديسين المبنية على مبادىء المقايضة التى لا تفنى والتعامل عينا أى بالسرقة ، والأمهر يكسب ، هل تعرف الصلاة الشهيرة لتلك الفتاة الايطالية الورعة التى تقول ايتها العذراء التى حملت دون أن

تخطىء ويمكنك عمل كل شىء لقد أخطأت فلا تجعلينى أحمل .. »

مونتيس : « اسمع .. أننى .. يجب »

موريس : « يجب ماذا ؟ » ثم توقف وراح يتأمله بلا مواربة (ليس خفية . متخفيا خلف ضوضاء صوته المناسب بكل هذه الصور الهزلية ، بسرعة فائقة ، شبه محمومة ، تخدعه تلك اللازمة الخالدة ، تلك الانقباضة العصبية الساخرة التى تشد جانب فمه) ، وكرر قائلا : « أرجو الا تكون على عجلة بهذا الشكل . اننى .. »

مونتيس : « لا ، يجب أن ... أى : هناك أعمال .. » كان الوقت قرب نهاية بعد الظهر . لأنه قال لى أن الريح هدأت والشمس الغاربة . صفراء داكنة . تنساب افقيا فى الغرفة ، عاكسة على الجدران تلك البقعة المتعرقة التى تميل تدريجيا من الأصفر الليمونى الى الأصفر الكرومى ، ومن الأصفر الكرومى الى الارجوانى . وبينما كانت تتحرك ببطء ، كانت أصوات المساء تأتى من الخارج (ارتطام اباريق النسوة عند حنفية الماء ، النداءات ، همس ملول ، متعدد ، متهالك) . كأنها تنهيدة اليوم الذابل ، المنتهى . تلتها رجفة ، صرخة حريرية طويلة ممزقة تشق الفضاء ، تتكرر ، ومونتيس يفكر : « الآن ؟ طائر السنونو . هل لحقت .. » والان كانت حافة الشمس كالبرونز المنصهر تغرب اسرع واسرع . لدرجة انه كان يستطيع متابعة خط ضياعها البطىء . وضياع الوقت البطىء المفزع والذى لايعوض . فهناك ذلك الشىء الذى عليه ان يعمله ، او كان يود عمله ، او لابد من عمله ، وراح الآن يكرر : « لا ، اؤكد لك اننى يجب ان ارحل . اعذرنى . يجب ان .. »

ثم حدثت ـ علامة اخرى فى ذلك الزمن غير الواضح ، ديكور أخر ـ (قال لى انه قد رأى الاعلان فى مقهى بوسط البلد ، ملصقا على مرآة خلف البار او على ضلفه زجاج فى شرفة المقهى ، بين اعلان مباراة الراجبى القادم واعلان حفل سيقام فى الحى ، وقال « وربما كان ملصقا فى كل مكان وقرأته ثلاث أو أربع مرات قبل ان أعرف اسمه ، وثلاث أو أربع مرات قبل أن أرى السطرين المكتوبين بخط صغير أسفل الاعلان لدعوة الناس لمشاهدته أثناء التدريب ، وربما يقومون بذلك مثلما يحدث فى استعراضات السيرك : لجذب الجمهور الى « الماتش » ، لأن الدخول لم يكن بتذاكر ، وعندئذ فحسب ادركت أى نوع من الملاكمين كان ... » ، ولم اجرؤ على الدخول ، وانا انظر الى رءوس مجموعة متلاصقة عند الغسق على باب مكان اشبه بالمستودع يظهر فيه خيالان تحت الضوء الحاد لثلاث لمبات كهربائية متدلية فى طرف اسلاكها .

لم يكن يتوقع ذلك ، وبالطبع لم يستطع قول ماكان يتخيل ان يجده امامه .

« لكن ذلك كان ببساطة : بدرون دار سينما . لم يكن جمنيزيوم » ولاحتى مكان معد خصيصا لذلك ، الا لو اعتبرنا تلك الحبال الأربعة اعداد خاص . الحبال التى تحدد معالم الحلبة وكيس السماد او السلفات المصنوع من التيل السميك والملىء بالرمل المعبأ من الترعة والذى كان الشخص الثقيل الآخر ينقض عليه بضرباته متخيلا ان ذلك الرمل هو الذى منعه من التقدم فى الحياة واجبره على قيادة سيارة نقل بدلا من السيارة الامريكية التى يتخيل انها من حقه .. » ووصف لى المنظر : ذلك المكان الذى كان يستخدم ايضا كجراچ للدرجات . والملىء بالصناديق . وعلب الكرتون الفارغة . ويمتلىء نصف المكان بشتى انواع الانقاض . وعلى احد الجدران يوجد حاملان او ثلاثة من تلك الحوامل التى تعلق عليها اعلانات الافلام فوق باب دخول السينما . ونفس الجدران . مثل العمدان الاربعة التى علقت عليها الحبال . مصنوعة من الاسمنت الرمادى . الخشن . مازالت تحمل آثار الالواح الخشبية التى احاطت بها اثناء عملية الصب . كما كانت الظلال السوداء لمجموعة المتفرجين ترتسم على الجدران . وقال لى : « ان احدا لم يكن يقول شيئا . لاعبى الملاكمة ولا الناس . ان الناس الذين حضروا هنا بعد خروجهم من العمل أتوا لأنهم قرأوا الاعلان فى الجريدة . أو لأنهم كانوا يمرون صدفة من هذا الطريق . وهم يحملون على كاهلهم رائحة العرق والتعب وملابس العمل ، الزرقاء ، وواحد يرتدى كاسكيته سائقى الترام . والشىء . الوحيد المسموع كان تنفس الرجلين ، ذلك البدين الذى يواصل ضرب كيس الرمل ، والغجرى الذى يرقص وسط الحبال الاربعة » لأنه تعرف عليه فورا : ليس من وجهه ، الذى كان يخفضه على صدره ، لاصقا ذقنه قرب الترقوة . كانت الاضاءة الشحيحة القاسية للثلاث لمبات تتركه فى الظل . لكن شعره ، الغزير المجعد ، شبه الخشن ، والذى يحيد عن اذنيه ، يتحرك فى اتجاه عكسى على وقع كل ضربة خاطفة يضربها فى الفراغ . مصحوبة فى كل مرة بصوت تنفسه ، بصوت العواء الذى يمر متقطعا . ولا أى شىء آخر . وبعد برهة ، نطق احدهم بكلمة ، كان ذلك الشخص الذى يقف فى الركن ممسكا بساعة فى قبضة يده ، وفى نفس الوقت توقف كل من الرجل البدين والغجرى ، تماما مثل أولئك الملاكمين المصنوعين من الكرتون والذين يبيعهم الباعة الجائلون فى الشوارع ، فانتقلا فجأة من الحركة الى الثبات . ظلا هناك . بعين غائبة . النظرة غير معبرة . مستندان على الحبال ، ينتظران ، بينما العرق ينساب ببطء على اعضائهم . وقال لى انه كان يشعر بذلك العرق ، عرق الرجلان والعرق المحبوس داخل ثياب المتفرجين ، ذلك العرق الحزين . الكئيب . البارد ، الذى كان مثل رائحة المكان نفسه ، من الاسمنت الخشن . والاعلانات العنيفة الممزقة . وهناك . عند طرف ذلك الشارع الضيق (كان هذا المكان فى منتصف طول الشارع تماما) كان

يمكن رؤية الاضواء البراقة . المحلات . السيارات . الناس . اما هنا فكان الصمت والعرق : حوالى عشرون متفرجا فحسب فى ثيابهم الغارقة فى العرق ، ينظرون دون ان يقولوا شيئا والعرق ينساب بطول اعضاء الغجرى النحيلة الداكنة (لم يكن يرتدى سوى بنطلون قصير بنفسجى اللون وفانلة رمادية زرقاء ومثقوبة) ، بدأ الجو وكأن المرء يمكنه رؤية الزمن وهو يتفجر . ينساب مع العرق ، طنين الزمن المتداخل مع طنين الدماء وهى تتدفق تحت جلد الغجرى الداكن وتحت جلد الشخص الآخر الابيض . تنقض وهى تئن فى الانحناءات المتداخلة المعقدة للشرايين الشبيهة بنبات ممتد . شجرة رقيقة زرقاء مرسومة بالحبر على ورق نشاف .

وفيما بعد كان ذلك هو الذى يراه ايضا . وفقا لما قاله لى (ذلك النبات الرقيق وهو يتألق . هذا الغليان . هذا العرى المهان . الحزين . المجبر . البياض الناصع . اختصارا . لأسنان كأسنان الذئب . وفى النهاية ذلك الثوب الرث الفاخر . الروب القديم الملكى الارجوانى اللون . الملبوس دائما امام الأعين النهمة لجمهور قليل وذلك الوجه الداكن الذى يمكن اختراق تعبيره . الغائب . ثم بعد لحظة ، لاح الغجرى من جديد ، خرج من خلف احد حوامل الاعلانات المتهالكة ، مرتديا حلته المكرمشة وان كانت مكوية حديثا ، وقميص ناصع البياض ، وحذاء فاخر هو ايضا ، وبينما كان ينصرف ، دون ان يلقى بنظرة واحدة على الموجودين ، كأنه يغادر وحده مكانا خاليا ، بينما يطفئون الانوار خلفه) ، وبينما كان هو يرقبهم عن بعد ، الغجرى ، والرجل البدين وشخص ثالث ، مجتهدا فى التخفى (وذلك ايضا لم يقله لى ابدا) فى الشوارع شبه الخالية حاليا ، ظل فترة طويلة بلا حراك ، يرقب الاطياف الثلاثة الواقفة فى الميدان ، امام المحكمة ، بينما السماء فوقهم تميل تدريجيا من الاخضر الى الاحمر ، ثم الى البنفسجى ، ثم الى زرقة الغسق العميقة التى ارتسم عليها الآن بالاسود التمثال البرونزى المقام فى الميدان والنخيل الثقيل الثابت (كانت الريح قد توقفت تماما) . وفى الاضاءة الصفراء الليمونى المنبعثة من المصباحين المتماثلين لاحت واجهة المحكمة بأعمدتها النحيلة ذات التراث الكورنثى المقلد وتمثاليها الرمزيان او الاسطوريان ، بعيون كالابقار ، بلا حدقات ، كتجريديات ، كيانات عمياء ، غبية صافية فى الضمير الصافى لعدم وجودهم ، لعبثهم الرخامى ، الضخم اليونانى .

قص لى انه ظل هناك ، مختبئا خلف كشك الجرائد ، يتأملهم يتحدثون طويلا الى ان افترقوا – وفى هذه اللحظة بدأت أولى النجوم . الخضراء ، الماسية ، الحادة ، تتلألأ – ، واتجه الرجل البدين من ناحية . والغجرى والشخص الثالث (كان غجريا ايضا ، لم يستطع مونتيس ان يقول ما الدليل على ذلك . لكنه كان

واثقا : فعلى بعد ثلاثين مترا ، وحتى اثناء الليل ، كان يمكنه تمييز واحدا منهم بنفس الثقة وكانه يراد فى وضح النهار ، وجها لوجه) اتجها من الناحية الثانية . ثم التقى ثلاثتهم (هو ، على بعد اربعين مترا خلفهما) خارج المدينة ، او بتعبير أدق فى تلك الاطراف النائية حيث كل مدينة تبدو وكأنها تتجزأ تدريجيا ، تتفجر ، تتناثر كتراب من الاجزاء : اجزاء الشوارع المقام على جانبيها منازل ذات طابق واحد ، ثم بلا طوابق ، ثم نفس المنازل تتحلل ، تنفصل ، تتباعد ، لتظهر فجأة بين اثنان منهما ارض خلاء عارية ، أو حقل ، او حتى كرمة ، وفجأة ايضا ، على حافة ذلك الذى لم يكن بضاحية ولم تظهر معالم الطريق بعد وان كانت قد ظهرت محطة بنزين تتألق بالبوية الحمراء تحت الجليد الذى تظهره كشافات السيارات ، ثم بقعة سوداء ، ثم مفترق طرق ، مجموعات بيوت ، اضواء ، ثم العتمة من جديد ، ويبدأ النخيل ويحل محل الرصيف تدريجيا ، مثل الاكواخ حاليا وهى تحل محل البيوت والجمالون والطوب الأحمر ، ثم وصلا ، أى أنه رأى الطيفين وهما يختفيان جانبا فى شارع غير واضح مكون من اكواخ متداعية منخفضة حيث ترتجف اضاءة المصابيح الغامضة .

بقى عليه الآن ان يقطع مسافة ثلاثة كيلومترات ليعود ادراجه . وقد خيم الليل تماما . سيارات نادرة تعبر الطريق ، باقصى سرعة ، تظهر باضواء كشافاتها شكله النحيل الاسود المتجه الى المدينة . ثم ظهرت الترعة من جديد (لم يعد هناك شيئا فى هذه الساعة سوى بضعة بقع من الانوار الساهرة ، المركزة ، الخضراء ، غير الشفافة ، الثابتة فى وادى الحصى الواسع المظلم) ، ثم بدأت البيوت تتجمع تدريجيا ، ولاحت اول دار سينما (لم تكن قد بدأت تعمل حينما مر امامها منذ قليل) ، دار حقيرة ، بطول ذلك الحى ، امامها مصباح واحد يضىء واجهتها الضيقة الملطخة بالاحمر ، والاعلان العنيف ، الاشخاص فى وقفات عنيفة ، منفعلة ، بالوانها العنيفة اللاذعة ، وعلى مقربة منه ، دار سينما اخرى ، بها بهو يتألق بالانوار ، وابواب بزجاج لامع ، ثم وصل مرة ثانية الى وسط المدينة بشوارعها اللامعة ، وواجهات محلاتها اللامعة المضاءة ، والشوارع مليئة بتلك الحيوية القصيرة التى تلى فترة العشاء حيث تنساب سيارات التجار والمصدرين وابناء العائلات بلا ضوضاء ، ومعهم ، فى الداخل ، اشخاص برءوس تشبه الفلاحين اللئام ، او قادة الرومان الشبان ، ونساء تشبة العصافير ، يرتدين ثياب العصافير غير واقعيات ، عابرات ، يخالهم المرء مرسومات خلف الزجاج بوجوههن الرائعة ، الرشيقة والباردة الشبيهة بوجوه العصافير ، او بتعبير ادق مرسومات بالباستيل ، وهميات ، وكأنهن غير قادرات ان يتركن فى الايدى التى تحاول الامساك بهن سوى بودرة شديدة الدقة ومخيبة للآمال ذات الوان حلوة

متداخلة . خيل اليّ اننى اراه يمر ، مخترقا مناطق الظل والنور المتألق دون ان يلمح شيئا ، هزيل ، منحنى الظهر اكثر من المعتاد ، وجهه المجعد متجه ناحية الرصيف . يصعب تحديد الرؤية التى كان يتأملها ، ربما كان نفس منظر ذلك البدروم المترب ، والعرق ، اللحم الناشف ، البائس ، العنيف ، المأساوى .

قالت : « ياله من غشاش لعين ما الذى تعتقده ؟ هل تتصور انه يمكنه الآن القيام بمعركة حقيقية ؟ هل تتخيل انه يقبل مجرد الصعود الى الحلبة دون ان يعرف مسبقا من الرابح ؟ انه لم يقم طوال حياته كملاكم حتى حينما كان يساوى شيئا باكثر من عشر مباريات ثم الترتيب لها مسبقا فى غرف الملابس .. »

سكتت . حاولت رؤية وجهه فى الظل . قال لى انه كان الآن جالسا بجوار خادمة المقهى على احدى ارائك الميدان . يحيط بهما ليل الربيع الهادىء . وعلى الناحية الاخرى من شرفة الفندق المنارة . على الرصيف وأرضيه الشارع انعكاس من النور بشكل منحرف الاضلاع . بينما تناثرت هنا وهناك بضعة نوافذ تحدد بصماتها الارجوانية فى الظلام ، واحيانا . تقف امرأة صارخة . على عتبة باب ، او غير واضحة ، تنادى طفلا ، ومن وقت لآخر ، نسمة خفيفة . رجفة عابرة تحرك الظلال المتقطعة لوريقات شجر الصنار التى يعكسها ضوء المصباح .

قالت بغضب : « غشاش ! غشاش قذر لم يستطع القيام بعمل اى شىء كما يجب فى حياته : ولا حتى السرقة ... » كانت ترتدى نفس ذلك الثوب ذو الورود الذى كانت ترتديه صباحا . لكنها وضعت جاكتة من الصوف التريكو على كتفيها . وفجأة سمع صوتها وقد تغيرت نبراته ، صدن ، شبه كريه ، وهى تقول بسخرية : « لابد ان كل ذلك يبدو لك مضحكا ، أليس كذلك ؟ »

هو : « مضحك ؟ اننى .. » حاول تخمين تعبير وجهها ، لكنه لم يتمكن . بينما انبثقت من الظلام نفس الضحكة الخاطفة ، الساخرة ، بلا اية سعادة : « لقد وصلت الى هنا ، كنت اشبه بالمتسكع ، تدفع ثمن الحلوى للطفلتين ، وان كان شكلك يدل على انك تستحق الحسنة فى الشارع ، والآن أصنع نفسى .. » ومرة اخرى اطلقت نفس الضحكة . ياإلهى ! اننى اتساءل .. اسمع ، اعطينى سيجارة .

– سيجارة ..

– حقا . نسيت . وكأنه باستطاعتك ان تحمل سجائر ! قل لى : هل دخنت فى حياتك ولو مرة ؟ حتى عندما كنت شابا ؟ لمجرد انها من الممنوعات . ليس لمجرد انه شىء كريه ، لكن لأنه ممنوع ؟ » لم يجب . راح يرقبها وهى تنهض ، تعبر الميدان (قال لى ايضا انها عندما كانت تتحرك كانت اشبه بالمهرة – ليست من مهرات الميزان ، العصبية المتراقصة على حوافرها وهى ترفع برأسها عاليا ، وعينيها نصف جامحة وقد تعلق احد الصبية الأقزام باللجام : لا .. مهرة ولود ،

واحدة من تلك التى نراها فى المربط . عريضة الجنبات . باهداب طويله . ونظرة هادئة سوداء ابتلعت رؤيا القفزات العابرة الماضية . والهدير العابر للهتافات والانتصارات العابرة ـ ، كانت هى تخطو بنفس الخطى الايقاعية الثقيلة . القوية . الهادئة المصحوبة بذلك الثقل المتناوب للحمها . ذلك الايقلاع البطىء المنهك . الذى لايكل) . دخلت الفندق . خرجت بعد لحظة . وبينما كانت تمر بجوار اللمبة خلفت هالة من الدخان الأزرق . ثم . بينما كانت تتجه نحوه . غاصت فى الظلال . وارتسمت نقطة حمراء دامغة عند مستوى فمها . ثم قالت وهى تجلس : « اعتذر لاأعرف لماذا اقول لك هذه الاشياء الكريهة بهذا الشكل » .

هو : « ماعليك. اننى اتفهمك . عندما يكون ... »

هى : « لكنت عاهرة » . من يسمعها وهى تواصل الحديث يجزم بانها لم تسمعه . لم تكن تسمع . وانما كانت تواصل لنفسها ذلك المونولوج الذى بداته منذ فترة طويلة . ومرة اخرى اطلقت نفس الضحكة المريرة : « ولكن حتى ذلك لم استطع عمله . وما اسهله بالنسبة لوضعى . تصورت . لكن لا . انه غير قادر حتى على ان يكون لصا . ولا انا قادرة على ان اكون عاهرة . لا . ليس الأمر كما تتصور : انه لم يطلب منى ذلك . ليس هو ، وانما انا . وان كنت استطيع ذلك لفعلته : لأخذت طفلتاى وذهبت من هنا . لأعمل عاهرة . لكننى لااستطيع . ان ذلك اقوى منى . لااستطيع ان اكون الا لرجل واحد . اننى اثير اشمئزازك . أليس كذلك ؟ »

هو : «لا» بصوت صارم . بلا مواربة . ومرة ثانية حاولت ان تتبين ملامح وجهه . كان جالسا فى الظل دون حراك . مستقيم الظهر . شبه متصلب . وكل ما استطاعت ان تتبينه . لم يكن الا شكل جانبى لوجهه منعكسا بظله الاسود على الجدران . ثابت . ميت . وفيما بعد . حينما قص علىّ الواقعة . خيل الىّ اننى اراهما بالضبط : الاثنان جالسان على تلك الاريكة فى الظلام . تعلوهما نقط الضوء المتناثرة المتساقطة عليهما عبر اوراق الشجر الشابة اليانعة الخضرة . جالسان متوازيان . وبينهما فراغ يكفى على الاقل لجلوس شخص اخر . ولم يتحدثا كانهما يتجاذبان اطراف الحديث . وانما كان كلا منهما مواجها للفراغ . للظل الممتد امامهما . وعادت تكرر (وان كانت استدارت نحوه هذه المرة . وان لم تتمكن من تمييز اى شىء منه . وانما كانها تشككت من انها سمعت اجابته الاولى) : « الا تقرف منى حينما اقول لك اننى ان استطعت لعملت عاهرة ؟ »

وقال ثانية : «لا» . ورغم انه شعر بانها تنظر اليه هذه المرة . لم يحرك راسه . وظل صوته بنفس الصرامة . بنفس الحدة القاطعة (بلا فظاظة . ولاعنف . بهدوء) مثل المرة السابقة . ولم يضف شيئا بعد ذلك . اما لانه وجد عملية التفسير معقدة . او لاجدوى منها . او لمجرد انه لم يشعر بالرغبة فى ذلك . ولم

يكترث . او ربما خشى ان يقوم به من كثرة حرصه . وظل هكذا . بينما ريح خفيفة تهز الاوراق من وقت لآخر . تحرك بقع الضوء المنسابة على كتفيه . الى ان سمع صوت خادمة المقهى ثانية (ودون ان يشعر بالحاجة الى الالتفات اليها علم انها لم تكف عن تأمله ، وتتحدث تقريبا فى نفس الوقت الذى كان يحدثها فيه) . كانت حاليا تقول : « لكننى مغفلة اجدا لأقوم بذلك ! »

هو : « لكنه يحبهما ؟ »

هى : « من ؟ »

هو : " الطفلتان »

هى : « اسمع .. »

هو : « وهما يحبانه ايضا . أليس كذلك ؟»

هى : « تعلم ، رزقت بتريزا قبل ان ... »

وبدأ هو يتحدث بسرعة فائقة ، وهى ايضا . وتحدث الاثنان واجاب كل منهما الآخر بنفس السرعة . او فى توازى ، وكأن كل واحد منهما لايوجه حديثه الا للميدان الخالى وان العملية عملية سرعة فى الالقاء فحسب . كسباق يحاول كل منهما التفوق فيه على الآخر :

« لم اكن ارغب »

ـ لقد اعترف بها . لذلك هى تحمل اسمه لكننى رزقت بها قبل .

ـ وما فى ذلك

ـ اخبرك فحسب

ـ كل الغجر يحبون الاطفال لكن ذلك يتوقف على مانسميه الحب

ـ لايحبهما

ـ ليلعب معهن ليمزح وليصنع منهن عاهرات فيما بعد عاهرات حقيقيات

ـ لكن انت

ـ ماذا ؟

ـ كيف ماذا ؟

ـ قلت لكن انت

ـ أه لم اعد اعرف ماهذه الساعة التى تدق ؟

ـ اتود ان تقول انا وهو

ـ تدق كل نصف ساعة وليس كل ثلاثة أرباع لا ، كنت أقول لم اعد اعرف

ـ ما الذى كنت تود قوله ؟

ـ لابد وان الوقت تأخر . اتعرفين كم الساعة ؟

ـ لماذا تتصنع العبط ؟

ـ « لا استعبط لكننى اقول فقط »

وعندئذ قالت : « ياالهى ، ياالهى ، ياالهى ! .. » والقت سيجارتها بحركة غيظ
اما هو ، فقد قال لى فيما بعد ، ظل هناك دون حراك ، ينظر الى الظل عند اقدامها يتأمل النقطة الحمراء التى ظلت برهة متقدة ثم انطفأت ، حرص على الا يتحرك ، يعلم انها كانت تلاحظه ، ونظرا لانها لم تتمكن من تمييز ملامح وجهه كانت تترقب ، تتربص اقل رجفة من جسمه ، وقالت اخيرا (بنفس نبرة صوتها لكن بصورة قريبة منه وادرك انها الآن كانت تتحدث وهى متجهة نحوه ، توجه له الكلام بشكل مباشر ، محدد) : « ماالذى تعتقده فى اذن ؟ »
هو : « لا اعتقد شيء ، وليس لى ان اعتقد » (ربما تصور ـ وذلك لم يقله لى ، كنت اتخيله ، احاول أنا ان افهم ـ : "لااطلب منها شيء لايحق لى ان اطلب شيئا ، ولا اى حق ، ومن يحق له ذلك ، حتى وان كان يحق لى اذن .") ، لكنه قال : "اسمعى ، لابد ان الوقت تأخر ، اننا .. »
هى : « لا »
هو : « نعم ، اننى متعب قليلا ، اننى .. »
هى : بصوت حاد الآن ، كانه متشنج ، متحفز ، شرير : « وحسنا : مجرد كلبة ، هو كذلك مجرد .. »
هو : « لاداعى .. »
هى : « ايها الاحمق ! »
هو : « لاداعى .. »
هى : « ايها الاحمق ! »
هو : « يحسن بنا ان نعود ، اننا .. »
هى : « لا اعبأ بطيبتك ، اتسمعنى ، لم اطلب منك شيئا ، لم يطلب منك احد اى شيء ، ان لم تكن تود ... » ثم تغير الصوت فجأة ، وكانه غاب عن الوجود ، اصبح محايدا : « من الافضل ان تذهب لتنام ، خذ ، هذا افضل » .
لكنه لم يتحرك .
« ماالذى تنتظره ؟ »
ـ هل تريديننى ان انصرف ؟
ـ اعتقدت انك متعب .
ـ اتريديننى ان أتركك وشأنك ؟
ـ كما تريد ، نعم ، لا ، إبق ، اسمع : ياالهى ! الا يمكنك ان تظل خمس دقائق دون ان تقول شيئا ؟ او دون ان تتحرك ؟ »
وبعد برهة اشعلت سيجارة اخرى ، لكنها فى اللحظة التى اقترب فيها عود الثقاب من وجهها ، اشاحت به ، لا لتحمى اللهب من الريح ، من ذلك الهواء الخفيف الذى كان لايكاد يرجف الوريقات ، لكنها اشاحت بوجهها بطريقة وبشكل

ملفت بحيث اضطر هو الى الالتفات بعينيه . وما ان جذبت عدة انفاس حتى ألقت بالسيجارة . وعاد صوتها ، بهدوء ، كئيب ، لتقول : « من الافضل ان تصرف النظر »

هـو : « لا »

هى : « انها موضوعات لاتخصك . لقد اخطأت ان .. »

هـو : « لا »

هى : « ما الذى تنوى عمله ؟ هل تتصور انك ستغير من شىء ؟

هـو : « لقد قلت لى انهم اذا عثروا على ذلك عندك سيتم القبض عليك وان الطفلتين ستدخلان مؤسسة الشئون الاجتماعية ، وانت تعلمين معنى ذلك ، وما سيحدث ، تعلمينه ، قلتيه أنت بنفسك . اذن ؟ »

والآن راحت تهمس بصوت لايكاد يسمع : « لا اعبأ بأى شىء . كل ما اريده هو ان اموت .

ـ لا تقولـى حماقات

ـ انك لاتعلم عما تتحدث انك لست بمسكين ، لا اتحدث عن ذلك الميراث لكن قبله لم تكن فقير ابدا ، ان تكون فقيرا هو ان تكون فى حالة الشعور بالحاجة دائما فإذا ماكسب فقير اليانصيب سيجرى ليشترى كل ما كان يشعر انه بحاجة اليه لكن انت اراهن اذا ما وضعوا امامك عشرة ملايين على المائدة فانك لن تذهب لتشترى لنفسك معطف أخر .

ـ الامر لايتعلق بى ولكن بك

ـ قلت لك اننى لاأعبأ بأى شىء اتتخيل اننى لا اعرف أين هو الآن ليس فى الضواحى حيثما تابعته منذ قليل انه لايذهب هناك الا لرؤية والدته ولاينام هناك لكننى اعرف اين ومع من ينام انه ليس الخوف فحسب الذى يأتى به الى هنا لن احرك ساكنا »

ومرة ثانية سكتت . ظلت بلا حراك . بقع الاضاءة الخضراء المتقاطعة تتراقص عليها . تتحرك على ظهرها . على اكتافها الثابتة كأنها مجرد شىء لااكثر ولااقل . شىء لاحياة فيه لا اكثر ولا أقل . وانبثق كلب اسود بلا ضوضاء من عتمة الليل . بسكون . باذنين متراخيتين ومتدليتين . حام عن بعد حول الاريكة ، ثم اقترب . راح يتشممها دون ان تتحرك . مد عنقه بذلك الفضول . بتلك الحيطة المرتابة . الشاردة والوقحة التى يبدو انه تعلمها عن تجربة متوارثة من آلاف الركلات التى تلقاها . ثم انصرف . يعدو على اقدامه اللينة ، ابتلعه الظلام الذى بدا وكانه انبثق منه . وعندئذ سمع مونتيس صوت المرأة . رنانا . ضاحكا . لتقول فجأة : « حمدا انه لم يتبول علينا أليس كذلك فنحن جالسان كالمتسكعين فوق هذه الاريكة كان عليه ..

هو : « هه . ماذا ؟ انت .. »
أجابت وهي تواصل الضحك : « كان يمكن ان يخطيء يبللنا ، أليس كذلك ؟ »
هو : « حقا . انني.. »
هي : « تجدني سوقية أليس كذلك ؟ انت .. »
قال بنفس اللهجة التي اجاب بها في اللحظة السابقة : « لا » .
هي : « تعلم ، انني لست سوى خادمة » .

تفادى الاجابة ، وفي مكان ما من ناحية مضخة المياه ارتفع صوت سطل يرتطم وتدفقت المياه ناصعة كنسيج سائل ممزق . ثم صوت باب وهو يغلق ، ثم لا شيء ، ومرة ثانية ارتفع صوتها هي . وقد تغير ثانية فجأة . بلا مقدمات . بلا ترابط مع ما كانت تقوله توا : « انني اكرهه يجب على ان أخذ كل هذه الاشياء وألقى بها في الترعة وافعل كما قلت ان أخذ طفلتيّ واعمل عاهرة لكني لا افعل ذلك ولا أفعله لأنني عبيطة لاتتصور انني اخشاه او لانه قال سوف يقتلني لكني لا اعبأ انني .

- ماعليك
- ماعلى ماذا عمري ثلاثون عاما ماالذى تريدني ان اتطلع إليه ؟
- ثلاثون عاما ليست
- وطفلتان صه اغرب عني واتركني .

وحتى عندئذ لم يتحرك . وفيما بعد قال لي انه شعر بشيء غريب يحدث بداخله . قال : « كأنني امر ، او بتعبير ادق ، ان ضميري يخرج ويدخل على التوالي . اي انه احيانا يخيل الى اننا الاثنان ، جالسان هناك او بتعبير ادق نتبوأ نوعا من الوحدة اشبه بالتماثيل بينما العالم الخارجي يتحول الى ديكور بعيد ، يتصاغر ، يهرب ، ينمحي في العدم . وبعد ذلك مباشرة . بلا اي مرحلة انتقالية . او في نفس اللحظة بالضبط ، كنت اتمكن من رؤيتنا نحن الاثنين . متضائلين . لامعنى لنا ، بؤساء ضائعين على تلك الاريكة في الأرض الخلاء المضاءة هنا وهناك بدوائر من الضوء الاصفر المنبعث من الفوانيس الثلاثة . وفيما حولنا الواجهات المظلمة ، والمدينة ، وفي البيوت اشخاص أخرين مثلنا . متضاءلين ولا معنى لهم ، منهمكين في الاعمال البسيطة المسائية . يعدون القهوة لليوم التالي . او يخلعون ثيابهم . يلقون باجسادهم المنهكة . او قد ناموا بالفعل . أموات . وبعضهم غارق بعناد في اللذة عبر العرق والتنهيدات والحشرجات . في تلك المحاولة المستحيلة والمتناقضة لانكار الذات وتخليدها في أن واحد . وهناك فيما وراء ذلك البيوت . والمدينة . والريف ، والطرق ، والقطارات . وفيما ذلك المدن الاخرى ايضا ، ووسط كل هذا كان يخيل الى انني اسمع صوتا كالتنفس . مثل تنفس لحمها هي . نفس ذلك النبض الخفي ، المتعدد . الغامض . إذ ان لحم

العالم الانثوى قادر على الانجاب وعلى الخلق ان امكن القول دون حتى ان يتنبه الى مايحدث ... » قال لى انه ظل هناك ، صامتا ، ينظر ، على الجانب الآخر من الميدان ، ذلك المحل المضاء ، الوحيد فى الليل ، كان شديد البعد لكى يتمكن من سمع او تبين اى شىء أخر سوى ذلك الجزء الاخرس من الحياة المرتسمة فى المثلث المضاء الذى يرسمه زجاج الواجهة الذى كان يمكنه ان يرى من خلالها المحل نفسه اولا ، واللون الاخضر الصارخ للخضروات ، والسلاطات فى اكياسها ، سباطة الموز المعلقة ، البصل ، قوالب الصابون المتراكمة ، الثلاجة الضخمة البيضاء وعليها قفص عصافير مطلى باللون الازرق ، وفى الخلف ستارة بخطوط عريضة حمراء داكنة ، تم غسلها العديد من المرات بحيث نضح اللون الاحمر على الخلفية البيضاء التى صارت بلون وردى خمرى ، وفى فتحة الستارة ، فى أخر المحل ، ستارة اخرى سماوية اللون بورود صغيرة تدارى بابا ، وبوفيه من الخشب الاصفر ، وامرأة ترتدى ثوب ازرق داكن تجلس على مقعد ممسكة بين يديها بسيارة صغيرة حمراء يحاول طفل نافذ الصبر أمامها ان يأخذها من يديها ، والى اليمين ، امام البوفيه ، مائدة مستديرة عليها مفرش من المشمع اصفر اللون به نقوش حمراء ، وفى الخلف ، تجلس امرأة اخرى لايبدو منها سوى صدرها ترتدى بلوفر من التريكو البنفسجى وجاكتة لونها اخضر فاتح .

قال :بدا ذلك كأنه علبة ، اشبه ماتكون بمسرح صغير مضاء وسط الليل ، شخصياته خرساء ، مرسومة وملونة بتلك الدقة الشديدة المتناهية العبثية لتفاصيل تساهم فى جعلها غير واقعية ، محرومة من الهواء ، محفورة . ثم ، انحنى برأسه الى الخلف ، اكتشف عبر اسطح المنازل الامتداد البطىء لخط السماء المرقطة ، الفضية بفعل قمر غير مرئى ، ثم تحيد ، تنساب بلا عجلة ، صامتة ايضا ، مغلقة ، واسعة ومعدنية ، عبر الاسطح ، والمداخن الداكنة ، كأنها قطيع بطىء يرعى فى المساحات الكئيبة الباردة ، وعندئذ ولثالث مرة (يشعر بذلك الضيق الذى انتابه أولا بينما كان عند موريس ، وهو يتابع بعينيه قرص الشمس الاصفر عند الافق ، ثم بينما كان الملاكمان يستريحان) شعر به لدرجة الهلع ، بنوع من الرعب ، الاشمئزاز ، ثورة تعترى كل الجسد ، حنين يمزق النفس لضياع الوقت ، الذى يستحيل الامساك به ، كالرمال ، كالمياه بين اصابع الاطفال ، تهرب ، حتما ، نهائيا ؟ وفجأة ، فاجأه صوته يعلو لدرجة جعلته يقفز وهو يقول : « لكن ، لماذا لاتتركينه ، لماذا لا ... »

لكنه لم يكمل تساؤله ، توقف (بل أكثر من توقف : راح يتخبط بجنون كمن يضرب الفراغ بذراعيه وساقيه لكى يتدارك ، يعود الى الوراء ، وقال لى « اتعرف تلك الشخصيات فى الافلام الهزلية ، حينما يجذبهم بساط من تحت اقدامهم فيتخبطون بطريقة مضحكة او يحاولون الهرب فى اتجاه عكسى ملوحين بأذرعهم

فوق رءوسهم . فزعين . والذين لاينجحون الا فى الوقوع على الأرض وينزلقون بشكل اسرع ..) بينما صمت الليل ينساب . اسودا . باعثا على الدوار . وحينما تحدثت . لم تكن هناك اى نبرة غضب . ولاحتى اى تحدى فى الصوت . المكتوم . الهادىء . وهى تقول : « ويحك هل تتخيل ان . ماالذى .. »

ثم شعر ان هناك مايجبرها على ابتلاع ريقها . وابتلعته عدة مرات ـ سمع ذلك بوضوح فى الصمت ـ قبل ان تتمكن من مواصلة الحديث . بصوت تحكمت فيه ثانية . هادئا . وربما كان اكثر حدة . وهى تقول : « اصغ . اننى لاأعبأ لاأحبه وربما حتى اننى اكرهه هل يمكنك ادراك هذا لكنه يستطيع العودة هذا المساء او غدا ان أراد او حتى بعد عشرة ايام أو بعد .. » . وتوقفت مرة اخرى . لتطلق تلك الضحكة المقتضبة . الحادة ايضا . بلا سعادة . بل كانت عكس الضحكة تماما . وفجأة . فى مواجهتهما . اضيئت نافذة . انحنى طيف منها . وقبل اعادة غلق الشيش تمكن مونتيس ان يرى بجواره القناع الابيض منبعثا من الظل . مايشبه وجوه الموتى . وعلى وجنتيها خطان لامعان . فأدرك عندئذ ما الذى كان الحلق يجاهد بعناء لابتلاءه . اتيحت له فرصة تأملها لأنها لم تتحرك . لم تشح بوجهها . لم تحاول الآن ان تخفى عنه مايكشف عنها . لأنها ربما كانت الآن ابعد عن اية خيانة او اية مواربة . وبينما راح يسمعها من جديد كان يفكر : « او ربما قد نسيتنى ؟ » . تكلمت وكأنها تحدث نفسها . غير مكترثة بوقع حديثها . ولا بمن يسمعها . ولا بملامح وجهها الميت فى عينيها . ولا بالضوء : « ذلك لأننا لسنا مجرد وعاء اتدرك هذا وعاء فحسب لنمارس به الدعارة او ننجب منه الاطفال ولا اى شىء آخر ولا اى شىء لا اعبأ ان كان ذلك يفجعك ما الذى تتصوره عن الحياة حينما لايكون للمرء سوى يديه ليكسب ما يلتهمه وفرجه ليمارس به اللذة الوحيدة التى لايضطر الى دفع ثمنها فماذا .. » وهذه المرة احتبس صوتها تماما . انسحب فيما يشبه الحشرجة . ومرة ثانية سمعها تجاهد بعناء لتبتلع . وفى النهاية استنشقت . تمخطت عدة مرات . بصوت عال . كورت منديلها ثم دفسته فى جيب مريلتها وقالت « ماذا تتخيل نفسك اتتصور انك قديس ؟ »

لم تعد هناك اية آثار للضعف فى صوتها . لم يكن عداء بالضبط . ولا مودة ايضا . الآن كان يشعر بها تتفحصه بينما كان نهشا لما يشبه الجنون . وجهه محتقن . يتلعثم اكثر من ذى قبل . يحاول رفع رأسه . يلمح فى الظل الخفيف بريق عينيها اللامع . اخفض رأسه فورا . واخيرا صرف النظر عن الكلام . سكت ظل هناك يشعر كلية بالضياع . ينظر بغباء الى الظلال السوداء للاغصان التى تهتز برفق عند قدميه .

قالت « رباه ! » . وكفت عن النظر اليه . وبعد لحظة اطلقت نفس الضحكة ثانية . يائسة . بلا سعادة . مريرة : « حسنا كم الساعة الآن ؟ منذ جلسنا هنا

على الاريكة كالعبط .. » لكنها لم تتحرك . ولا هو لم يقل لى فيما بعد ما نوع الافكار التى كان يلوكها فى رأسه فى هذه اللحظة . لعله قد وصل الى حالة ابعد من اى تفكير . او ربما قرر ان يسخر من كل هذا . يهزأ مرة اخرى من نفسه . ومن تلك الامسية الغريبة . من ذلك الثنائى الغرامى الليلى الغريب حيث كانت الظلال المتواطئة والحامية لشجرة الارز فى اوبرات فاجنر استبدلت (مثل القمر بالفانوس) بظلال شجرة الصنار فى الارض الخلاء . لأنها كانت اخر حكاية حدثنى عنها ، بتلك الدقة المتناهية فى التفاصيل . حتى التافه منها ـ او على الاقل ، ماقد يبدو تافها لأى شخص أخر ـ والذى يجعل الناس يرفعون مناكبهم . وقد اهتم حتى بوصف صوت حفيف اوراق الشجر الجافة ورياح الليل تحركها . وشكل هذه الأوراق الشبيه بنجوم مقصوصة وحركة الاغصان الجافة . الناشفة وهى تتحرك بشكل متقطع . وقال لى « مثلما يحدث فى هذه الفترة من كل عام . حينما لاتكون الاشجار تقريبا محملة بالأوراق . حينما لايكون الحمل ثقيلا بالقدر الكافى ليكسبها تلك الهيئة الثقيلة . والحركات البطيئة . الجليلة والهادئة فى الصيف »

لقد تعرفت اليه قبل ذلك بقليل . عند المصور الفوتوغرافى الذى يقوم بتكبير الاكلاشيهات الخاصة بتزيين الكتاب الذى كنت أعده أنزاك . فى اوقات الفراغ التى تتبقى لى من ساعات الدراسة فى الليسية . فأجوب شوارع وطرق المنطقة فوق دراجتى البخارية لجمع الوثائق اللازمة عن الكنائس القديمة المتاثرة على التلال الرمادية المكسية بالحصى . المبنية او المنبثقة كنتوءات من نفس الارض . حصى مقدد ، منبثق احيانا تحت ظل بعض اشجار اللوز النحيلة الرمادية . او شجرة بلوط الفلين . أو بجوار سيل متدفق عن بعد يحدد معالم خط سير نظرية اشباح الحجاج واللصوص الموتى . والرهبان . والمرتزقة . وحثالة المهاجرين الذين وطئوا نفس هذه التلال الجرداء . ونفس الاراضى ذات اللون الطوبى ، ونفس حافة النهر السهلة والتى تجرى عليها الآن سيارات نقل شركة الطرق الساحلية . فيما بين البحر والمستنقعات المليئة بالناموس . يتوقفون فى القرى لانزال او أخذ بعض الفلاحين برءوسهم المتشققة الشبيهة برءوس الحيثيين ، واللاتينيين . والفيزيجوت او العرب : نماذج نجمت عن عبور كل شعب منها ، عن كل غزوة ، وقد اجتذبتهم الارض (أو النساء ، الأمر سيان) اقتطعتهم (او اقتطعتهن) كمكان للدفع ، لدفع فدية ما ، كل موجة غزاة تضخم ، تخصب الهكتارات بسيقان خصبة منفرجة للغزاة ، لتسلبه قواه الحيوية ، مع بذور الاستيراد بطريقة اكثر حاذقية من قتل او استحواء المحارب . اذن . انبثق منها (الأرض) وارتبط بها ، نتاج أدمى يمثل القاسم الشترك الاعظم لأغلبية شعوب البحر الابيض المتوسط (وغيرها) : قصار القامة كالبهائم ، متان البنية ، يقظون . رقابهم مليئة متشققة كالطين المجفف فى الشمس . عناف . مملون فى حديثهم ، عناديون : يمكن رؤيتهم ايام السبت او الاثنين . يقفون بصبر فى الطوابير (اشخاص يرتدون الكاسكيتات الجديدة وقد ارتدونها معتدلة فوق رءوسهم الشبيهة بالارض . وياقات قمصانهم مقفلة بزرار نحاسى ضخم ، والنساء يرتدين الايشارب الاسود ، والبنات فى ثياب حريرية زاعقة الالوان) يقفون قبل موعد فتح المحال ، امام الابواب الضخمة المصنوعة من زجاج الوقاية

فى المحال الكبرى . وفتارينها المليئة بالمانيكانات المخنثة التى تعرض البضائع الرديئة المصنوعة من الألياف الصناعية . والحرائر الصناعية . الصينى من البلاستيك ، والفضية من البلاستيك . يعرضونها بابتسامتهم المصنوعة من البلاستيك مثل شعرهم . وفتنتهم وجاذبيتهم لخدمة واستخدامات عقول من البلاستيك ، ونوعيات وعقول من البلاستيك وذلك ولاشك مثل الطبقة الحديثة لكل الذين يشيدون . ويصنعون ويبيعون الفتارين والمانيكانات والبضائع الرثة . نوع من الدود الابيض اللين المصنوع حديثا . الناجم - كيانه . ورغباته . وجشعه وكسله - ليس من التاريخ . والزمن . واللحم المخصب . لكن وفقا لكل الشواهد . ناجم عن عملية مضاجعة بين السيارة ورادياتير التدفئة المركزية . غير القادر على الحركة تماما الا بواسطة موتور ما . وغير قادر على التسلية الا بالاجهزة الملونة ولايتخيل نفسه الا بأوراق البنكنوت .

وانني لاتذكر ذلك اللقاء الأول مع مونتيس : غمز لى المصور بعينه . مشيرا الىّ ينظرة متواطئة بين فتيات الاعلانات والاغلفة فى ثياب البحر . ومناظر غروب الشمس الملتقطة فى ڤينسيا والاطفال الرضع النائمون على الوسائد . اشار الى الشكل الذى كنت أراه لأول مرة . منحنيا على فترينة عرض السلع المضاءة . يتفحص السلبيات بواسطة نظارة مكبرة الصقها بعينه مما كان يجعله يبدو . بجسده النحيل ، ووجهه المجعد ، ويداه بعظامهما البارز . أشبه ما يكون بأحد هواة الطوابع ، بأحد هؤلاء الاشخاص المنبعثين من رسوم الفنان دوميية . الشبيهة بالطيور طويلة الساق . مترب رث الثياب : اعتدل فى وقفته ، اخرج منديلا منقوشا بالمربعات ، مسح به عينه طويلا بعد ان ظل لاصقا اياها لفترة طويلة على النظارة المكبرة بينما كانت العين الاخرى تتجول . مبهمة ، على الديكور الذى يحيط به ، مارة على مايبدو ، دون ان ترى شيئا . فوق صور فتيات الاغراء ، والاطفال ، وغروب الشمس ، ورحلات شهر العسل . كما مرت فوقى وفوق ما معى من صور مكبرة . ثم رأيته ينتفض وكأنه كان بحاجة الى وقت . ألى فترة ما . لتنتقل هذه الصور المسجلة عبر عملية معقدة الى ذهنه ، ثم توقف نظره على ، تلعثم بشرود فى بعض عبارات الحوار ليبدأ الحديث الذى لم يعره اى اهتمام ، وانحنى ثانية ليس على السلبيات ، ولكن على الصور التى اخذها من يداى . واعتدل ليسألنى بينما راح يتفحصنى بتلك النظرة الحادة ، تحت حاجبيه الملتقيان عند بداية انفه ، وبعد ذلك بقليل كنا خارج المحل . يقف كلانا . أو بتعبير أدق كان هو يمسكنى بينما الليل يخيم . مستمرا فى طرح اسئلته حول الكتاب الذى اعده ، وعن الكنائس القديمة . والبلد ، بنفس ذلك الاحتقار . أو الرفض أو الجهل بالاعراف الاجتماعية ، أو اصول المعاملة (أعتقد انه لم

يسألنى حتى عن اسمى ، بل ولم ير داع لتقديم نفسه) ، ثم ، فجأة ، نظر الى ساعة يده ، لوح بحقيبة يده قائلا : « لحظة من فضلك ، سأعود . مجرد لحظة ، انا .. » تركنى واقفا هناك ، واتجه ناحية مقهى مضاء وما ان وصل الى الباب . وبينما هو على وشك الدخول ، استدار ، لوح لى بيده بشكل أمر ، مامعناه : « حالا ! سأعود . لاتتحرك .. » ثم رأيته يدخل ، منحنيا ، بوجهه الضامر الحزين الذى يحيط به شعر طويل اسود يحيد عن حافة طاقيته التى ارتداها على عجل ، دلف وسط موسيقى الساكسوفون ، والاضواء ، ومجموعات الشبان المحفلطين حول موائد سحرية تعلوها الطائرات ، والبالونات ، وملابس السباحة الملونة كالحلوى لسابحات هم كالحلوى تضاء وتطفأ بطلقات متوالية وفقا لرغبة الكرات الصغيرة المتقافذة ، فى حين ، مازال هو على مايبدو غائبا عن العالم المحيط به . ووجهه مازال غائب التعبير ، اشترى فيشه مكالمة تليفونية ، دخل كابينة وخرج فى اللحظة التالية ، بتعبير ارتياح ارخى عضلات ملامحه ، وانقض ناحيتى ثانية بوجه شبه باسم قائلا : « انت هنا .. والآن انا .. لدينا كل الوقت .. » ، متأكد مقدما انى كنت مستعدا لمنحه وقتى (وفى الواقع كنت متأهبا لذلك) بحيث لم يشك لحظة ، عندما تركنى ليجرى المحادثة التليفونية ، فى انه لن يجدنى عند عودته بل ولم تخطر له الفكرة ثانية واحدة ، بل لم تخطر بباله مطلقا ، او اننى كنت سأتحين الفرصة لأهرب ، واتركه هو ، والحاحه المسيطر ، وصوره (لقد اطلعنى عليها فيما بعد) واسئلته . لكنه كان قد اغرانى ، او بتعبير ادق كنت قد تعلقت به ، وكان قد اثار فضولى ، او استحوذ علىّ ، لااعرف بالضبط ؟ ربما كان مطلوب هنا ان نستفسر عن كل ماحدث فيما بعد : تلك الجاذبية التى تشد الناس اليه رغما عنه ، ذلك الاندهاش ، هذا الاحباط ، وذلك الانبهار وكلها انفعالات يعيشها المرء تباعا ، او يشعر بها المرء على التوالى منذ اللحظة التى يظهر فيها لأول مرة ، مما جعل بعضهم يقول انه كان من الافضل له وللآخرين لو لم تكن هناك اول مرة اى لو لم يغادر بلده ، تلك البلدة الصغيرة هناك ، فى الشمال ، بلده المزروعة باشجار راسية ، حيث الناس هناك ، على الاقل ، اعتادوا عليه تدريجيا ، من عام الى عام ، لدرجة لم يعودوا يلاحظوه مثل سكير القرية او نافورة الميدان . لكن ذلك لم يكن سوى اقتراح : فهذا البلد البعيد غير معروف ، وهنا هذه الايام ، فى هذه الساعات المجهولة يبدو فى نظرنا كممثل انبثق من خلف ستارة المسرح ، ثم يختفى ثانية ـ احيانا ، كنت اظل لمدة اكثر من خمسة عشر يوما دون ان اراه ـ ، ثم يحضر فجأة (ما الذى صار اليه فى تلك الفترة ؟ اين ذهب ؟ ماالذى فعله ؟ ماالذى يشعر به ؟ : ماالذى تناقلته الاقاويل ؟ ماالذى قصه لى ؟ او تخيل انه قصه لى ؟ أو استطاع ان يتذكره ؟ أو تخيل انه يمكنه ان يتذكره ؟ او تذكره ببساطة ؟) ، حضور ، اقاويل ، ذكريات ، قصص ، لم نتبين من خلالها سوى

(وكذلك هو بالنسبة للآخرين : روز ، الطفل ، الملاكم ، المسجل المرفوت ، خاله ، الموثق : موريس ؟) نوع من الواقع اشبه مايكون بالزواحف المنقرضة المكونة من اشتات بدأ بفقرتين ، وعظمة جبهة ، وعظمتى فكية وثلاث عظمات مشطية مغموسة فى وحل الزمن الرمادى ومجمعة وفقا لأذواق ورغبات كل واحد ، وفى نهاية المطاف كل ذلك لم يسفر الا عن تلك المغامرة السوقية العبيطة لعبيط سوقى ، على حد قول الجميع ، لايجيد سوى مبادىء الكتابة : وصل يوم كذا و : قادم من ، ثم احب فلانة ، واقل من ذلك : كانت نيته ان ، بل واقل : بهدف عمل ، بل اقل : رافضا ، واقل : متشبثا ، بل واقل من الاقل : واذ ادرك ...

ربما . لم لا ؟ وما الاهمية فى ذلك ؟ لأنه لم يكن هنا ليثبت شيئا ما . كان هنا . ذلك كل ما فى الامر ، وهكذا حدثت الاشياء ، والآن يجد نفسه فى موقف موصل الحلوى الذى تورط وسط سباق سيارات ، مع الفارق انه بدلا ان يقف ممسكا بالصينية بكلتا يديه رافعها الى اعلى ليتفادى الصدام ، تصرف بحيث ألقى بنفسه فى قلب المعركة ، بل زادها تأزيما ، ليس حبا فى العراك أو فى المعارضة ، فربما (بل بكل تأكيد) دون ان يدرك ماالذى يفعله : لأنه كان كذلك . لأنه لم يكن يستطع ان يمنع نفسه من الاتجاه عكس التيار ، ان يسرع بطريقة او باخرى فى الاتجاه الممنوع معتقدا انه الاتجاه الأصوب ، او حتى دون ان يفكر بالمرة : لأنه لم يكن بامكانه ، ولم يكن يمكنه التصرف بطريقة اخرى .

وقال لى الموثق « لأنه اذا افترضنا اننى غبى وان شخصا ام ير ساق شجرة عنب واحدة فى حياته على مسافة اقرب من ثمانمائة كيلومترا يتخيل انه فى مقدوره ان يعلم ناس مثلنا أولئك الذين ولدنا وكبرنا هنا وأباؤنا مولودون وعاشوا هنا ، فى هذا البلد الذى لايزرع الا العنب ... لأنه ، تصور : ان الذين يتحدثون الآن عن نزع العنب اجباريا : فليحاولوا زرع او انبات اى شىء أخر هنا ...

ـ كنت تقول لو افترضنا ان شخصا مثله قادر على ماذا ؟

ـ على ماذا ؟ اصغ : أتتخيل انه يمكن اصلاح مثل هذه الصيغة فى الحالة التى تركها عليها بهذا الاسلوب ؟ حسنا . لنقر بذلك . لكن ما الذى تصوره ؟ اننا كنا نخدعه ؟ اننى .. اسمع ياسيدى : نقابة الموثقين لها قوانين تعد ...

ـ بكل تأكيد ! ماعليك » كنت قد بدأت معرفتى به تقريبا فى تلك الفترة (اعنى فترة لقاء مونتيس فى محل التصوير) بشأن كوخ متهدم ، حظيرة قديمة فى الجبل كنت افكر فى شرائها وتوضيبها لأمضى بها ايام الاحاد والصيف . وهكذا بدأت اسمع بانتظام ذلك النمط من الغناء الجماعى القديم ـ لأن الموثق كان يتمتع بموهبة ، او ان أثرنا بعاهة الا يتواجد بنفسه فى قلب اى موضوع ، وان يكن مجرد وسيط يمكنه التحدث لا عن لسان حاله وانما عن لسان حال المدينة باسرها ، او على الاقل (ليس عن طبقة معينة بمعنى الكلمة ـ بما انه غير معترف ببعض الاثرياء الجدد ، محدثى النعمة ـ ، ولا عن طبقة بالذات ـ بما ان العائلات

العريقة افلست ولم تعد موجودة ـ ، وانما عن وسط ما ، بأوسع مافى هذا التعبير من معان ، بمعنى ان عدة قواعد غامضة يمكنها أن توجد حساب نوع من المتوسط النسبى فى المؤسسة التى تلعب فيها العراقة والثروة كعنصر اساسى ، اذ ان قوة احد هذان العنصران يمكنه شراء العنصر الآخر ، لكن ليس بشكل مطلق) كان يتصور نفسه يتحدث بلسان المدينة باسرها باستثناء اى اشخاص اخرون غير محتسبين (ولا حتى محتقرة او ينظر اليها من علياء ، لكن مجرد مجهلة ، وكأنها شيء ـ كالتجار ، وعمال البريد ، والنقاشين او السباكين ـ أو أثاث المنزل)، بما انه لابد من تعداد معين (احجار ، طوب احمر ، اسمنت مسلح وجمالونات) يمكنه ايواء عدة آلاف من الرجال ، والنساء والاطفال ـ بخلاف العشرين او الثلاثين اسرة التى تكون ـ فى نظرهم ـ الاساس) ، اذن ، هم بهكتارات كرومهم ، ومكاتبهم ، ومخازنهم ، ومخازن نبيذهم ، وحافلات نقل مشروباتهم او ثلاجاتهم ، وفيلاتهم على شاطىء البحر ، وشاليهاتهم اعلى قمة الجبل ، وسياراتهم ، ومراكبهم الشراعية ، والبخارية ، وكل ذلك أو جزء منه . أما مدفوع نقدا أو على العكس مرهون حتى أخر قطعة من الجملون . والجد أو جد الجد سيان جنرال من أيام الامبراطورية . أو قسيس أو ماسح أحذية . (أو مهرب ، أو غشاش فى صناعة النبيذ ترك عمل التجوال المؤلم فى ليالى الشتاء والريح الشديدة لكى يبيع بضعة لترات من عرقى "ديل مونو" أو لغش المشروبات ليلا فى بضعة براميل لنفس العملية لكن بصورة أقل حرفية وأكثر ربحا أى فى وضح النهار ، على مرأى ومسمع من الجميع ، فى مئات الاطنان) ، وظاهريا من نفس النوعية كالمخلوقات الاخرى المزودة برأس ، وذراعين وساقين ، ومصنعة مثلها تماما من جيل الى جيل بين ملاءتين لكن بلا شك بدون انات لإهثة للحم العاشق العارى لكن بصوت اشبه ما يكون بادخال قطعة معدنية فى فتحة الحصالة ، لذلك لاشك انه اتضح الآن ان التاريخ ليس مكتوبا فى الاصداء البعيدة للمعارك والصيحات غير المجدية للجماهير وانما فى الجبال الشاهقة كالهيمالايا والمتربة والمكونة من عقود ووصايا كتبت تحت املاء العديد من امثال الاب جوريو بواسطة الجيش الغامض والمنتصر للعديد من الموثقين أمثال الموثق ومثل الذى قبله ، ومن قبل الذى قبله ، ومن قبل الذى قبله والذى اجلس امامه فى نفس المقعد الوثير حيث كان مونتيس يأتى من وقت لآخر ويجلس عليه ولاشك ذلك العم ايضا ، اى ذلك الشخص البدين الذى كان يقول انه عمه والذى اقتحم غرفته ، ثانى او ثالث يوم بعد وصوله هذه البلد ، فى غرفة اول فندق نزل فيه ، ليدعوه على العشاء فى ذلك المنزل الذى ، على مايبدو ، لم يتغير ديكوره به منذ عهد الامبراطورية الثانية على الأقل ، بجدرانه المكسية بالنسيج الذى كان احمر فيما مضى ، والذى بهت حاليا واكلته العتة ، وتشكيلة سيوف الفرسان المعلقة فى مجموعات متربة ، وقد تآكلت ببطء عبر الزمن والصدأ ،

ومجد النياشين الذى ولى (أو المفروض انه ولى) يبدو ، هوايضا ، وقد تحلل تدريجيا ، كآثر اكثر زخرفة ، منسى وابلة ، موجود هنا للذكرى ، فمنذ زمن بعيد لم يعد احد يهتم بها الا القادمين حديثا ، فربما يدهشون ، يلتفتون ، ينظرون اليه (الى رب البيت ، العم) ، فى واحد من هذه الثياب الخالدة المصنوعة من قماش التويد الانجليزى المميز للسيد المزارع ، وبطنه ، ووجهه المحتقن الدال على شدة النهم ، وشاربه الذى على هيئة المكنسة ، وشعره الكثيف الرمادى المقصوص قصيرا كالفرشاه ، وخاصة تلك الهيئة التى تجمع بين الفظاظة ، المبطرخة ، الجبانة التى يتمتع بها من يجبون المال وينظرون بارتباك مفزوع الى القرابة الوريدية المفتعلة ، التى تسمح لهم ليس بالمعيشة فحسب (الاكل ، والنوم ، والمأوى) بالمعنى المادى للكلمة ، ولكن الى مايسمح لهم بتصور انهم يعيشون . زاعما حتى انه (أو بتعبير أدق ان والده تصرف نيابة عنه ، لأنهم لم يسندوا اليه حتى ذلك النوع من المقدرة) قد استخدم آخر بقايا الجاه - السيوف ، الاسلحة المرصعة ، بورتريهات الاجداد ، اللقب ، الفندق القديم المترب - لا ليسلب موافقة الانسانة المعنية ، اى الفتاة ، ولكن موافقة اهلها (يقال انهم كانوا جنائينية قدامى ، انتزعوا الارض بأيديهم فى فترة جيل وهى توازى تقريبا ما قام الجنرالات بسيوفهم هم وسلالتهم ومديريهم بتبديده فى مائة عام فى ديون القمار ، الجياد ، والنساء ، ومن المؤكد فى عمليات اخرى عجيبة) ، فقام الاب اذن بقران زوجين قالت عنهما ألسنة السوء انه من المؤكد قد ارتكب خطأ ما وأن هذا الخطأ وقع فى بيانات السجل المدنى يوم ميلادهما بمعنى انها بدت ، هى ، من سلالة كونتيسة وهو من سلالة الطين ، وفيما بعد (قامت نفس ألسنة السوء) بالمقارنة بين البنتين ، بالتخمين ، بالمراهنة على نسبة دم الاب والام الموجود فى شرايينهما ، وزعم البعض ان الدماء للام ولشخص آخر عندما كانت (ابنة البستانى الشبيهة بكونتيسة تزوجت من سايس) انهما قد رقدت تحت ثلاثة او أربعة أطنان من الرخام الذى فى المقبرة وكان يغطى قبلها عظام جنرال الامبراطورية وسلالته ، راح الناس يثرثرون باسم ما ، ويتحاكون بقصة الطبيب العجوز الذى نهض من مائدة القمار عندما عاد الاعزب الى الظهور مرة ثانية فى الدائرة ذات ليلة شتاء باردة زعم البعض اثناءها انهم رأوا الخيال الشبحى لامرأة تروح وتغدو فى احدى شرفات الفندق القديم غير مرتديه سوى قميصها . لكنها لم تكن سوى أقاويل . اذ لم يجدوا بعد ذلك ما يثبتونه ضده ، على الاقل من مثل هذه الاشياء التى تدعم عادة الاخبار الشفهية ، أى تلك التى تتميز عما يؤيدونها عادة ، وفى نفس الوقت فهو لم يكن يتحمل ذلك النوع الآخر . او ربما لم يجرؤ ، أو ببساطة ربما مجرد زوقه : فلم يعرف عنه أية خليلة . ولم يضبط أبدا وهو يحاول ان ينسل خلسة فى واحد من الأربع أو

الخمس محال للمساحيق الموجودة فى المدينة . فمنذ وقتها كف ان يهتم بنفسه ، وراح شكله يزداد تماما بعد عام . ووجهه المبطرخ يحتقن تدريجيا بينما كان يحشر جسده المكتنز وغير الرشيق فى نفس السيارات الضخمة السوداء التى كان يغيرها كل عامين وكان يجلس على المقعد الخلفى مع الطفلتين . ثم ، فيما بعد مع فتاة شابة وطفلة ، ثم (حينما تزوجت الكبرى) اصبح يجلس مع فتاة مراهقة بمفردها ، وفيما بعد ايضا ، حينما اصبحت فى سن يسمح لها أن تفعل ماتشاء

(فإذا ماقالوا ان الابنة الكبرى قد ورثت جمال والدتها وعجرفة الرجل البدين ، فان الثانية لم ترث منه شيئا) . وبالغاء الثياب الحديثة ، السيارة ، التليفون ، الشارب الصغير على الطريقة الامريكية كالموثق ، كل ذلك ـ الفندق القديم ، الباب الاصم المصنوع من النحاس اللامع ، الواجهة ، مجموعات الاسلحة الصدأة ، غموض الميتة ، الاعزب ـ الابنتان ـ الشبيهتان باحدى هذه المسرحيات المكتوبة على الطريقة الاسبانية مثل احدى أعمال كالديرون أو لوب دى ڤيجا ، واحدة من تلك الكوميديات الدرامية الممتدة على عدة أيام المقسمة ، أو على الأرجح المنبعثة ، المنبثقة بشكل متجزأ خارج زمن مبهم ، لفترة زمنية غير محدودة مثقوبة باحداث هزلية أو متداخلة : شيء أشبه مايكون بمسرحية بها فقراء فى الخلفية ، شحاذون دائمى التواجد والاستعطاف ، اليد ممتدة للحسنة ، تحت ظل رواق ، وفيما حول هذه المدينة الأزلية ، بضواحيها المتربة ، وحوانيتها ، ومقاهيها المزدهرة بأضواء النيون ، وجدرانها التى فى لون العيش المخبوز ، وسمائها شديدة الزرقة ، وشوارعها التى تكتسحها الريح الشمالية اللعينة طوال مائتين وخمسين يوما فى السنة والمائة يوم الاخرى تنضح بالرطوبة ، تفوح منها رائحة العفن ، رائحة الجثث ، الطوب المتعفن ، وفى الفصل الاول من المسرحية يوجد ميدان ، به ذلك الرواق الثقيل المزخرف باحدى الكنائس القديمة ، وعن اليمين منزل دون او سيبيو ، الاعزب الغنى ، ويدخل الموثق اولا ، يرتدى السواد ، اشبه مايكون باحد القساوسة ، يطلب التحدث فورا الى الاعزب فى موضوع فى غاية الاهمية ، مسألة مالية ـ فما الذى يمكن ان يكون له اهمية بالنسبة للموثق ودون أو سيبيو ان لم تكن النقود ؟ ـ ، مسألة ميراث ، وحينما يغادر المسرح بمصاحبة مدير اعماله ـ او ممكن بمصاحبة المسجل ـ تدخل صغرى بنات الاعزب بصحبة خطيبها من الجانب الآخر للمسرح ، وسرعان ماتترك المكان للمنظر الثانى للابنة الاولى ، المطيعة ، تلك التى تزوجت وفقا لرغبات والدها وتنجب كثيرا من الاطفال ، شبيهة بتمثال الالهة چينون ، بهيئتها النبيلة الوقورة ، ثم يظهر ابن العم الفقير أو بالأحرى الثرى بما انه ورث على التو ، مما يجعله الموضوع الرئيسى فى المحادثات والاهتمام

العام ، ليس بالنسبة للاعزب الثرى وعائلته ولكن بالنسبة لعدد من الشخصيات التى تتلاقى ، او يفوتها التلاقى ، او تتفاداه ، او تبحث عن بعضها فى مجموعة من الفصول المتتالية ، والمناظر ، او التبديل والتلاحق ، والمواقف المضحكة المتناقضة ، دون ان ينسوا الفقرة الهزلية ، الشهوانية ، الاباحية ، بل وحتى الماجنة ، المائلة الى الاسلوب الاليصاباتى اكثر منها الى الاسبانى ، الاجدر بين جونسون منها بكالديرون ، والتى يحكيها كل الناس فى المدينة ، ابتداء من الصديقة (شبيهة چينون ، الهة الخصوبة المتعالية التى وجد مونتيس نفسه جالسا بجوارها اثناء ذلك العشاء الشهير الوحيد الذى دعاه اليه عمه والتى حدثته خلاله ، وفقا لما قاله لى ، دون حتى ان تراه ، بذلك الادب الجم المتباعد البارد ، ووجهها الالهى الخالى من التعبير ، وبطنها التى بلغت الشهر السابع من الحمل ويستنتج المرء ان الحمل لم يكن يمثل بالنسبة لها حالة عرضية ، عابرة وانما نوع من الهدف فى حد ذاته ، كأنها وظيفة مقدسة ـ كانت رابع مرة تحمل فيها خلال خمسة اعوام من الزواج ـ : تخصب ، تحمل ، تلد ، ترضع وتخصب من جديد فى نوع من الغبطة الرصينة المتعالية بقسوة) والتى كانت افضت بها بدورها حتى الى صبيان صالونات الحلاقة الذين كانوا يعلمونها فن زبوناتهم ويحكونها بصوت عال سرا من غرفة الى اخرى على صوت مجففات الشعر الدافئة ، وكنت احاول أن اتخيلها ، مثلما وصفها لى مونتيس ، بطنها المتعالى النافخ قميص نومها الطويل أمامها (وربما كانت هناك لمبة ما ، عكس الضوء ، تحدد معالم جسدها كخيال الظل تحت الحرير الشفاف فى هدوئها وعدم حيائها المتعالى) ، غير عابئة ايضا بعريها ولا بحالتها ، وسخفها ، والسيخ الذى تقلب به النار عشوائيا والذى مازالت تمسك به ، دون داعى ، متدليا بطول فخذها ، بينما تتحدث ـ بنفس الهدوء ، ونفس عدم ، الخوف ، أو الشك ، وكأنها مصنوعة لا من الجرأة ولكن من ذلك التأكد الذى لايخل ، وأنه لايمكن النيل منها جسديا أو معنويا مما يسمح لها بالوقوف بمثل هذا الشكل ، شبه عارية تقريبا ، وفى هذه الحالة التى تعد جارحة بالنسبة لأى شخص أخر ، وفى منتصف الليل ، والسير من غرفة المعيشة الى غرفة اطفالها ـ ، قائلة : « من انت ؟ ماالذى تفعله هنا ؟ » ، وتنظر دون ان تراه ، الى ذلك الجسد العارى تماما ، الى الرجل الواقف امامها ، الاسمر ، المستدير العضلات ، وذلك اللسان ، او تلك المفصلة ، او برعم اللحم المنتصب فى الجو الخانق الرطب ، والفتاة ، الخادمة ، تحاول ان تختبىء تحت الملاءة ، لكن لعلها لم ترها هى (إيلين) لم ترها مثلما لم تر الرجل ، اى لم ترهما فى واقعهما المادى ، العنيف ، الداعر ، متصورة فقط بلا شك : « كانا يفعلان ذلك . هى لها عاشق . وتحت سقف بيتى ، على مقربة عدة امتار من اطفالى ، ومع واحد من هؤلاء الغجر ... » ذلك ليس لأنها تبينت جنسية الشخص الواقف امامها ، والذى

لم تنظر اليه بصفته رجلا ، بل ولا حتى بصفته آدمى ، والذى لن يكون بوسعها ان تصفه باكثر من وصف تقليدى مبهم مثل الذى يقدمه عادة شاهدو السرقة او القتل ، ولكن لأن تعبير غجرى ليس الا تعبير نوعى يشير الى كل الذين يمكنهم ـلل ليلا فى عشش الفراخ او عند الناس ليسرقوا الفضية او يضاجعون حادمة ، او الاثنان معا . ولم تكن تشعر بالاهانة ولم تكن غاضبة ، بل ولم تشعر حتى بالفضيحة وهى تكتشف ان للفتاة عشيقا . ولم تفكر قط قائلة : « كنت اشك فى ذلك . كنت اتوقعه ! » ، لدرجة ان مثل هذه الامور بالنسبة لها أصبحت عادية ، تمثل جزءا من الاحتمالات التى لابد ان يتوقعها المرء . فالخادمات ، مثل كل الاشخاص الذين دون مستوى اجتماعى معين ، بما انهن كسالى ، لصات وفاسقات ، اى انها تنظر الى الكسل ، والسرقة او المجون كشىء طبيعى مثلما ينجم المطر عن السحاب او مثل وجود الصفار داخل البيضة . فالمسألة ليست فى ان تشعر بالاهانة من ان خادمة لها عشيق ، أو تسرق . لكن عليها ان تراعى حدود العواقب التى يؤدى اليها اضطرارها الاستعانة بناس فاجرون وغير شرفاء بطبعهم ليخدموها . وربما كان الشخص مجرد صبى الجزار على ناصية الشارع او اى صبى لتوصيل الطلبات . لكن بالنسبة لها لم يكن الا غجريا فقط ، وعلى أى حال لم يكن للخادمة ان تبكى ، ولا ان تحاول اخفاء صدرها وبطنها بالملاءة ، لأنها لم يعدلها وجود ، اى بصفتها خادمتها اصبحت مفصولة منذ اللحظة التى دخلت فيها الغرفة واكتشفتهما ، عاريان كالديدان ، يقومان بفعلتهما على بعد بضعة امتار من اطفالها . لكن كل ذلك بلا غضب ، بلا احساس بالسخط ، ولا حتى دون ان تشعر بذلك الانتصار الدفين بأنها أحبطت ، أو كشفت ، أو أزاحت الشر ، كما لم تشعر بأى حرج ولاخجل من ان تتواجد هى نفسها بقميص النوم ، ببطنها ذى الشهور السبعة امام رجل فى أبسط حالاته فى حالة غير عادية ان أمكن القول (فعلى مايبدو ، قد قالوا ـ أو لمحوا ، او سمحوا بافتراض ، او تخيل ـ للصديقة التى قصت ذلك على الصديقات الاخريات وهن يتناقلنه تحت خوذات مجففات الشعر) لأنه لم يبد عليه أى خجل ، وترك الخادمة تبكى تحت ملاءتها ، وراح هو يجيب ، بتعال ، بوقاحة ، دون ان يهتز (على حد وصفهن ، او صراخهن ، عبر الروائح الدافئة الشهوانية لصالونات الحلاقة ، وهم يؤكدن بلهجات مريبة بصوتهن المعانى الخفية والكنايات) ، ظل صامدا امامها ، بحيث ان الزوج وجدهما على هذا الحال ، ذلك الزوج الذى قال عنه مونتيس ، بلهجة المداعبة التى تميز بها ، «انه من المستحسن ان يكون لها عاشقا بما انهم لم يخترعوا حتى الآن ، اية وسائل اخرى شرعية ومباركة لملء البطون الا للابقار» ، ذلك لأنه كان يجب عليها ان تمر بهذه التجربة ايضا ، ان تتنازل ، ان ترضخ للتخلى عن كرامتها لتضع نفسها فى هذا الوضع المطيع الفاجر للتلقى ، للاستقبال ، لترشد بداخلها ـ الزوجة ، تلك المرأة الجليلة التى تحسب كل شىء

حين تصل الى تصرف العاهرة فى اعلى درجات الشغف . فى صخب اللذة العشوائى ، الذى يفرض على الطرفين ايقاف انقضاض الاجساد بغية تصحيح وضع تقوم فيه المرأة ـ عادة ـ بأداء مهمة الحدّاد ـ فراحت ترشد اذن بداخلها ذلك الحمل الاعمى السلفى) . وكيف يمكن تفسير ماوقع ، الا بذلك الازدراء ، هذا الاحتقار ؟ (بل واكثر : هذا الجهل ، وحتى اكثر : هذا النسيان ، كشىء لاقيمة له ، لا دور له بل كشىء يضايق خارج مصيره النفعى المحدود) ، وانه على عكس ما كانت اى سيدة تفعل فى نفس ذلك الموقف غفلت عن ايقاظ زوجها ، وقامت ، واتجهت بمفردها ، مسلحة بذلك السيخ الذى يقلبون به النار ، تجاه المكان الذى تبادر منه الصوت ؟ الا ان كان تصرفها هذا كنوع من التوسل ، نوع من الامومة ، من الحماية (المهينة ، مثل النسيان ، ان لم يكن اكثر) وانه لابد قد شعر بما هو اكثر من ذلك ـ الذهول ، الغضب ، الاهانة ـ عندما اكتشفهما هكذا وجها لوجه ، مثل التماثيل الزنجية الدقيقة الوحشية الصنع فى مجونها ، العنيفة ، الهمجية ، هى مثل إلهة من الآلهة القديمة للاخصاب ، وهو بعضوه الجامح ، المتعال ، المنتصر ، الذى كانت فكرته ، وصورته ، والتحدث عنه ، يثير خيال الأصوات العذبة للنساء فى ذلك الجو الماجن المثقل بالعطور ، وهن يتحدثن من مكان لآخر ، :« لكن ، ماالذى .. ما ... » ، او : « لا انه لم يستدع البوليس ، انه .. » ، أو : « لكن ذلك الرجل ، هذا .. » ، والأخرى : « بضربة واحدة ، نعم : واحدة . حتى .. » ، وفيما بعد اضاف الازواج ، وسماسرة النبيذ ، والمصدرين ، والتجار المجتمعين حول المائدة وهم يحتسون الكحوليات المهضمة او حول تأمل نياشين الشبان المسنين فيما بين العشرين والستين عاما والذين لايكفون عن الشعور بالملل فى الشرفات ، : « ضربة مباشرة الا ان كانت لطمة مباشرة فى الكبد ..

ـ ايعقل ذلك ؟ كنت اعتقد انه مجرد زوج لـ ...

ـ تماما ، لذلك اكتفى بتلقى الضربات . ولذلك لم يتقدموا بشكوى . لأنه ربما اعتقد أن ضربة يد من غجرى ..

ـ هل لأنه كان غجريا بالتحديد ؟

ـ .. او صبى حلوانى ، او موصل طلبات ، لم يعد من الاهمية فى شىء ، ولا يؤدى الى نتيجة اكثر من نظرة غجرى او كلب على بطنها او ..

ـ لكنهم طردوا الخادمة أليس كذلك ؟

ـ لكنهم ؟! بلا مزاح ! ام كنت تتوقع ان يمنحونها علاوة ؟ »

اتذكر ان الجو فجأة وبلا مقدمات بدأ يميل الى الحرارة بينما لم تكن الاشجار قد اكتست بعد بالخضرة ، وفى نفس الوقت الذى ارتفعت فيه الحرارة ، تواجد الذباب فجأة ، وكأنه نتاج فجائى وتلقائى : اسراب سوداء ترتفع ، مزوبعة على شكل زوبعة ، اطلال مبهمة ومحزنة تتحلل ، تفسد (زهور ذابلة ، قلب كرنب ، فضلات ، فى مجارى السوق : روائح نافذة ، ثابتة ، ثقيلة لاتتحرك فى الهواء الساكن الثقيل ، فى ذلك الخمود الفجائى) . ويمكننى رؤية فناء المبنى القديم حيث كانت روز تقطن : الشمس الثابتة ، المتحجرة ، تحاول النفاذ من بين الاوراق غير السميكة لترتسم على أروقة الطوب ، والطوب الذى تشوبه البنفسجية ، الهش ، والغسيل المتعدد الالوان المنشور على الحبال الممتدة من عامود الى أخر فى الدهاليز ، وربما جلست امرأة لتغسل فى ارض أحد الاركان حول مساقى المياه السوداء ، الآسنة ، وفى مكان ما عصفور كناريا يصدر زغاريده عبر الزمن الميت ، المعتم ، الساكن ، والطفلتان ، فى ثيابهما التى كثر غسلها ، وشعرهما المشدود ، وضفائرهما الصغيرة المزيتة ، مثل مقبضى سلة ممسوكة بالشرائط (كانت تلك علامة البذخ الوحيدة ، على حد قول مونتيس ، وكانت روز تمتلك مجموعة لاتنتهى من الشرائط تعلق دائما جزءا منها ليجف فى النافذة) ، كانتا جالستين القرفصاء ، الذقن عند الركبتين ، فى تلك الجلسة الشبيهة بالقردة والتى لا يتحمل الجلوس بهذا الوضع لمدة ساعات سوى الزنوج والاطفال ، منهمكات فى الالعاب الصامتة ، يكونون الحدائق الخيالية بقطع الزجاج الأزرق ، الاسود ، الوردى ، الاخضر الباهت ، وبعد لحظة تدرك الطفلة الصغرى ان الاخت الكبرى لم تعد تلعب - وان ام تتحرك من مكانها . لم تغير وضع القردة ، ولم تتفوه بكلمة - ، فرفعت رأسها ، نظرت الى شقيقتها ، ثم نظرت فى الاتجاه الذى كانت الاخرى تنظر اليه ، فاكتشفت مونتيس يتجه نحوهما ، بعينيه المتفحمة ، ومعطفه المقفول رغم الشمس الساطعة ، بقيافته المضحكة وابتسامته المجعدة المبتئسة مثل اوجسيت العجوز .

لم يقل لى ان كان هو أو روز الذى اقترح ان يصطحب الطفلة ولم يقل ايضا ان كان اشترى لها الحلوى . ربما لأنه كان دائما يحمل معه بعضا منها فى جيبه ،

على حد قول الموثق . فأمسك بيد الطفلة فى يده وعاد من نفس الطريق الذى سار فيه ليلة الامس ، متجها من اعالى المدينة فى الاحياء الجديدة ، عابرا شوارع وسط البلد ، فى هذه الساعة ، حيث تتسكع النسوة الريفيات امام فترينات المحلات ، والشبان المستغرقين فى المقاعد حول الموائد الشاغرة فى شرفات المقاهى ، وعلى ارائك الميدان جلست مجموعات المسنين فى معاطفهم البالية يرقبونهما هو والطفلة وقد سبقها بوجهه الاسمر الشبيه بمومياء الاينكا ، بلا اى تعبير ، ناقلا نظراته الداكنة على الفترينات ، والناس ، مكتفيا بهز رأسه سلبا كلما انحنى ليسألها ان كانت متعبة ، وتمد يدها من وقت لآخر لتضع فى فمها بواحدة من الحلوى التى تنتشلها من الكومة المتلاصقة الموجودة فى الكيس الذى كانت تمسكه باليد الاخرى ، ثم تعيد يدها الى يد مونتيس .
والآن توجد بعض النسوة منحنيات يغسلن على حافة مجرى الماء الذى يسير فى انحناءات متوالية وسط الحصى فى الضوء الساطع . ومرة ثانية ، وفى وضح النهار ، بدأت المدينة تتشكل من جديد ، لكن فى وضح النهار . المساكن ذات الحدائق الصغيرة ، محطات البنزين ، المقابر الآدمية الجديدة ، او مقابر السيارات ، مساحات شاسعة تناثرت عليها الهياكل الصدأة ، أو المقابر المشتراه بعد مطالعة الكتالوجات ، بلا شجرة سرو واحدة ، ذلك لأن عملية انبات شجرة تستغرق اضعاف الوقت اللازم لقطع وحفر طنا من الرخام ودفن احد الاموات تحته ، ونسيانه ، وفيما بين المقابر ، ومحطات البنزين ، والبيوت ، الارض النحيلة تبدو ، مجزأة ، ثم قطع اكثر اتساعا ، مسطحة ، ناشفة ، جافة ، مليئة بالحصى .

وتوقفا ، بالامس فى المساء ، حاول أن يتخيل احد الشوارع الموازية للطريق الاساسى ، على جانبيه مبان منخفضة : ليست حتى اكواخا ، ولاحتى خص صغير ، لكنها كانت مايشبه الجدار المصنوع من الطوب المجوف (ونفس الطوب لم يكن متساو ، ولم يتم حرقه تماما ، به ثغرات ، من تلك القوالب التى يجمعونها عن حافة قمائن حرق الطوب) بها فتحات فاغرة ليست ابوابا وانما نوع من التسويس ، ثقوب سوداء غير متساوية الشكل ، ومعظمها لاتغطيه الستائر ، وعندما اقترب المساء ، بدا الشارع الذى تم رصفه بطريقة رديئة يتألق فى الشمس ـ وقد قال لى فيما بعد ، بشىء من العبط والاندهاش ، ان الشارع كان يحمل لافتة عليها اسمه ، اى انه اداريا كان المفترض فيه انه شارع ، او على الاقل شىء من هذا القبيل وله اسم يمكنك كتابته ولو مزاحا على احد الجوابات ، ووضع طابع بريد ، ثم وضعه فى صندوق البريد ، لمجرد التأكد من وصوله ـ وبينما كان يتقدم فى سيره تبين ان ذلك التألق الشديد المؤلم للبصر كان نتيجة

ملايين قطع الزجاج ، وكان احد المزخرفين المجانين او العبط ، قد قام يجرش اكوام من الزجاجات ونثر كسرها بعناية ولا غاية له الا ان يحول شرذمة الاطفال الحفاه والعراه الذين يرمحون فى الهواء الى نساك هنود وهواه من بالعى السيوف ، وهنا ايضا كان الغسيل يتدلى على اسلاك معدنية بين مرينتين : خرق وردية ترتسم بشفافية على السماء الصفراء التى تشوبها الخضرة ، ثم ميدان مربع الشكل عند نهاية الطريق ، به ثلاث أو أربع عربات باهتة اللون ، وعجلات يبدو أنها نسيت السير على الطريق منذ مدة بعيدة ، وبعضها بلا عجلات ، مرفوعة على كومة من الطوب الاحمر او على روافع ، وجزء منها غارق فى الطمى او فى كوم زبالة ، وصناديق زجاجات او علب محفوظات صدأة .

ثم وجد نفسه مطروحا ارضا ، تماما مثل احدى هذه العربات ، على حد قوله وهو ضاحك : « كأننى كنت اتواجد هنا منذ زمن بعيد بما اننى فى بادىء الامر لم اتمكن من أن أتذكر ماالذى كنت افعله هنا .. » ، ممدد بطوله بين صناديق الزجاجات والبقايا ، بينما ارتفع من حوله مرسوما على السماء (مع الفارق الوحيد ان السماء لم تعد صفراء تشوبها الخضرة ، وان كان يذكر لك بوضوح منذ لحظات ، لكنها كانت ارجوانية اللون ، داكنة ، تميل الى السواد) ، يحيط به حاجز من السيقان الصغيرة العارية السمراء بين القمامة ، تعلوها بطون مستديرة لبنين وبنات لايرتدون سوى قمصان او مرايل لاتصل الى سرتهم ، يعلوها صف من الشعر الاشعث الذى لم يعرف المشط طريقا اليه يحده صف من العيون السوداء ، بياضها يشع ، ترقبه فى فضول وحيرة بينما كان يحاول ان يتذكر كيف وقع كل ذلك ، ولم يكن يتألم بعد ، محاولا الربط بين مختلف الصور التى بدأت تتكون تدريجيا : اولا الغجرى ، چب ، ذلك الذى كان الناس يلتفون حوله فيما مضى فى الحانات الراقية ، على حد قول روز ، ليتمكنوا من لمس كتفه وهم ينادونه «البطل» ، وهو جالس فى حليته الانيقة الناحلة ، لكن القميص كان دائما ناصع البياض ، كان يقف على عتبة سيارة قديمة منبهجة السقف ، اعيد طلاء بابيها ، سيارة لا تتعدى الاربعين حصانا ، يمكنها قطع ثلاثين كيلومترا فى الساعة على الطريق المعبد ، تدخن كالقطار ، تسحب خلفها عربة خشبية ، وبالداخل ، فوق المقاعد المزودة بارفف من الشبك ، حمولة باسرها من الأقنعة السود (نصف غارقة فى النفايات التى تغطى الأرض ، بينما استخدم احد دوافع الباب كدعامة لشد حبل غسيل) ، وبجوار چب جلس شخص أخر ، يدخن سيجارا من ذلك النوع الاسود القصير ، له نفس الوجه المخطط ، ونفس الاسنان الناصعة ، ونفس الشعر البارز خلف اذنيه ، وعلى المقعد الخلفى ، جلس شخص ثالث نموذج من نفس النوع ، وقد اسند رأسه على الشبكة ممسكا بجيتار ، يغنى بينما جلس على ساق الشخص الثانى طفل عارى الجسد تماما : « اتعرف ؟،

واحد من تلك الآلهة السود الصغار الذين يبدو عليهم وكأنهم وصلوا للتو من الهند أو من منطقة مماثلة ، خارجا لتوه من الفرن بواسطة آله أخر أعظم مكلف بان يصنعهم بقليل من الطمى ، وطهيهم بدقة ، بدرجة لون كعكة التوابل ، ممتلئين . ولأنهم كلهم بهذا الشكل . ولأنهم كلهم يرتدون الثياب الرثة ويسكنون تلك الجحور المسوسة المصنوعة من الطوب ويجرون طوال النهار عراه حفاه فوق كسر الزجاج ، الا انه لاينقصهم شيء ، على الاقل شيء مما يؤكل ، ولاشك لأن الثياب والسكن لابد من دفع ثمنها اما الباقى فيسقط عليهم من السماء ، مثل المن ، وان العمل الوحيد الذى يقوم به هؤلاء الاشخاص ، هو الانحناء لالتقاطه وربما لطبخه ، ففيما عدا النسوة اللاتى يبدو وكأنهن يمضين طيلة الوقت فى غسل الثياب وتنشير الغسيل ليجف ، فيبدو ان واحدا منهم لايحرك اصبعه الصغير لعمل اى شيء قد يجعله يعرق ، ولاشك ..

فقلت : أعلم . انا شخصيا لم افهم ابدا كيف يتصرفون لاشك ان الوضع كما تقول . المن . لابد انه شيء من هذا القبيل لكن ، مهما بدا ذلك محيرا ، فعلى مااعتقد ليس هذا الموضوع هو الذى طرحك ارضا بضربة يد ؟

ـ لا . بالطبع . ربما كانت ضربة اليد . اعنى ذلك هو ما طرحنى ارضا وليس اعنى انه لم يكن بوسعه الا يضربنى وربما لفعلت انا نفس الشيء لو كنت فى مكانه ان كنت رأيت شخصا يأتى الى هنا ويحاول ان يتحدث الى عما يتخيله المن او شيء من هذا القبيل .. »

ثم حكى لى بقية القصة ، او بمعنى ادق وصف لى ذلك التتابع ، ذلك التسلسل المتلاحق للصور المتداخلة ، المبرقشة ، المتنافرة ، والتى كانت تنتظم تدريجيا فى رأسه بينما كان الالم يستحوذ عليه وهو يحاول النهوض ، مترنحا كالسكران ، وما زال جمع الفضوليين الذين يسبهون كعك التوابل يرقبونه ببطونهم المتشابهة العارية المستديرة ، ونفس افرازاتهم الانفية وشعرهم الذى لم يعرف المشط طريقا اليه ، يرتسمون كالقنافذ على سماء الغسق : ومرة ثانية تألق صف الاسنان الناصعة فى وجه الملاكم وهو يلمح تريزا ، ثم استشاط نفس الوجه غضبا وهو يتبينه ، مونتيس ، خلف الفتاة ، وعندئذ ، وبلا مقدمات ، الجسد الذى كان ممددا فى اللحظة السابقة ، ملقى فى وضعه المتراخى ، نهض ، قفزا ، (ولم يتبين مونتيس اللطمة من فرط سرعتها) أسود ، سريع (أى ما ان اسودت الدنيا) الذى تلقاه فى وجهه ، وانتهى ، ثم وجد نفسه ارضا ، والآن كان ينفض التراب من على ثيابه مجاهدا ، وقد استطاع الوقوف ثم حاول أن يفعل نفس الشيء بافكاره .

وفيما حوله ، بعد دائرة الغلمان ، كان يمكنه تبين النسوة وهن يغدون فى اشغال المساء ، يمررن حوله دون ان يلمحنه ، دون ان يحدن برءوسهن ، ودون

حتى ان يعرفن انه موجود وارتفع خطان من الدخان ببطء وسط المساء القانى . مستقيمان . هادئان ، متوازيان فى السماء الملتهبة بينما كانت ألسنة اللهب ترتفع فى العتمة .

بحث عن تريزا بعينيه لكنه لم يجدها . ولم يجد چب ، ولاحتى السيارة المنبعجة السقف التى كانت غارقة منذ لحظات فى كومة من النفايات وقد استخدم جانب منها لشد حبل غسيل فقال لى : « لأنهم نجحوا فى تحريكها كنت قد تخيلت انها ثابتة فى مكانها يملأونها بالاشياء وكأنهم يعلفونها حتى تمتلىء وتتسع ويزودونها بمدخنة ثم » تقطن بها قبيلة بأسرها ، لكنهم استطاعوا تحريكها » ولم يدرك الا بعد لحظة انه لم ير حتى الآن واحدا من الرجال . فى بادئى الامر تخيل انهم ذهبوا جميعا متعلقين على تلك السيارة ذات الاربعين حصانا ، حاملين چب فى نوع من التألية ، النصر القديم ، وشرذمة الفجر تصيح وتجرى على الطريق وخلفهم تلك السيارة المنبعجة القديمة وبداخلها ، جلس البطل على الوسائد منتظرا . ثم أدرك .

بدأ يسير . ابتعد الاطفال من حوله فى صمت عبر الميدان ، وبدأ السير فى الشارع وقد تبعه لفيف العراه وذوى الشعر الاشعث . ثم تفرق عنه أخر صبى ، اتجه الى الطريق ناحية النار المشعلة ، باقدامه الحافية واصابعها المرتفعة فى الهواء ليجرى فى التراب بلا ضوضاء .

وبعد قليل لمحها ، ثابتة ، تقف عند نهاية الطريق ، مستقيمة تمسك فى يدها بكيس الحلوى ، وفى لحظة لمح عيناها البراقتان تنظران اليه وهو يقترب ، عينان سوداوان ، عميقتان ، غامضتان ، ثم لم تعد الا ظلا نحيلا هشا فى الغسق بينما حاول هو ان يتحدث اليها ، منحنحا صوته : «انت .. كنت .. تركتيد .. » ، واحتبس صوته من جديد ، تلاشى ، رفض اجتياز الحلق ودون ان تجيبه الفتاة استدارت وبدأت تسير ناحية الضاحية ، دون ان تنتظره ، ثم اتجه الاثنان معا دون ان ينبت بكلمة ، الى ان وصلا الى المدينة ، وعندما اقتربا من الحى القديم توقف قائلا : « اعتقد .. اى انه : اعتقد اننى لن اعود فورا . هل تعرفين .. اى : الآن اعتقد انه بوسعك ان تعودى الى الفندق بمفردك ، اننى ... » ، كانت الفتاة على بعد عدة امتار منه تنظر اليه بينما راح هو يواصل القول : « اذن ، اسرعى » ، ولم تتحرك فقال : « اسمعى ، قولى لوالدتك اننى لن اعود للعشاء ، واننى سأراها غدا . انك .. اقصد : لاداعى لتقولى لها كل ماحدث ، اتفهمين ؟ فلم يحدث شىء . لم يكن يقصد .. اى انه اراد .. كان مزاحا .. أليس .. » ثم سكت ، رجع الى الخلف ، محاولا سحب يده من يد الطفلة وقد انحنت على يده ، ثم شعر بشفتيها ، لمسه خاطفة ، كلسعة عابرة على ظهر يده ، وتركته فى نفس اللحظة ، وراحت تعدو .

لم يقل لى ماهو نوع الافكار التى راح يلوكها طوال الثلاث ساعات التى قضاها جالسا على الاريكة فى الميدان قبل ان يعود الى الفندق . عموما انها من تلك الاشياء التى حتى شخص مثله لايحب البوح بها للآخرين . بل يمكن جدلا ان يحكى بلا خجل ان شخص ما قد اطاح به ارضا ، لكنه من الصعب ، حتى وان كان قديسا ، ان يبوح بما دار فى ذهنه فى الساعات التالية . يمكن اذن ان نتخيل انه ظل هناك طوال ذلك الوقت ، جالسا فى اكثر الاركان ظلاما التى امكنه العثور عليها ، يتحسس فكه بينما يقلب افكاره غير السعيدة بصفة خاصة . ويمكن تخيله ايضا مثله مثل اى رجل فى نفس هذا الموقف يعانى صعوبة ما فى مواصلة التفكير المنطقى ، لا لأنه شعر فى هذه اللحظة بغضب وكره تجاه جب ، وانما وفقا لما قاله فيما بعد (" لان ذلك كان كل ما يمكنه عمله ، او كل ما علموه له : يضرب ويهرب كنت عبيطا : لقد ذهبت لمقابلته هكذا .. بلا سابق انذار ، فاعتقد اننى من رجال البوليس . لقد شاهدنى اصل الفندق بعد فترة وجيزه من قيامه بهذه السرقة ، ولاشك انه لمحنى ايضا فى صالة التدريب ، وعندئذ تخيل ... اصغ : ان الحل الوحيد بالنسبة له فى المواقف الصعبة ، كأن يضبطه احد فى منتصف الليل فى غرفة خادمة او ان ... ـ فقلت فى نفسى ، وهكذا ، كان هو اذن . لم تقل لى انك تعرف هذه القصة ايضا . ترى هل روز .. ـ ما علينا . تخيل الموقف : هؤلاء النسوة المرتديات جاكتات الرجال الشديده الوسع بالنسبة لهن ، والتى تصل اكمامها حتى اطراف اصابعهن ، وكل هؤلاء الاطفال أنصاف العراة مثلما كان هو واحدا منهم ، ثم انه من كثرة ما اعطى واخذ من اللكمات نجح فى ... ـ فقلت فى نفسى : اخذ . لقد كان مشهورا وهو فى اوج مجده انه بارعا فى الافلات ـ . وما علينا ، اود ان اقول : لقد وصل بفضل اللكمات التى كان يعطيها .. ـ وقلت : انه لايود حقا ان يغير هذا الموضوع . مثله مثل اولئك الذين لا يكفون عن عزف الجيتار مع مراعاه الا يتصببون عرقا من كثرة العزف ولايمكن لومهم على ذلك . لكن لا تتخيل اننى ... ـ اننى لا اتخيل شيئا . على الاقل احاول الا اتخيل اى شىء . الا ان كل الذى تعلمه فى حياته من قبل ، هو توجيه اللكمات ـ . وان يبدأ بالضرب ، بلا مقدمات ، وباقوى ما يمكن . أعتقد انك ادركت ذلك ؟ ») ، اى انه

لم يشعر بالغضب او بالكراهية . لكن لان اللكمات هى اللكمات وان لحم الانسان . سواء اراد او لم يرد . يتألم ، ويظل واهنا ، مثيرا للشفقة ثائرا . وحينما قرر العودة ، تذكر انه من المعتاد ان يمضى المرء نائما ، او على الاقل ممددا ، داخل مربع ما (يتقلب ، يجبر جسمه المهان على الحركة ، والا سيجدونه فى الصباح الباكر مازال جالسا فوق الاريكه ، مثل خيال المآتة ، الذى لم تعد حتى الطيور تهابه بل ويأتون وهم يزقزقون ويتزاحمون للوقوف فوقه : وقال لى فيما بعد « حتى ذلك ليس بالامر السيىء ، فإذا ما تأملنا الموضوع من كافه نواحيه . فلا بأس من ان يكون للمرء ولو فائدة خيال المآتة للعصافير الصغيرة او حتى كورة تدريب ، أليس كذلك ؟ ») ، على اية حال كان الوقت قد تأخر بحيث كان شبه متأكدا من ان روز قد فرغت من خدمتها وانه لم يكن من المحتمل لقائها .

وفى طريق العودة ، يبدو لى انه لمح ما يلى : اللمبة المائلة الى الاصفرار والوحيدة التى تضيء المدخل اسفل السلم ، وهى تعكس على الحائط فى أن واحد خيال درابزين السلم وخيال مونتيس الممشوق المضحك وهو يرتفع على الدرجات ، فيزداد طول الظل بشكل ساخر ، منحنى ، كأنه معينات متداخله ، ولاصوت أخر فى سكون الليل سوى انين الدرجات ، وربما الصوت القصير المميز لتنفسه ، دخول الهواء بصعوبة عبر فتحات انفه المسدود بالتجلطات ، وربما ايضا ، تبادرت من الخارج اولى هبات الريح وهى تمر بحفيفها المتقطع الحريرى فوق الجمالون ، وتستكين الريح السوداء ، تتردد ، وتخفق تحت ثقلها فى انات طويلة عبر المراين المتعبة ..

وفى الطابق الاعلى ، فى الطرقة الغارقة فى الظلام ، وقف الآخر يرتجف فى بيجامته النحيله (قفز فجأة من الفراش فى اللحظة السابقة عند سماعه صوت باب المدخل ، قفز بخفة القط المتوثب ، اطفأ نور غرفته ، وجرى دون حتى ان يتمكن من انتعال شبشبه ، والأن) انحنى ، كتم انفاسه ، يتراجع الى الوراء كلما امتد ذلك الظل غير المستوى على الحائط ليواصل صعوده وحيدا بشيء من الحزن والتصلط البطيء ، العناد ، المأساوى . ثم حينما وصل الى الطابق الاول ، استدار فجأة ، واصبح فى امكان موريس الأن ان يراه وجها لوجه ، مضاء من اسفل مثل الممثل بضوء الدرابزين ، وقد ارتسم عليه الخطان الاسودان المنسابان من انفه . وقال موريس فى ذهنه : « أهلا : المهرج يلعب الملاكمة . عجبا ! ان الضربة كانت قاسية . عجبا ! اننى لأتساءل ... » ، ثم تمالك ، واسرع الى غرفته بعدة خطوات سريعة ، واغلق الباب ، بنفس حرص القط الحذر ، وظل غير عابيء بالرجفات التى تهز كيانه داخل البيجامة النحيلة ، ظل ساكنا ، ينصت اذنه ملتصقة بالفاصل الخشبى بينما صوت الخطوات وهى تصعد أخر الدرجات يقترب ، يمر بالطرقة بالقرب منه ، يتوقف قليلا عن بعد ، صوت . مفتاح يتحسس

فى الظلام . ثم صوت الباب وهو يغلق ، ثم لاشىء . بينما اسرع موريس وهو يرتجف واضاء النور ، ارتدى الروب دى شامبر القديم الملقى على الارض قرب السرير ، وانتعل شبشبه المصنوع من الجلد البالى ، وعقد ايشارب حول عنقه وانسل ثانية بلا صوت فى الدهليز .

ولاشك انه تمكن من تصفيف شعره قبل ان يطرق الباب ، على حد قول مونتيس فيما بعد ، لانه بدا له فى فتحه الباب كشخص خرج توه من عند الحلاق وليس من الفراش ، كما كان قد ظل يرقب ما يدور فى الغرفة وهو ينظر من ثقب الباب حوالى عشرة دقائق قبل ان يطرقه . وذلك ما ادركه مونتيس وقاله لى فيما بعد لان الصوت راح يرتجل آليا ، وكانه لايدرك (او كان صاحب الصوت لايهتم بان يعبأ الصوت) شىء من الابهام ، عبارة من تلك العبارات التى لا يلتفت اليها قائلها ولا سامعها ، عبارات لا معنى لها ، الا ان كانت ارادية معتمدة على الشكل غير المكترث ، كنوع من آداب المجاملة ، شىء من الوقاحة الارادية ، الخالية من الخجل ، معناها اجمالا : « هل انت مريض ؟ اعتقدت .. لقد خيل الى انك تئن ... » ، فقاطعه مونتيس : « أئن ؟ » ، ويستمر موريس فى تامل محتويات الغرفة ، وقد لمح الفوطه الملطخة بالاحمر على حافه الحوض ، ومازالت المياه تنساب من الصنبور ، وعلى المعطف بعض البقع ، فقال :

« لكن ، ما الذى حدث ؟ هل اصبت فى حادث ؟ » وجاهد مونتيس ليحافظ على فتحه الباب المواربة ضد الضغط الصبور المتواصل للزائر : « لا شىء . اشكرك اعتذر عن ازعاجك . تصبح على خير . اننى » . ثم قال لى مونتيس فيما بعد (لم يكن الامر ان موريس نجح فى توسيع فتحه الباب لكن كان من الصعب تخيل ان يتمكن رجلا بالغا من التسلل داخلا من فتحة بهذا الضيق) واضطر الى ان يستدير ليراه بما انه لم يعد واقفا فى الردهة ، وانما فى منتصف الغرفة الضيقة داخل الروب دى شامبر الطموح البالى البنفسجى اللون ، والكوفيه الرشيقة ، وشعره المصفف ، واخرج من جيبه علبة سجائر ، ومدها ، ثم لم ينتظر حتى رفض ضيفه ، وانما سحب سيجارة ووضعها فى فمة واشعلها ، ثم قال وهو يسحب نفسا طويلا او قال وسط الدخان بينما يده الاخرى تشير الى الملابس الملطخة بالدماء : « كان يجدر بك ان تستدعينى ، اننى .. »

– اصغ ، وبدأ مونتيس (هذه المرة كان قد فتح الباب بوسعه وارتجف صوته من الغضب) اننى ، .. » ثم شعر ثانية بشىء دافىء حلو المذاق ينساب بطول شفته العليا وظهرت فجأة بقعة حمراء فوق قميصه . اتجه ناحية الحوض ، بلل طرف الفوطة وانحنى . وحينما استدار ، ممسكا بالفوطة تحت انفه ، كان الباب مغلقا وموريس جالسا على سريره ، وسيقانه مدلاه ، ينظر اليه بلا اى حياء .
« عجبا ! لن ادهش ان كان انفك مكسورا . ! ألذلك كنت تتنفس كعجل البحر وانت

تصعد السلم ؟ » . ثم نهض ، ألقى بسيجارته التى ما كاد يجذب منها نفسا واحداً فى سلة المهملات ، نفث الدخان من فتحتى انفه وقال بغظاظة : « انه البطل الذى جعلك هكذا ؟ »

وتمتم مونتيس : « الـ .. » . تلعثم ، تهته . وتغير صوته فجأة بينما احمر وجهه بحدة : « اصغ ، لا اسمح لك .. » ، كان يصرخ تقريبا . لم ينه جملته ، توقف فزعا ، خجولا ، ظل واقفا ، والفوطه فى طرف يده التى تشير بحماس ناحية الباب ظل واقفا تحت ضوء اللمبه الساطع بشكله الحزين المهان ، وقميصه المفتوح الذى يكشف عن صدر نحيل ، خالى الشعر ، غريب البياض ، بينما تعلقت قطرة دم على حافه شفته العليا الملطخة .

وقال موريس : « ستوقظ الناس » . كان الصوت محايدا ، غير ذاتى ، مجرد تقرير واقع . ثم تغير ـ بدون سخرية ، وانما بضيق ، وان كان بلا خشونة ـ ليقول : « لو تخيلت انك ستوقف الدماء بهذا الصراخ » . وفى نفس اللحظة نهض فى قفزة قائلا : « انتظر سأ .. اعرف ما يجب عمله ... » ثم اضاف : « هيا .. لاتكن عبيطا ! » ، وبينما كان مونتيس يحاول التخلص منه ، ويحاول ، بقدر الامكان ، دون ان يكف عن وضع الفوطة المبللة تحت انفه وينبعث صوته من تحتها باحتجاج مرتبك عنيف . متراجعا امام اليدان اللتان تبحثان عنه ، الى ان لامس خلف ركبتاه حافه السرير ، فاختل توازن سيقانه ووقع جالسا تقريبا فى المكان الذى اخلاه ضيفه ، لكن ما هى الا لحظة حتى داخ واختل توازنه وانكفأ الى الخلف بينما ارتفعت ساقيه من على الارض وقد امسك بهما ضيفه بعنف ، وفى نفس اللحظة وجد نفسه ممددا ، وقد ابهره الضوء المنبعث من اللمبه الكهربائية والمعلقة فوقه كعين شائكة وامامه ارتسم صدر موريس ورأسه المنحنى عليه ، وكأنه مقصوص من ورق كرتون داكن ، وفى نفس اللحظة سمع الصوت وهو يسقط عليه من عال ، كأن احد الميكروفونات المعلقة اعلى السارى فى الملاعب الرياضية يتقيأ ، راعدا ، إلهيا وآمرا : « احسنت صنعا ! لا تتحرك ، يجب ان تظل ساكنا ، انها افضل وسيله لكى ... »

وكف عن الصراع . فعلى حد قوله : « ان الشيء الوحيد الذى لا يمكن مقاومته هو الصوت ، خاصة عندما يستخدم كالمبيد الحشرى . فظللت بلا حراك ، مغلوبا على امرى . اتساءل عما عساه يريده منى ، وانا ارقبه يروح ويغدو فى ذلك الروب دى شامبر الانيق البالى ، وكوفيته الحريرية حول عنقه مقلدا تلك الصور الفوتوغرافية التى يراها فى المجلات للرجال ذوى الأناقة او الكتاب المشهورين فى منازلهم . وكل ما كنت اتمناه هو ان يكف الدم عن الانسياب لكى اتمكن من النهوض واخراجه من الغرفة . لكن حاليا كان ينساب . كنت مجهدا ، خائر القوى

لعلك تدرك ، كان الضغط كثيرا . لقد فعلت ورأيت الكثير طوال ذلك اليوم والان كنت فى تلك الحالة التى يتحمل فيها المرء اى شىء فى سبيل الا يقوم بأى حركة ولا بأى جهد . لقد تغلب على بأن نجح فى اجبارى على الاسترخاء . ولاشك انه كان يعلم ذلك ، وكان يعلم ان الفرصة سانحة لينتهزها ، لكن كل ما استطعت عمله هو ان اظل بلا حراك لأطول فترة ممكنة أملا فى ان انسياب الدم سيتوقف مثلما قالى لى . اذن ، تركته يتحدث . وحتى اليوم مازلت اتساءل ان لم يكن كل ما كان يرمى اليه فى ذلك المساء الا الرغبة فى الكلام ، او انه كان يعانى من الارق او اى شىء من هذا القبيل ، وانه استغل اول فرصة حينما سمعنى عائدا من الخارج على اى حال ، ذلك هو مانجح فى ان يوهمنى به ، وربما كان صحيحا الى حد ما مثل اولئك الاشخاص الذين يعرفون جيدا انه حينما يتعامل مع امرأة يب ان يتحاشى الحديث عن الشىء الوحيد الذى يعنيهم ولماذا هو معها ولايلعب البلياردو او يثرثر مع رفاقه ، او مثل الذين يختلقون التوافه التى لاتعنيهم ويصدقونها . لابد وان يكون فى الامر شىء من هذا القبيل ، والا فكيف نفسر كل ما يحكيه الرجل لامرأة ما ، قبل ان تقرر منحه ما ؟ ..

فقلت ـ : مهلا .. يبدو انك تعلم عن هذا الموضوع اكثر مما يبدو عليك ..

ـ ليس من الصعب تخيل ذلك .. (كنت ارقبه خفيه ، لكنه لم يهتز ، لم يرجف ، بل يبد عليه انه تفوه بآخر ما يمكن ان نتوقعه منه . وقلت فى نفسى « لكن ، لاشك انه بمقدوره ان يحكى قصة اباحية يحمر لها البدن خجلا بنفس هذه اللهجة غير المكترثة التى يمكنه ان يتحدث بها عن افضل عدسة يمكن تصوير السماء العاصفة بها ، او مغامرات بطل احدى الرسوم المتحركة ، أو آخر معركة لمجلس البلدية ، بشأن موقع مبولة عامة قرأ عنها فى باب الاخبار المحلية بالجريدة . لكنه كان يواصل الحديث :) الا انه كان فى غاية اللؤم ..

فقلت ـ : من تقصد ؟

ـ هو ، موريس . لان صوته فى هذه اللحظة كان يشوبه بعض النواح ، شىء يثير الشفقة ، بينما كان يحدثنى عن تلك العمة العجوز التى كانت توقف نزيف انفه حينما كان صغيرا ، كما تحدث عن طفولته ، وعن قصرهم الريفى التاريخى القديم فى بريتانى ، وبعد ذلك .. نعم ، ربما كان شديد اللؤم ، ومع ذلك ..

فقلت ـ : الناس ليسوا بسطاء . لكن بصفة عامة ، انهم ليسوا بارعين فى اللؤم الا حينما لا يتعمدونه ، ولا بارعين فى الغباء الا حينما يتعمدون الذكاء » . وخيل الى اننى اراهما ، الاثنان بداخل تلك الغرفة فى منتصف الليل ـ لابد وان الليل كان قد انتصف فى تلك اللحظة ـ وفى الخارج كانت نوبات الريح المتقطعة تعصف بالجدران ، وبالضوء الشاحب للمبة ، بينما راح الآخر ، ملك الموضة الذى نزل عليه التخفيض ، يسير فى الثلاثة امتار من البلاط العارى الموجود بين

الدولاب والسرير وحدقتا مونتيس تتابعانه جيئة وذهابا ، وقد اعتلت نظراته شيء من الاهانة والاحباط المرتسم على ذلك الجزء الذى يعلو الفوطة التى مازالت اليد النحيلة تضغط بها ، وفيما بعد ايضا ـ لابد وانها كانت النافذة الوحيدة المضاءة ، كأنها رفض ما ، او دليل أخير على استمرار الحياة ، مثل التأكيد المتعالى الذى لايقهر لضمير لايقهر بين الضمائر الطيعة النائمة ، والاموات الطيعة ليلا ـ ان هذه المحادثة ، والحوار المذهل الذى قاله لى مونتيس (لأن الشخص الآخر كان قد حقق اغراضه ـ ومن يمكنه ان يتبينها ، أو يعرفها ، او حتى ان كان هو ذاته يعرفها ؟ ـ فعلى الاقل وصل الى الآتى : ان مونتيس قد تحمله ، اقره ، على الاقل لدرجة ان يتحمل الاستماع اليه وان يجيبه ، ثم جلسا الاثنان على حافة السرير ، موريس يقوم من وقت لأخر ، يأخذ منه الفوطه عنوه ، يذهب الى الحوض يشطفها ويعيدها مبللة بالمياه الباردة ، ثم يواصل الحوار من نفس النقطة التى توقف عندها فى اللحظة السابقة قائلا) :

« ذلك الوغد ، لكنهم كلهم اوغاد هنا . سيقولون لك انه غجرى لكن الآخرين وهؤلاء النسوة اللاتى لايستطعن قول اية كلمة بلا صراخ يخيل لمن يسمعهن انهن دائمات الشجار والسب او يهاجمن جزء من تراجيديا يونانية وهن يلعن حياة الألهة أو القدر فى حين انهن فى الواقع ينادون اطفالهن لتناول الحساء او يقصصن على جاراتهن الثمن الذى دفعنه فى الفاصوليا الخضراء صباح ذلك اليوم فى السوق .. » ، وقال مونتيس : « اكرر لك اننى وقعت بينما كنت تنزل السلم .. » ، وهو : « نعم ، لكننى اعتقدت فى بادىء الامر ان شخص مثله قادر على .. لكن اعتقد انك واثق من اننى لم افكر فى انك من ذلك النوع الذى يتشاجر فى الشارع مع اول من ... » ، وقال مونتيس : « حمدا .. لقد توقف النزف واعتقد اننى سأستطيع .. » ، وهو : « لا ، اصغ ، يجب ان تظل فتره فى هذا الوضع بلا حراك والاسيعاودك النزف اصغ اننى صديقك وسبق ان قلت لك لكنك لا تصدقنى لا اعرف ما الذى قالوه لك عنى انك مخطىء فى عدم تصديقى منذ المرة الاولى التى رأيتك شعرت انك لست مثل الآخرين الذين اعتدنا رؤيتهم هنا فى مثل هذا الفندق الحقير و ... » وضحك مونتيس قائلا : « تعلم ان سعره تقريبا اكثر مما يمكننى دفعه .. » ، وهو : « لكنها ليست مسألة نقود انك اقصد انهم هنا لا يفكرون الا فى هذا ولا يعرفون سواها وكل هؤلاء المتسكعون هنا الذين يلهثون خلف الدراهم مثلهم مثل المفلسين الذين لديهم الكثير ولا يعرفون اين ينفقونه وكلهم مستعدون لعمل اى شىء بغيه الحصول على المزيد ، واكثر منهم النسوة اللائى يبعن انفسهن ، والرجال ايضا ، اى شىء بما فى ذلك القتل ياالهى ! النقود ان اردت لكفانى ان .. لكننى افضل الصمت .. » ، وقال مونتيس : ما الذى تعنيه ؟ » وقال موريس : « لا شىء اننى لست من ذلك النوع ان كل ذلك

الموضوع المقزز انها خسيسة لكن لا لن انساق ، ان والدى ، لاتتخيل اننى اتصور نفسى ابن جنرال ، اننى اعرف الكثير عنهم لكى انساق فى تخيلات من ذلك النوع ومع ذلك ان والدى ... » ، وقال مونتيس : « لكن عما تتحدث ؟ » فقال : « اتحدث ما على الا ان افتح فمى لكى .. لكن مثل هذه الامور قد لاتعنيك .. ان الذين مثلك ومثلى ... » ونظر اليه مونتيس ، مندهشا الآن ، وكأنه يراه لأول مرة ، هنا يستعرض نفسه فى زيه المضحك الطموح (لكن ، للآن على الاقل ، لم يكن لذلك اية اهمية ، على حد قوله لى فيما بعد : فلا شك انه لم يكن بوسعه ان يستغنى ، ان يمنع نفسه ، مثلما لا يستطيع الا يلقى بنظرة خاطفة فى المرأة ليعدل من ربطه عنقه قبل ان يدخل فى اى مكان او قبل ان يوجه الكلام لاى شخص ، لفتاة او لأحد الزبائن الذين يلقاهم ليعرض عليهم ماركة سماده المزعوم) ، ووجهه المثلث الضيق فوق الايشارب ، شاحب فى اضاءة شاحبة ، وشعره الباهت ، وتلك النظرة التعيسة ، المكتئبة ، التى تعلو ملامحه حاليا ، خليط من الحيوية ، والحزن يتوسل وكأنه يستجدى ، يطلب شىء ما . وفكر مونتيس فى نفسه : « شىء لا أعطيه له نقدا » . ثم فكر ثانية : « اول مرة تصورت انه يريد ان يبيع لى شىء ما ، وربما ، بل وبكل تأكيد ، فى هذه الساعة ايضا حينما انتظرنى على بسطة السلم ، واقحم نفسه هنا بغيه شىء من هذا القبيل ، وقبل ان ينصرف سيعود الى موضوعه . لكن الآن لم يعد يفكر فيه ، وان كان جليا انه يود الحصول على شىء ما منى ، لكن من نوع أخر » . وتساءل ثانية : « ترى ماذا ؟ » وراح يفكر بشىء من الاندهاش ، او الحرص تقريبا . وكله رغبه فى ان يشيح بوجهه شفقة وحياء » اكثر منه ادبا ، وكأنه شاهد رغم انفه على مشهد لايجب النظر اليه : « انه تعس . يتألم . ترى مما ؟ » ، بينما كان ينصت الى الآخر وهو مستمر فى الحديث ، غير عابىء بالساعة ، يخلط التراجيديا اليونانية ، ومغزاها الخفى المبهم غير المفهوم ، ووالده الجنرال ، بصوت يشوبه البكاء ، والحماس ، والحدة على التوالى ، ثم يعود الى طبيعته ، يبوح بمكنونات نفسه ، وكأنهما يتحدثان ندا لند ، فى لهجة محادثة اجتماعية بين شخصين من نفس المستوى الاجتماعى يفهمان بعضهما تلميحا ، ضلا خطأ فى مكان ، فى مكان لا يليق بكل منهما .

كان يبدو وكأنه يعتبر ان مجرد اقامته فى هذا الحى اهانة ، والنزول فى هذا الفندق اهانة له كمندوب رسمى للأسمدة . كان ذلك الوضع يثير فى نفسه ما يشبه الحنق ، مرارة لا يمكن الخلاص منها ، وان تظاهر ليبدو اعلى من هذه المضايقات ان يتجاهلها ، كما جاهد ليتجاهل البقع التى على الروب دى شامبر المزعوم الذى يرتديه ، كما كان حليا انه يتجاهل السعر الباهظ لسجائر الطباق الاشقر التى كان يدخنها واحدة تلو الاخرى ، وهو يمسكها بعدم اكتراث بين السبابه والأوسط ، ثم

يقذف بها واحدة تلو الاخرى فى سلة المهملات حيث كانت تنطفىء بعد ومضه قصيرة .

وفيما بعد ايضا ، ربما حوالى الساعة الواحدة صباحا : فى هذه اللحظة كان هو واقفا ومونتيس مازال جالسا ، لم يعد يمرر الفوطة تحت انفه الا على فترات متباعدة بحركة آلية ، من باب الاحتياط ، لان النزف قد توقف تماما ، كان من الانهاك والتعب حاليا ، بحيث خيل اليه انه يسبح او بمعنى ادق يطفو بين مسطحين من المياه ، كانت الغرفة تبدو له اشبه ما تكون بحوض سمك تشوبه الخضرة الزرقاء يشتق ببطء عبر مساحة شاسعة من الزمن الاسود ، فى لانهائية تسبح فيها لفحات الريح الاسود اللامعقولة والعشوائية ؤ مجرد فراغ ، وعنف وهرجلة ـ فى حين ظلاهما الاثنان هو وموريس ، بنفس سحنتهما المصنوعة من الورق لأشخاص كأضغاف الاحلام ، تذكره بسمكتين ميتتين ومع ذلك مستمرتان فى ادعاء الحياة رغم بطنهما المنتفخة . (« فلقد كان متعبا مثلى . وان لم يكن لنفس الاسباب ، لكن الامر سيان ») ، وظل مونتيس يمسح انفه آليا كالعبيط بينما ظل الآخر يشرح له (كان قد استعاد ثقته وعاد صوته الى تلك النبرة المتعالية ، الطنانة المزدردة ، وبينما كان مونتيس يسمع ما يحكيه ادرك أنه يعود الى الموضوع الذى يشغله) ، اخذ يشرح له ان ذلك البحر الابيض المتوسط ، تلك البحيرة ، هذا المستنقع ، هذه البركة ، لابد وان يكون قد تعب من استخدامه كبالوعة ، بالوعة لجمع التاريخ ، وقد امتلأ منذ الفى سنة عندما كانت اقدم شعوب العالم تلقى فيه بمخلفاتها ، لدرجة ان رائحته بدأت تفوح اكثر من اللازم ولاشك ان التاريخ كان يأتى هنا كل مرة ليغسل غسيله القذر ـ تلك كانت الكلمة ـ بين تعداده النتن المكون من شعوب قديمة استقرت هنا ، فيما حوله ، فى الصف الاول فى اماكن الحلبة (نابوليتان ، مشرقيون ، غجر ، يونان ، كاتالان ، مالطيون) يعدون الضربات ويصنعون نفس جيوب الاشخاص القادمين من تكساس او ابعد منها عابرين المحيط ، وغيرهم ممن عبروا القارة ، ليأتوا (التاريخ يزج بهم فى هذا المستنفع حيث يعود اليه منذ خليقة العالم مثلما يعاود القلب تقيؤاته) يتخبط ويفرغ جوفه فى بحر كل الناس وكل الآلهة ، بما ان شعوبها المرتزقة الساحلية قد اخترعت طاقما كاملا من الآلهة لارضاء كافة الازواق كمعدات للتصوير مثلما تفعل . بسجاد أزمير وتماثيل الرعاة المصنوعة من رخام كاراره فاخترعوا ابتدأ من الآلهات الزانيات حتى انبياء الصحراء السود المنعزلين . وما أن وصل الى هنا ، حتى توقف الصوت ، لفترة وجيزة ، بينما راح يلقى بنظرة خاطفة ناحية مونتيس ، يترقبه ، متحينا ولاشك توقيت الوثبة ، رد الفعل ، التكذيب الاهانة ، ولعله قد وصل الأن الى هذه المرحلة : مرحلة الاغتصاب ، والاعتداء ، فى تلك المحاولة النهمة للشىء الوحيد الذى لم يكن

مونتيس يستطيع ان يظهره له ، لا من حيث الرفض فى حد ذاته ، او شىء ما من هذا القبيل ، ان كان فى مقدوره ان يعبر له عن ذلك ـ وهو الذى لما تأخر فى رفض لمسه عطف لكلب حتى وان كان جربانا ـ ولكن لانه لم يكن فى مقدوره ، وذلك لانه حتى وان عرف الاسم ـ مثلما يعلم المرء من الكتب عن وجود المجرات ، ورِوكفلر والفيروس ـ الا انه كان يجهله تماما ، ولايعبأ به ، بل ولا يعبأ بعدم اكتراثه ، من اى شخص كان ، سواء كان رجلا او امرأة ، ولابما يمكنه ان يفكر فيه . وبينما راح يواصل سرد ذلك الموقف كان يبدو لى اننى اعيشها الأن اكثر منه ، او على الاقل كان بمقدورى اعادة تكوين شكل اجمالى لها اقرب ما يكون الى حاجتنا التى لا تكل عن ضرورة المنطق ان لم تكن مطابقة تماما لما حدث ، وفكرت : ياله من غشاش ، ياله من مسكين ، واحد من تلك النفايات التى تخلفها كل الحروب والتى يعد الاموات سعداء الحظ بالمقاونة بهم ، انسان مسقط ـ على الاقل فيما اعتقده ـ سقط من مركزه ، شديد الزكاء لكى لا يحتقر نفسه وهو يشعر بذلك الخجل ، وليس من الذكاء الكافى ليصل الى عدم الاكتراث هذا ، اذن . فقد كان يعانى ، تنهشه تلك الرغبة ، ذلك التعطش العنيف الى التقدير بأى ثمن ، وفى نظرى (ان حصل عليه) لتخلى عن مؤامراته الحقيرة ، ولما تمادى بهذا الشكل فى مخططاته الجهنمية القبيحة التى لم يتوقف عن تنفيذها الا يأسا فى تحقيقها . لان ، هذا التقدير ، قد اصبح بالنسبة له الآن اكثر اهمية من الطعام او حتى من النقود واذا ما كان اخيرا قد اختار طريق النقود فقد لجأ اليه مثلما يلجأ المرء الى اختيار السبيل الوحيد المتبقى : ليس كهدف ، او غاية ، وانما الوسيلة الاخيرة للحصول على مالم يمكنه التوصل اليه من اعتراف منه ـ بما ان كل شىء يشترى ـ حتى وان استعان بالتعب والنعاس ، لانسان لعله الوحيد الذى لايمتلك تلك البضاعة ؛ فياله من احمق لاختياره هذا الشخص دونا عن بقية الناس ، وربما لا ، ليس تماما على العكس فهو حساس ما فيه الكفاية ليقدر المحاولة (اذا ما نجحت) ، وهو اذا ما حصل عما يبحث عنه من مونتيس الذى تعد المحاولة معه قمة الصعوبة ، فإنه سيمكنه الحصول على نفس المعلومات بسهولة فيما بعد من اى شخص ، (لم يكن واثقا : وانما مجرد محاولة) ، فاستعان بكل مهاراته على التوالى (بما فى ذلك الصدق الحقيقى وليس المزعوم : فعبر عن ضيقه الحقيقى ، وعن اضطرابه الحقيقى) ولجأ الى كافة الاساليب ، التحايل ، التناوب فى اللهجة ، الصخب ، الوقاحة ، ثم عاد الى التباكى ، والاحتجاج ، ثم الى عدم الاكتراث ، والتلاعب الماكر ، ووصل الآن الى آخر امكانياته : الفضيحة ، الاعتداء المعنوى ، اذ قال بعد طول انتظار : « لكن لا تتصور اننى اعلن عن الحاد ما ، حاشا لله .. » ، وانتظر ثانية ، تردد نصف ثانية ، وهذه المرة كان مونتيس قد اضطرب ، رفع رأسه ، ينظر اليه بعينيه المندهشتين ، الحزينتين كشخص استيقظ فزعا ،

مبهورا من الضوء العارى ، مذهولا وهو يقول : « ماذا ؟ » ، فقال موريس : « بالطبع ، بما ان كل الناس يؤمنون ، فيكف يمكن إنكاره ؟ » ، فقال مونتيس : « تود القول ببساطه ان .. » ، موريس : « بالطبع . لكننى مخطىء . لقد اسأت التعبير ، انها ليست مسألة عدد : حتى ان لم يكن هناك الا انسان واحد يؤمن به ، فانه أمر لايمكن انكاره ... » ، مونتيس : « أمر ؟ . الايمان ؟ ليس الا .. » ، موريس : « أليس جليا ؟ » ، مونتيس : « يا .. » ، لكنه لم يستطع استكمال عبارته ، سكت ، اعتلته الحمرة ، غلبه الحزن بدوره ، ظل يرقب موريس بنفس ذلك التعبير المشدوه ، وأتخيل الآخر وهو يشعر بتلك السخونة ، بنشوة الانتصار وهى تعتريه وتستحوذ عليه ، بينما هو يفكر قائلا : « اصبت الهدف : » ، ولعله اضاف : « اخيرا . حققت هدف ! » وفى نفس اللحظة (ولعله تدارك على تلك النظرة التى مازالت مصوبة تجاهه بذلك الالحاح الثقيل ، الاخرس ، الحزين) :

« والآن ، ضربة السيف الغاضبة ! » ، وقد استعاد ثقته بنفسه ، وبطلاقة لسانه : « بالطبع لايمكن اثبات ذلك او تفسيره . مثله مثل الايمان بالسعادة ، والتقدم وكل تلك الاختراعات النبيلة . لذلك اعتبر كل اولئك الاشخاص فى غاية السخف . لا ، لا اعنى رجال السياسة ، لا اتحدث عنهم : فالسياسة وسيلة من وسائل التعيش ولايجب ان تكون مخالفا عن الآخرين لتمارسها .. لا : لكنى اعنى اولئك الذين يحاولون الاقناع بشتى الطرق انهم على حق ؛ انت تعرف ، مثل اولئك الاساتذة المعقدون ، اولئك الذين يعبرون عن نظريات فى ثلثمائة صفحة ليثبتوا علميا مسألة مفروغ منها مثل وجود ذلك المسيح او حق العامل فى ان يأكل كل يوم فى ... الامر ليس كذلك . على اى حال لا اعتراض لى على ذلك المسيح ولا على الفراخ المحمرة وانا شخصيا اعتقد ان العامل لديه الف حق فى ... لكن الامر ليس كذلك ، انا ... » ، فقال مونتيس دون ان يكف عن تفرس وجهه : « اسمع ، انا .. لكن .. ما الذى تعنيه ؟ » ، وعندئذ استدار موريس فجأة فى الروب دى شامبر ، ثم توقف بلا حراك ، فى مواجهته ، يتفرسه بدوره ، وقد انحنى قليلا الى الامام ، استجمع شتاته ، كالحيوان وهو يستعد للقفز ، قائلا : « ما الذى .. » ، ثم جذب نفسا طويلا من سيجارته ، واخرج الدخان من فتحتى انفه ، دون ان يكف عن تأمل محدثه ، مثبتا نظراته فى عينيه ، كأنه يعلم محتويات الغرف عن ظهر قلب ، ثم مد يده ، وظل يتحسس المكان حتى وصل الى الطفاية التى على المائدة والتى لم يكن مونتيس يستخدمها الا كمسند للاوراق ، وهذه المرة ، بدلا من ان يلقى سيجارته فى سلة المهملات ، اطفأها بعناية ، ورغم انه لم يدخن الا نصفها ، اطفأها بعدة خبطات من معصمه الى ان صارت اشبه بالاكورديون المتعرج المصنوع من الورق ، ثم دفس يديه فى جيبه بعد ان فرغت مما تمسكه ، وضم ذراعيه ، ظل فترة فى تلك الوقفة المسرحية (وربما كان فى

الواقع خلال هذه الثوانى يتردد ، لم يكن واثقا بالقدر الذى يبدو عليه ، وهو فى هذه الوقفة المعنوية والجسدية لرجل يقف على حافة المنط ويستعد للقفز) ، فقال بصوت متغير ، يكاد يتوسل ثانية وكأنه يبحث عن التوسط لصالحه ، يتأكد قبل ان يجاذف : « الم اقل لك اننى صديقك ؟ لكنك لا تريد ان تصدقنى ، انك .. » (ثم ، قفز الى الموضوع ، على حد قول مونتيس فيما بعد . « ربما لم يتعمد ذلك . ربما كان مازال مترددا عندما فتح فمه باحثا عن تتابع ، عن خداع نفسه ، لكن لابد وانه قد اخطأ الحساب ، فقد توغل كثيرا ، وان مجرد فتح فمه قد افقده التوازن ، كاد يخفق تماما ، ولم يكن بوسعه الا ان يحاول باسرع ما يمكن ان يضع نفسه فى افضل وضع بين النجاة والغرق » ، لذلك حينما فتح فمه كان صوته قد تغير ثانية ، تعلوه الوقاحة ، بشىء من التعالى ، شىء من الاستعطاف الواضح شبه الساخر وهو يقول : « ما الموضوع بالضبط ؟ اتريد ان تعرف ؟ انت ؟ » ، ثم ، اضاف بنفس العنف ، رافعا منكبيه ، مستديرا مرة اخرى على كعبيه ، اجتاز الغرفة بسرعة ، انحنى ، سحب شنطة مونتيس القديمة من تحت الدولاب ، راح يعبث بقفلها ، فتحها ، اعتدل ، استدار ثانية ناحية مونتيس ، مديده ممسكا بلفة بحجم قالب الطوب الاحمر ملفوفة فى جرائد قديمة وهو يقول بنفس الصوت الفظ ، الساخر ، المستعطف : « هل فقدت صوابك ؟ هل نجحت هذه الفتاة فى استغفالك الى هذا الحد لكى تضع هذا الشىء فى اول مكان يتبادر فى ذهن اى رجل بوليس ان يبحث فيه .. يالهى ، كم انت محظوظ ان ... » ، راح مونتيس ينظر الى اللغة وهى معلقة فى الهواء حاليا ، ثم وهى تقفز فى الهواء بخط منحنى لتستقر بجواره على السرير حيث تدحرجت بينما راحت الجرائد تتفكك لتكشف عن صندوق صغير معدنى راح ينظر اليه بما يشبه اليأس ، او الحسرة الخرساء ، بينما الصوت المنتصر ، المثقل بنفس الاحتكار العميق ، وبنفس التباكى العميق قائلا : « مجوهرات بخمسة او ستة آلاف فرنك فى شنطة متسكع ، فى فندق للمتسكعين ، وهكذا فلا هى ولا فتاها جول يخشيان شيئا .. وبالمناسبة : كيف حدث وقد تواجد تماما عند محطة الترام ؟ » ، فقال مونتيس ، (وقد كف عن النظر الى الصندوق ، حملق ، ازداد اندهاشه ، بدا اكثر من اى وقت وكأنه غرقان انقذ لتوه يتمتم) : « هذا .. ماذا ، ما الذى تقوله ؟ ما الذى تتحدث عنه ، اننى ... » فقال الأخر : « تلك الضربة التى اطاحت بك وجعلت انفك يدمى ؟ » ورفع مونتيس الفوطة ثانية الى شفته ، ثم تذكر وخفض يده ، ظل بلا اجابة ، ينظر الى الفراغ ، الى الحائط المستقيم الذى امامه ، بينما راح الآخر يشعل سيجارة جديدة ، وهو يرقبه بطرف عينه عبر الدخان ، طوح بعود الثقاب حتى ان يهتم هذه المرة بالتصويب تجاه سلة المهملات ، اعتدل ، قائلا حتى قبل ان يسمع السؤال : « ماذا ؟ كيف اننى ... يكفى اخذ المفتاح . انها كلها معلقة على لوح المفاتيح ،

وهذه الشنطة لم احتاج حتى للمعافرة لكى .. لكن ، يا الى ، من اين جئت ؟ انهم يقتلون يوميا اشخاص احيانا لمبلغ اقل من الالف فرنك وانت تترك غرفتك ... يا الهى !. ترى هل ستصدقنى الأن ان قلت لك اننى صديقك ؟ »

وقد قال لى مونتيس فيما بعد ان ما انتشله من ذهوله فى ذلك الوقت هو صوت السيجارة وهى تطأطأ فى سلة المهملات ، وعندئذ فحسب ادرك ان الوقت قد مضى ، وحينما رفع عينيه رأى موريس ، مازال متشحا بالروب دى شامبر ، ويداه ثابتة فى جيبه ، وان كان قد ارتكن الآن بظهره الى الحائط . « لاشك انه لم يكف عن ان يتفحصنى طيلة الوقت ، ففى هذه اللحظة لابد واننى بديت منهوك القوى ، مهزوما تماما ، كما يقولون ، لثانى مرة فى نفس اليوم ، او على الارجح على بعد عدة ساعات بما ان الفجر قد شأشأ ، لقد بديت مهزوما حقا ، وإلا اعتقد انه لماجرؤ ... »

ولقد حدث ذلك بمنتهى السرعة : لقد ارتفع صوت موريس فى السكون دون ان يتحرك ، وبدأ صوته بعدم اكتراث ، متمشيا مع وقفته غير المكترثة ، يتباطأ فى القول بنفس عدم الاكتراث ، صوت مجهد اكثر منه وقح على ما يبدو ، مثقل بالملل والاندهاش الملول ، قائلا : « يا الهى ! لماذا لا تضاجعها وتنتهى ؟ .. » وانتفض مونتيس ، ورفع رأسه قائلا بفزع : « ماذا ؟ ان .. » وتلعثم ، مذهولا ، غير مدرك بعد ، او مترددا فى تصديق ما سمعه بوضوح ، ابى على نفسه الى ان ارتفع صوت موريس ثانية (والآن قد تحرك ، ابتعد عن الحائط ، بنفس عدم الاكتراث ، ملول ، سحب سيجارة اخرى من العلبة ، راح يخبط عليها ، بلل شفتيه ، بدا وكانه لم يلمح حتى وجود مونتيس او تلعثمه) ، وقال وكانه يحدث نفسه ، بنفس تلك النبرة غير العابئة ، الملول : « لاشك انها بدينة الموخرة ، انا عن نفسى افضل ... » ، ثم استطرد بلا مقدمات ، بصوت مختلف تماما : « ويحك ! ماالذى دهاك ؟ ما الذى ... » ، وكان مونتيس واقفا يصرخ قائلا : « اخرج ! » ، موريس : « ما الذى .. » ، مونتيس ثانية : « اخرج من هنا ! » ، موريس : « هيا ياصاح .. » ثم : « ويحك ! ، احذر ، اللعنة ! كانت اخر .. ألست معتو .. ياالهى ! اين دفعت بك .. اتعتقد اننى .. » ثم : « هيا ! بلا مزاح انك .. » ، ثم صوت الصراع الصامت ، التنفسان اسرع من قبل ، يدا موريس تلوحان فى الفضاء ، ترتطمان بشىء نحيل ، جاف ، اكثر جفافا واكثر بعدا عن الحياة من العصا ، لكنه شىء لا يقهر ، (لقد مررت بنفس التجربة ذات يوم ، حينما اصطحبت مونتيس معى لأريه بعض الصور الفوتوغرافية ، وتنحيت جانبا عند الباب لكى اتركه يدخل قبلى ، مما ادى الى محاولة ضاحكة من محاولات المجاملات ، محاولة يداى وهما تدفعانه من الكتف للدخول امامى فلاقيت مقاومة ضعيفة ، يصعب التعامل معها ومتصلبة ، فادركت انه لا داعى للمحاولة ودخلت قبله) ، وحاول التشبث به ، مجهدا فى دفع

الأيدى بعيدا عنه . حاول التخلص من قبضته المحكمة على كتف الروب دى شامبر المحنى ، المتصلب ، بينما راح يرضخ تدريجيا . ويضعف تحت ضغط الدفع الذى لايلين . اشبه ما يكون بالوضع الساخر المهين لطفل يزجون به فى الغرفة المظلمة ، فيلوح بيديه وقدميه فى حركات دفاعية تحت لكمات غاضبة ، ثم

، دون ان يدرك جيدا كيف حدث ذلك . لم تعد اليدان تواجهان القفص الصدرى النحيل والضلوع ، وانما لوح الخشب . وفى ثانية اغلق الباب . فراح موريس يخبط عليه ، متوعدا سابا فى ظلام الطرقة . صارخا : « ايها الاحمق ! » وصارخا : « ايها المغفل ! لقد خدعتك . لقد خدعك الاثنان ! نعم : هو وهى . كلاهما . ولقد رأيتهما منذ ساعة تقريبا . كان هنا . كان ... . واستمر الى ان اتاه صوت من غرفة مجاورة ، محتجا ، فاجابه موريس بسيل من الشتائم . ثم صاح ثانية : « ايها المخدوع ! » . ثم قال لى مونتيس انه سمع بعد ذلك صوت باب يغلق بحدة ، ثم لاشىء ، واضاف « الا تلك الريح التى قد نسيتها والتى راحت تهز اشجار الصنار تحت نافذتى وكانها اشجار البرقوق ويؤرجح النور فى الميدان الخالى . ولا اعرف ما الذى دهانى . ربما لم يكن يعنى الا المزاح . او ربما لاننى لم اتعود على ذلك . لاننى اعرف ان مثل هذه الاشياء بين الرجال ... اعنى : انها نوع من الدعابات التى ...

- دعابات .. لا اعتقد ذلك . وما فعله فيما بعد . هل تسميه دعابة ؟

- اعنى : اننى اتساءل ان لم تكن غلطتى . على الاقل جزئيا . أتدرك : حينما اخرجته بهذه الطريقة . اثرت غضبه ولاشك . ربما ان كنت .. لكننى كنت فى حالة يرثى لها . لقد فاض بى الكيل . ليست اعصابى فحسب : وانما كل شىء . اذكر انى نمت كالقتيل . بل على ما اذكر لم تكن لدى القوة لأبدل ثيابى . وفجاة . وبلا فاصل . كان وضح النهار . كنت احلق ذقنى . وكانت هى هنا . فى نفس المكان الذى كان هو واقف ...

- من « هى » . روز ؟

فنظر الى بعينين هائمتين . حائرتين . قائلا : « روز ؟ لا . تلك الفتاة : سسيل ... »

لا ، لم يكن بسبب قصته ، او بسبب عدم ترابط ذاكرته : كل ذلك قد وقع بالفعل على ما اعتقد ، بصورة غير واقعية ، فكان الزمن يتسع ، يتوقف او يمتد تباعا ، ليس بسبب تعبه ، او بسبب الليلة التى امضاها ساهرا (وان كان قد نام طويلا : فقد ادرك ذلك ، ملقيا نظرة سريعة على ساعة معصمه بينما كانت ذقنه غارقة فى صابون الحلاقة ، واعتراه الخجل ، فراح يتهته ثانية ، واسرع بتسوية الفراش : كان الوقت قرب الظهر) ، وانما لعدم قدرته الاساسية على ان يتنبه للحياة ، للأشياء ، للاحداث ، لا عن طريق مشاعره ، وقلبه ، (وهى عدم قدرة نعالجها عادة بمجهود ذهنى لسد ثغرات الزمن التى افلتت من ادراكنا ، مثل تمارين القواعد اللغوية فى فصول الاطفال التى يجب استبدال النقاط فى جملها بكلمة مناسبة ، بحيث يبدو نفس الحدث ، بعد ملء الفراغات ، مطمئنا من الناحية الشكلية لواقع تقليدى ، رآه المرء من قبل ، او لواقع متضخم الابهام ، وفقا لحالة الكسل او لقله الملكة الابتكارية ، او نتيجة للملل الشديد لتلك اللحظة) ، بالاضافة الى : هذه الطريقة الدائمة التى يستخدم بها اسماء الاشارة « هو » او « هى » مشيرا الى اى رجل او اى مخلوقة مؤنثة فيما يشبه الخلط الدائم بين الاشخاص ، كأن العالم يبدو له عبر حالة من قصر النظر ، ملىء بأطياف ثنائية الارجل غير واضحة المعالم ولا يفرق بينها الا ارتدانها جونلة او بنطلونا (وذلك مثلما يحدث لنا كمصورين فوتوغرافيين بالنسبة للاشكال السوداء الداكنة ، او المتشابهة العادية والتى لها نفس الانحناءات ، ونفس الجمجمة المغطاه بالصوف ، وكأنها مصبوبة فى قالب واحد فى فرن بدرجة عالية ، مصبوبة تلقائيا كمكمل لبعضها بعضا ، او كتناقض ، ملتحمة فى الهواء الذى يحيط بها ، فى الضوء الذى يعمى الابصار ، مثلما فى صور او افلام المستكشفين ، والذين لايفرق بينهم سوى الاستعراض الساذج المغرور لاعضائهم التناسلية ، المعروضة بلا حياء ، او المشار اليها بلا حياء اكثر ببعض المكملات الرمزية الطقوسية - وذلك على الاقل حتى يأتى الارساليون والتجار ، ويعمدونها ، ويكسونها فى مياه نهر متصنع الحياء سوقى

ببعض الثياب القطنية المدفوعة بالتقسيط بلا تعب ولا توسلات) . وكأن العالم الخارجى العدوانى الخطير مقسم الى جزئين من القواعد مذكر ومؤنث . يحمل كل واحد منهما ، او يتميز . بخاصيتين متكاملتين ومتناقضتين لا ينتميان الى ذاتيتهما لنوع ما بقدر انتمائهما الى اسم اشارة .

بل واكثر من ذلك : الجنس البشرى قد تحول (حوله هو ، وقام بتوصيفه ، وتحديده باسره) الى اساطير ، مذكرة ومؤنثة تنقسم طولا اولا : بمعنى الطفولة ، البلوغ ، الشيخوخة (ولعل ذلك يفسر الصور التى التقطها . مجموعة وجوه البالغين ، الذين لم يمسهم شىء ، وجوه نضرة ناصعة البياض او يعلوها النمش ، او اولئك السمر ، ممتلىء الشفايف مثل الذين عثر عليهم هنا ، لكنهم عذارى ، طاهرين ، الا من بعض السمات البربرية البدائية ـ العنف . القسوة . الامتلاك ـ ومن ضمائرهم ، وبالتالى من نزعة الشر) . ثم فى القسم التالى . فيما يشبه التقسيم الطبقى (القساوسة . القضاه . العساكر . التجار) حتى تمكن من وضع كافة الاحياء فى نوع من العلب ، المعنونة والمرقمة . مزودة بوظيفة معينة . بدور معين ـ بما فى ذلك اللصوص والجلادين ـ الى ان يكف العالم الجسور المعقد عن الدوران بلا هوادة وبلا ضوضاء ، ينتظم ، وينظم نفسه ليستقر بلا حراك .

وبينما كنت انصت اليه وهو يحكى لى قصته ، كنت اتأمل ذلك الوجه المجعد ، وتلكما العينان التعيستان الحنونتان كالكلب المهزوم ، قائلا فى نفسى : « لابد وان هناك شيئا ما يكرهه هذا الانسان اكثر من اى شىء آخر » ، ثم فكرت قائلا : « ترى ماذا ؟ » ثم اضفت : « لايكره . لا . فهو غير قادر على الكراهية . حتى الشر . لكن هناك ما هو اكثر من الكراهية : الخشية والحيطة . » ثم استطردت : « لكن ، ترى ما هو ذلك الشىء ؟ » ، ثم أضفت : « بل هناك ما هو اكثر من الخشية ، واكثر من الحيطة : انه يموت من الخوف » . لذلك انتابته الشيخوخة قبل الأوان ، فهو فى الخامسة والثلاثين ويبدو فى الخمسين رغم انه على ما يبدو وفقا لما يقوله ، لم يشترك فى الحرب ، ولم يمارس ايه مهنة متعبة او غير صحية ، بل ولم يصب ابدا بمرض خطير ، على الاقل ، من تلك الامراض التى يصاب بها المرء ويشفى منها ـ او يموت ـ بواسطه الحقن ، والامصال والمبضع ، ومع ذلك فهو يعيش دائما فى حالة الرعب هذه كشخص لايخشى خطرا ما فى المكان والزمان الذى يمكنه الابتعاد عنه لحظة ، او يمكنه نسيانه ، لكنه خطر ملتصق به ، لا ينفصل عنه ، كالقرحة ، او السرطان ، بحيث ان هذا التسلط يمثل نقيضه ، مثلما تمثل الامانة فكرة متسلطة بالنسبة للصوص ، ومثلما تتسلط فكرة الاحترام بالنسبة للعاهرات ، او فكرة الاحترام عند ذلك الوغد الصغير المسمى موريس . لأنهم فى الواقع يمثلون عكس كل هذه القيم ، مثله (هو ، حاليا وقد بدأ الغضب

يستحوذ عليه . بكل ما به من لطف . وبراءة مدمرة . وطيبة مدمرة . وملكة جلب المصائب المدمرة مثلما يجذب الآخرون الكلاب او النقود . فهو يثير حوله الرغبة في التحدث . كما يثير البلبلة . والفراغ . والخلط . ليس بسبب طريقة تحركاته لكنه يحرك معه ـ مثلما يفعل الشخص العائم لحظة الغرق بمن ياتي لانقاذه ـ في ذلك الجو اللزج . والحكايات المتعذر حلها . وخطبه الملتوية . غير الصريحة) اى انه بالضبط عكس رغبة النظام . والاستقرار . وذلك المفهوم المتسلط لشبان الكشافة والمتفائل للعالم الذى يتمسك به . والذى يحاول الحفاظ عليه باية وسيلة ، ويعتبره الحقيقة رغم اية براهين واضحة اخرى ...

ومرة ثانية . انسقت رغما عني . كان ذلك الذى يغرق يسحبني انا ايضا (رغم انني لا اتمتع باى صفة من صفات المنقذ : الا انني ببساطة كنت في متناول يده فتعلق بى) ، فوجدت نفسي حيال ذلك الزمن الممتد كجدار رمادى بلا بداية ولا نهاية . جدار منهك . تعلوه تلك الاعلانات الممزقة المتطايرة بفعل الريح . باهته الالوان . واحيانا بعضها مازال فاقعا . صارخا . انمحت الكتابة من عليها . واجزاء النصوص التى تعلوها بلا بداية ولانهاية . بلا اى تتابع . مرصوصة . تتناقض . تلوح بين تمزيقتين مثل وجود شخصياتها في الاعلانات وقد بترت منها عين . او خد . او جانب باسره (واحيانا لايتبقى منها سوى خد . اوعين تنظر اليك . تفحصك ـ بغموض في اعماق الزمان الغامض . بين قصاصتين من الورق وكانهما ضلفتا باب مفتوح) : وكذلك بدا لى . بملامحه المشدودة . واجفانه المحمرة . ورغوة صابون الحلاقة التى لم يمسحها جيدا مازالت عالقة بطرف اذنيه . وشكله الضائع . وقد استغرق حاليا في صراع غير متكافىء بين اكمام الجاكته التى كان يحاول ارتدائها . وهى (سسيل . تلك الفتاة التى لم يرها سوى مرتين : المرة الاولى كضيفة في ذلك العشاء الرسمى الجنائزى في غرفة الطعام الرسمية الجنائزية في ذلك المنزل ذى مجموعات الاسلحة المتربة . والمرة الثانية عندما جاءت في نفس غرفة الفندق تنظر اليه . تتامله كحيوان غريب . حيوان في قفص . كانها تريد ان تقنع نفسها بانها لم تكن تحلم في المرة الاولى . والآن كانت هنا ثانية . تنظر اليه وهو يكافح . ـ بذلك الوجه الجامد الرقيق تحت شوشة شعرها الاحمر . الكثيف . المقصوص مثل شعر الشبان . بجبهة عنيدة كالشبان . بينما يعلو كل ملامحها شىء عنيف . ارادى . اندفاعى . شىء اجدر ما يكون بالشاب المراهق وليس بفتاة ـ ولم يكن وجهها آنذاك يعلوه ذلك التعبير الساذج الغريب . وانما نوع من الاضطراب . وكانها فقدت ثقتها لاول مرة . ثم . تدريجيا . وبينما هو يتخبط مع جاكتته بشكل يثير الضحك . تحول تعبير عدم ثقتها والاضطراب على وجهها الى نوع من الغضب البارد . المتواصل) فقالت اخيرا :

« أهى لعبة فى سيرك ؟ »

ثم ، وبينما كان لايزال يتخبط مع السكون العدائى للجاكت ، مع ذلك الرفض ، او العداء الغريب ـ نوع من الانتقام ، او الأخذ بالثار ـ من ناحية قطعة نسيج ، وهى (ايا كانت الاسباب التى قادتها الى هنا ، مدفوعة للمرة الثانية للسير فى طرقات منحدرة فى الحى القديم من المدينة ، بين الاكواخ ، والذباب وروائح شواء السردين التى تملأ الجو ، وعلى الارصفة ، بين نسوة جلسن القرفصاء فى اردیتهن ، يقمن بالتهوية لتقوية نار الفحم بينما ينادين بعضهن بعضا ، ثم (مدفوعة) تدخل فى ذلك الفندق ، تتبعها النظرات الصامتة ، المليئة باللوم والمرتابة لعجائز لا يتحركن ، يلعبن الكوتشينة باوراق بالية قذرة ، ثم لتجد نفسها وجها لوجه مع شخص غير قادر حتى على ارتداء كم جاكتته) فلم تتمالك قائلة : « انك تفتعل ذلك ، أليس كذلك ؟ » ، ثم يليها مباشرة كأنها تنتقل الى موضوع أخر ، او كأنها كفت عن متابعه تلك المعركة الساخرة ، فقالت بصوت واضح محدد ، غاضب : « كما افتعلت نسيان تلك الدعوة أليس كذلك ؟ »

فقال وقد نجح اخيرا فتحجر مكانه وتوقف ذراعه فى منتصف الكم : « تلك ... »

ـ الدعوة ؟ نعم ، دعوة العشاء ، الا لو تخيلت الى ذلك ، ولم احضر ، ولم اسلمها لك بنفسى ... » ثم تراخى الصوت ، توقف ، كأنه اختنق من شدة عنفه ، او ربما حياء ، او قد اعتلاها كبرياء ما فحاولت السيطرة على نفسها ، فاختارت صوتا خفيفا ، مبتهجا ، بعيدا عن السخرية ، لتقول : « اود معرفة ما الذى تفعله بالضبط ؟ »

هو ـ « ما الذى ـ ماذا تعنين .. ؟ » .

هى ـ « ما كل هذه التمثيلية ، لماذا ؟ »

هو ـ « تمثيلية ؟ »

هى ـ « التى تقوم بها ، نعم : ان تهزأ من نفسك عمدا ، ان ترتدى ثياب كالمهرجين ، وان تسكن فى فندق مريب .. »

هو ـ « مريب ؟ لكنه ليس .. أؤكد ... »

هى ـ « بل قبيح ، مقرف ، وعندما تعلم ان اى شخص الآن قد يقرضك كل ما ...

وفى هذه اللحظة تبادر من الردهة صوت المكنسة والسطل ، وراها مونتيس وهى تلقى بنظرة خاطفة بينما استمر الصوت ، متخذا تلك النبرة فجأة ، النبرة المميزة ، العميقة ، وكأنها تنفصل عنها ، على حد قوله فيما بعد ، وكأنها هى وصوتها يمثلان شخصان ، يعيش كل منها مستقلا عن الآخر ، بشكل ذاتى .

الصوت ينطلق مندفعا . مرتبا الكلمات فى جمل وفقا لأجرومية ، ونظام معين ـ المهم هو عدم توقف الصوت ، الضوضاء ـ بما أنه لا من كانت تتحدث ولا من كانت توجه له الحديث لم يكونا يهتمان ، بل كان يرقبان صوت السطل على بعد عدة امتار منهما ، خلف مجرد حائل من الخشب . بينما كان هو يتساءل بفضل ايه ظاهرة توارد خواطر ، او تأثير متبادل ، تعرف النساء ، او يشعرن بشىء ما ، حتى دون الحاجة الى استعلامات معينة ، وراح يفكر قائلا : « ربما قد رأته تحت ، او اعترضت طريقه ، او ربما صاحبة الفندق قد ... لكن ذلك ليس بالاهمية لأنهن ... » . ثم كف حتى عن التفكير . وعن التساؤل . وراح يغمض عينيه ويفتحهما فى تغير الضوء المعتم ، مترنحا من التعب . ولم تعد الكلمات التى كانت تقولها الفتاة الآن تصل اليه ، وعلى العكس من ذلك . فإن الرؤية كانت واضحة ، منفصلة ، لتلك الذبابة الواقفة على الجبهة الملساء . بغمدها المصدف . ونحول جذعها ، ورأسها مثلثة الشكل كالدبوس ، ولونها الداكن المائل الى الاحمرار . ظلت فترة بلا حراك . ثم بدأت تتقدم فى السير فجاة ، بخطى متقطعة . وقفات عبثية وتغيير عبثى فى الاتجاه . ثم تلوح ، حركة ملولة ليد لم يتبينها جيدا ، وعادت الجبهة خالية . لحظة ، ثم ظهرت تلك البقعة السوداء ثانية ، دون حتى ان يلمح طيرانها ، لاحت فجاة ، كشىء ثابت او كمثل هذه الحيوانات . او تلك الاشياء التى يخفيها السحرة بحركة يد ثم يعيدونها ، ثم راحت الهالة تزداد ضيقا ، تغلق ، الى ان كف عن رؤية اى شىء رغم انه ظل واقفا ، منهك ومتنبه ، كأنه وسط نوع غريب من الفراغ ، او من السراب حيث لا تتزاحم فيه ذكريات الآمسية او الليلة الماضية وانما قرقرة غير واضحة ، شىء اشبه ما يكون بخلية نمل متناثرة بضربة قدم ، أو مثل علبه الالة باندورة وقد انقلبت واندلقت منها ملايين المآس المتناثرة فى هرجلة غريبة وتناثرت معها احداث الاغتصاب . والقتل . والدموع الساخرة ، ثم يلوح الزمن من جديد ، يتجسد . هو والواقع . وذلك الجدار الرمادى . والريح الصفراء التى تهز كل شىء ، وتخرج قصاصات الاعلانات من العدم ، وقصاصات الجمل ، والآن اصبح هو شديد الاحمرار وكاد يصرخ : « لست قديسا فما معنى ذلك ، لماذا انت ايضا » (وبالفعل كانت لثانى مرة خلال ثمانية واربعين ساعة ، تقذف له نفس الكلمات تقريبا بنفس لهجة الغضب الجامح اليائس ـ مع الفارق ان الفتاة الواقعة الآن تصغر الاخرى بحوالى خمسه عشر عاما ، وهى ليست خمسة عشر عاما تقاس بدورات النجوم وابراجها ، لكنها كانت متماسكة الكيان ، متعاليه ، لم يمسها انسان ، لم تكن عذراء فحسب وانما عذراء حتى من مهاترات الهزائم ، كانت تجهل حتى فكرة الهزيمة ، وتجهل ان الحياة ليست فى الواقع الا سلسلة من الهزائم ابتداء من انتصارات الشباب العابرة حتى الضعف النهائى . حتى المأساة النهائية التامة ، لذلك تحاول كل الديانات ويحاول كل رجال

الدين تحويل الآلام الى حسنات والبعض الآخير الى خلاص او على الاقل الى نتائج لا قيمة لها) « لا اتصور نفسى اى شىء وفى النهاية انكم جميعا ... .
وفجأة تغير صوته ، وان كان مازال محتقنا ، بل قرمزيا ، فعاود قائلا : « انى اعتذر .. لقد امضيت ليله مضنية ، انى متعب قليلا ، من الهواء .. » . اما هى فقد اصابها الذعر الآن ، اختنقت بدورها من ذلك العنف ، من هذا الانفجار الفجائى ، ثم عادت الى تلك المنظرة غير المصدقة ، متقطعة الانفاس ، الى أن نجحت فى السيطرة على نفسها ، وعندئذ تبين مونتيس الغضب وهو يرتسم فى عينيها ، يرتد متصاعدا باقصى سرعة ...

فقلت له « لكنها لم تبدأ فى تانيبك هكذا ، بلا مقدمات ، على ما اعتقد . انها لم تدخل الغرفة وتغلق الباب خلفها ، وترتكن اليه ، وتنساب هكذا فى ثالث مرة تراك فيها ، لتتشاجر معك على هذا النحو ... »

فنظر الىَّ ، بشكله الناعم المندهش ، ثم لاشك ان كتلة الزمن قد سقطت عليه ، استحوذت عليه (وفى هذه اللحظة اعطانى احساس الشخص الغارق الواقف على الاربع فى دوامة المد المزبدة ، ومحاولا الوقوف ، محاولا الاعتدال ، لكن هدير الزبد ينهال عليه بدواماته ويغرقه الجبل السائل) : فقال « اعنى .. اعنى انها قد فسخت خطبتها ، انت تعلم ان ...

فقلت : « فسخت خطبتها .. فهمت فحضرت لتحيطك علما ؟ لاشك انها كانت تدور على اصدقائها ومعارفها لتفعل نفس الشىء ...
- تيحطنى علما ؟ لكن لا يوجد ... لايرسلون .. »

ثم ادرك ، وبدأت الابتسامة ترتسم على محياه ساخرا من نفسه ، الا ان وجهه تجهم ، تجعد ، وكأنه مرة ثانية يحاول حل نفس المشكلة ، نفس الطلسم ، فاضطرب ، انزعج ، ناظرا الىَّ مثلما كان ينظر اليها بلا شك . بينما كان ذلك الحوار ينساب ، او ذلك النوع من المبارزة - ان امكن اطلاق ذلك الاسم فى هجوم لا يكف الخصم خلاله عن تكييل الضربات بينما الطرف الآخر يكتفى بتحاشى الضربات بقدر الامكان - ولاشك اننى اعتقد انه رغم جرأته ، ورغم حالة الانفعال هذه - او الاحباط - التى كانت تعتريها ، فقد بقى لها شىء من السيطرة على نفسها (او ربما بحكم العادة ، او التلقائية ، او ردود الفعل اللاارادية لتجد ، او لتعثر - على الاقل خلال الاجابات الاولى - على تلك النبرة ، المتباعدة ، شديدة الوقاحة ، شديدة التفاهة (وكأن الامر يتعلق بحدث ، او بخبر بلا اهمية ، خبر عابر ، ضمن بقية الاخبار ، عرضى ، يقال لشخص بلا اهمية) ..
- « فسخت خطوبتى .. انا
- فسخر ..

- نعم : فسخت خطوبتى . اختى ..
- خط ..
- نعم ، ماذا ! فسخت . انتهت : انتهت ، ماذا . الا تفهم ؟
- بلى ، بالطبع ، لكن ..
- بالطبع ، ما هى .
- اعنى ..
تعنى قول : بكل تأكيد . »

ثم ضحك . لكن ، فيما بعد ، كانت تلك الاصداء تبدو نشاذا . غريبة عكس الضحك ، حيث خيل اليه انه مازال يسمعها بعد ان رحلت . وطوال ذلك اليوم الذى حاول خلاله ان يتفادى روز فكان بدوره يتصنت . يتحين اللحظة التى يستطيع فيها الخروج من غرفته لينزل السلم بسرعة وينسل خارج الفندق دون ان تراه ، ليذهب لتناول افطاره المكون من عدة بسكويتات يأكلها على الاريكة فى الميدان - وربما اختار تلقائيا تلك الاريكة التى جلس عليها ذلك المساء محاولا استيعاب اللكمات التى اخذها - وظل يمضغ آليا . ثابت النظرات ، يحملق فى الفضاء . وربما كان يتابع تحركات الحمام الذى يترقب الفتات دون ان يدرى - بل وربما كان يلقى له بعض الفتات آليا - بينما الريح الخالدة تهز اشجار الصنار من فوقه بحفيف مستمر ، قوى ، مهيب . بينما الجذوع المهيبة البيضاء تتأرجح ببطء بين بريق الاوراق اللامعة الذى لا يكف . فامسك بنصف بسكويته فى يده ، وتوقف نصفها الآخر فى حلقه وهو يجاهد لا بتلاع تلك العجينة الجافة اللزجة . مفكرا : « ان استطعت ان اشرب » ، ثم فكر بلا مقدمات ، او ربما فى نفس الوقت ، بنفس الاحساس اللزج الخانق : « أه ان استطعت الابتعاد ، الافلات من هنا » .. ثم فكر : « الهدوء فحسب . الهدوء . ذلك كل ما ارجوه . لكن . هل من الممكن القيام بحركة واحدة دون ان يعم الشر .. دون ان يتعكر كل شىء . مثل قاع البحر . دون ان ينهار الهواء الشفاف . والسماء والبيوت . والاشجار التى تحتوى عليها . دون ان يتبخر كل شىء وينهار بصوت الزجاج الذى ينكسر . كأن المرء يعيش فى عالم ليس مكونا من الخشب المتين . والاحجار المتينة ، والاوراق ، والريح التى لايمكن لمسها ، ولكن كأننا نعيش فى احدى هذه الحوانيت المليئة بالزجاج حيث اقل لفحة هواء ، اقل حركة ، اقل عطسة .. يا الهى !) وقد قال لى : رغم انه يعلم ان كل ذلك لا جدوى منه ، وانه كان من العبث محاولة الافلات من هذا التشابك الذى تورط فيه مثلما لايستطيع المرء الافلات من المرض او من الموت ، بل ولا حتى الامل فى الحصول على تأجيلها بعض الشىء : لانه لم يعد يشك الآن فى أنه حتى اذا لم يتحرك ، ما يجب ان يحدث سيحدث ، وانه حتى ان ظل على الاريكة لاحراك فلن يغير شىء مما يجب ان يحدث (كما انه لم يكن ليغير شيئا

ويعجل بشيء او يؤخره بانفعاله او بمسابقة الاحداث او بالهروب منها) ، اى انه لم يكن يبحث حتى عن مهلة (فقد قال لى : « لا توجد مهلة فى الامر الواقع ، اليس كذلك ؟ ») . كل ما كان فى وسعه ان يفعله هو ان يظل جالسا على الاريكة وينتظر ، مدركا انه سواء جلس هنا او هناك فان ما يجب ان يحدث سيحدث . لذلك لم ينتفض ، او حتى لم يلتفت برأسه (فقد قالى لى : « ربما كانت الساعة الرابعة او الخامسة بعد الظهر : كل ما اعرفه ان الاطفال بدأت تلعب فى الميدان منذ لحظة ، يلعبون ويمرحون خلف الحمام ليدفعونه الى التحليق . بينما وقفت خادماتهم ـ او ربما امهاتهم يصرخن من وقت لآخر ... ») ، فاكتفى بالنظر الى تلك اليد دون ان يفهم ما الذى كانت تضعه تحت نظره : سطران مكتوبان بخط اليد على عجل ، بالقلم الرصاص ، على ورقة منزوعة من مفكرة مازالت رائحة الجلد الثمين تنبعث منها ، رائحة حادة ، ثابتة ، عنيدة . « لكن لم يكن لهما اى معنى مثل ذلك الحمام بعينيه المستديرة ، او مثل تلك السماء الملبدة ، ، او مثل بيوت وشجر من زجاج على وشك ان ينكسر : مجرد بعض كلمات متراصة لم اتمكن من تبين معناها مثلما لم اتمكن من فك رموز كل رسم من هذه الرسوم الرمادية الصغيرة على حدة ، فقد كانت اسطر كأسنان المنشار ، لم اتبين لها ايه فكرة او اى معنى ، ليست اكثر من .. » ثم حكى لى : بحركة تلقائية فمد يده (وكان مجرد المسك بقطعة الورق ، وتقريبها من عينيه ، وتفحصها عن قريب ، كان كفيلا بان يجعله يجد الحل) واغلقها فى الفراغ . وكأن صفحة المفكرة قد تبخرت ، قد انسحبت بسرعة من محيط رؤيته ، بحيث ظل واقفا . ينظر بغباء ، فى المكان الذى كان المستطيل الابيض يحتله منذ لحظات . بينما ظلت اصابعه الثلاثه الابهام والسبابه والاوسط ، متلاصقة على لاشيء ، امام خلفية تتحرك فيها الاشكال الرمادية غير الواضحة للحمام وظل فى ذلك الوضع الى ان سمع الصوت الساخر قائلا : « يا الهى ! لكنه اعترف بالحب ! »

لكن حتى بعد ذلك لم يلتفت برأسه . والآن قد تحولت البقع غير الواضحة الى طيور ، بصدرها الاخضر والبنفسجى ، واقدامها المرجانية اللون ورءوسها الصغيرة ذات العيون المستدمرة التى تسبق خطواتها . وعاد الصوت يقول : « كنت واثقا اننى سأجدك هنا ، بل لقد تراهنت على ذلك . لقد سألتنى ان لم اكن اعلم اين يمكنها ان تجدك . لكننى اعرف معنى الرزانة ، اليس كذلك ؟ لم يكن يحق لى ان اخبرها انها تسعين فى المائة ستجدك على احدى الارائك وسط المتسكعين والخادمات . فكتبت تلك الورقة ووضعتها تحت باب غرفتك . فتصورت انك ستفرح بمعرفه ما كانت تريده منك فأسرعت ... لا ، لم انزل لأرى ان كان مفتاحك على لوحة المفاتيح ، فلا يحتاج المرء الى ذكاء ليخمن انك اليوم قد اخذته معك ، لكننى وجدت قطعة سلك . ولم اجد صعوبة فى ... »

موبتيس : « حسنا ، ما الذى تريده ؟ »
موريس : « ليس أنا : انها هى » .
مونتيس : « هى ؟ »

وراح موريس يقرأ : « لقد تصرفت كالعبيطة هذا الصباح . ارجو ان تعذرنى . يجب ان اراك . س . » ثم تغير الصوت ، بانتصار ، بفظاظة ، وهو يقول : « حرف س : كازين ، كريستين ، كاميل ، شارلوت ... » فقال مونتيس : « سسيل . اعتقد انك تعرف ذلك الاسم أيضا (ولم يكلف نفسه عناء استدارة راسه ، وظل يصوب نظره امامه على الخلفية الخضراء المنقطة بالاوراق واطياف الاطفال ودفعات الحمام الفزع ، المتطاير بصخب ، مثل طفرة من الفقاعات ، وسط الضربات المتتالية لاجنحتها) .

« بأى حق ؟ » لكن الصوت لم يكمل ، وظل الاثنان صامتين ، بينما راح موريس بلا شك يرقبه بطرف عينه ، وتلك النزعة العصبية تشد طرف شفتيه ، بينما الحمام يحلق فى شكل دائرى ، يرتفع فوق شجر الصنار ، ثم يغير اتجاهه فى الضوء بدوران سريع ، ثم يحط وسط الممشى وسط ضوضاء ريشه ، الى ان قرر مونتيس التحدث ثانية ، فقال : « ما الذى تريده ؟ »

فقال موريس عندئذ : « فى تلك الليلة قد طردتنى خارج غرفتك .. » ثم انتظر برهة . لكن شىء لم يحدث . وعندئذ اضاف : « حسنا . حسنا . كما تريد ... »
وسكت مونتيس .

« حسنا . حسنا . لا وقت لى لأقوم بدور العبيط . ها هى : انك فى ورطة ، اليس كذلك ؟ انك تريد فصل ذلك الشخص الذى كان يعمل مسجلا ايام والدك وعلى ما يبدو انه لا يقرك تماما ، اليس كذلك ؟ »

وظل مونتيس صامتا ، ولم يكلف نفسه عناء السؤال ، بل لم يفكر حتى فى ان يسأل : « وكيف عرفت ذلك ايضا ؟ » واكتفى بالانتظار ، وفجاة انتفض ، وكاد يلتفت لينظر الى محدثه ، فلم يكن ما سمعة الآن ما كان يتوقع سماعة ، لكن الصوت تبادر كالرجاء ، كالعتاب ، كالنواح ، قائلا : « الم اقل لك اننى صديقك . لقد قلت لك ذلك . لكنك رفضت تصديقى . واعتبرتنى ، او عاملتنى كأنى ... كأننى .. » . ثم خيم الصمت من جديد (الا ان صوت الريح البعيد وهو يهز بلا هوادة اشجار الصنار العاليه ، ونداءات الخادمات ، وصراخ الاطفال كان يأتيه عن بعد ، وكأنه عبر ذلك الحائل الزجاجى الرفيع حيث تنعكس رؤية العالم الواهنة القوية) وبعد فترة عاد صوت موريس ، لكنه فى هذه المرة كان مثلما سمعه من قبل ، عنيف ، سريع : « حسنا . حسنا . هل تحيل وقع ذلك اذا علم انك تدارى على سرقة قام بها غجرى وعاهرة ؟ »

لكن حتى فى هذه اللحظة ، لم يرمش بعينيه ، لم يتحرك ، وقد قال لى فيما بعد

، لم يكن من باب المداراة او الحيطة ، أو ليحدد لنفسه موقف . لكن الموقف كان بالنسبة له وكأن الاحداث تتم خارجا عنهما الى حد ما ، فى نفس الوقت مع استمرار ذلك الشريط السينمائى لتحليق الحمام المفزوع ، وصراخ الاطفال غير المميز والريح الغاضب ، الرتيب بلا هدف ، هناك ، عاليا وسط الاوراق الثقيلة اللامعة ، بحيث انه عندما انتفض ، خارجا من غفلته ، من سلبيته ، قال بصوت محتج - بل واكثر من محتج ، بل واكثر من مذعور - : « لكن ذلك عبط ، لا معقول : انك تعلم اننى مفلس تماما ! » (لكنه لم يعد يسمع ، بل ولا ينصت الى اجابة موريس وهو يقول : « لكنك ربما .. تعرف : سأكتفى بتو .. ») فلقد صعق من غباء الاقتراح اكثر مما صعق من خزاه . ثم اضاف لى : « ربما لو كنا فى وقت أخر لوافقت ، او ناقشت ، او على الاقل لحاولت التحايل ، لكن الموقف كان من العبط : اننى .. او انها .. فقلت : « اغرب عن وجهى ! » . فوقف الآن ، اكثر ضيقا منه متوعدا وان كان قد حاول ان يتعاظم وهو يلوح بورقة المفكرة ، قائلا : « ربما لو علم والدها ... » ، فقلت ثانية : « اغرب عن وجهى ! » ، فقال ايضا : « انك على خطأ ، انصحك .. » ، فصرخت دون ان اهتم بالناس الذين يلتفتون نحونا : « اغرب عن وجهى فورا ، اتسمعنى ؟ اغرب عن وجهى فورا ... »

- ١١ -

حينما دخل ، او بتعبير أدق حينما اقتحم غرفة مونتيس (وقد قال لى مونتيس فيما بعد انه دخل دون ان يعلن عن نفسه ، دون ان يخبط على الباب : فلقد انفتح الباب فجأة ، بعنف ، وكأنه دفع بضربة قدم ، وانه لم يكلف نفسه حتى عناء لف الأكرة ، بحيث انه اذا كان مغلقا بالمفتاح من الداخل لتطايرت الطبلة القديمة بالمفتاح حتى منتصف الغرفة ، ولارتطمت ضلفة الباب بحدة على الحائط الذى تساقط منه جزء من الجبس فوق البلاط حيث تفتت بصوت خفيف ، لا معنى له ، كالانقاض ، او كالعظام الجافة التى تتفتت ـ وذلك بعد ان خيم الصمت ، ووقف موريس فى منتصف الغرفة ، دون ان يتذكر مونتيس انه راد يسير حتى ذلك المكان ، بل ولم يتبين انه سمعه يلقى بتحية المساء بشكل عابر : لم يذكر الا تعبيره السيىء ، الكئيب ، يتأمل مونتيس وهو فى مستوى منخفض عنه ـ لعلها كانت حوالى العاشرة مساء ـ فوق ذلك الفراش حيث وجدته ذات يوم حينما كان مريضا : يتدلى شعره الطويل على جانبى جبهته ، مرتديا جلابية كالتى لم يعد يرتديها الا طلبة المدارس الداخلية فى الريف ، مقفلة الازرار حتى الرقبة ، يحد ياقتها والاساور شريط احمر ، ينظر اليه هو ايضا ، بهيئة مذعورة ، لكنها هادئة ، ممسكا بين يديه الممددتين على البطانية بالكتيب الذى كان يقرؤه فى اللحظة السابقة) ، ومن الواضح جليا انه كان قد احتسى الخمر ، وقد قال لى مونتيس فيما بعد « لم يكن ثملا ، لكن رأسه (الحائر ، العدوانى الى حد ما ، الفاقد العقل ايضا) كان اشبه ما يكون بشخص قد تعدى عياره فى الشرب ، ودون مراعاة انه ولاشك لم يتناول طعامه ، اكتفى بملىء معدته بخمسة او ستة كئوس من الخمر » ، (لعله لم يرتكن بكوعه فى واحد من تلك البارات التى اعتاد التردد عليها ، حيث كان يجد بعض امثاله من ذوى الاناقة الخابية ، بهيئتهم الوقحة ، العناف والبؤساء ، لكنه ذهب الى حانة متواضعة ، حيث كان واثقا الا يلتقى باحد من معارفه ، فوقف بوجهه المثلث النحيل القاسى ، شاحب اللون ، اشبه ما يكون بالاموات وسط اضاءة النيون ، يبتلع وحيدا بنفس ذلك التعبير العنيد ، الشرس والمثير للشفقة ، محتوى الكأس الذى لم يكن حتى يكلف نفسه بأن يطلب من

الجرسون ان يملأه . وانما كان يكتفى بالاشارة بسبابته . او بمجرد نظرة . الى ان القى بورقة مالية فوق حافة البار وخرج دون ان ينتظر الباقى . دافعا الباب بقدمه ، متجها مباشرة الى الفندق . وكان نفس ضربة القدم قد فتحت البابين تباعا . او كان الدفعة التى اتجه بها خارجا من الحانة قد اوصلته مباشرة الى الغرفة التى كان يقف بها حاليا يبدو عليه الاضطراب خلف ذلك القناع الكئيب . وكانه لم يعد يتذكر ما الذى اتى به الى هنا . وقد فك زرار ياقته . واوسع رباط عنقه . بينما راحت تفوح منه تدريجيا رائحة خمر « البرنو » العنيفة) .

ولقد قال لى مونتيس انهما قد ظلا هكذا لمدة حوالى خمس دقائق يتبادلان النظرات ، دون ان يتفوه احدهما بكلمة . وحتى حينما اقترب موريس من الفراش ، دون ان ينطق بكلمة . واخذ منه الكتيب . واغلقه . وراح يقرا عنوانه بشىء من الذهول ، من الفضيحة . من الاهانة المقبضة (ولعلها كانت واحدة من تلك المجلات التى كنت قد رايتها . مرصوصة بعناية فوق الكومودينو . مرجع من مراجع فن التصوير . او شىء ما اشبه بكراسات الدراسات الخاصة بالبحر الابيض المتوسط ، او ربما نشرة الجمعية الزراعية . العلمية والادبية - فلم اعرف له اهتمامات بقراءة موضوعات اخرى) يلقين او يرمين بحركه ليست مدفوعة بالفظاظة . او التحدى . او الوحشية الظاهرية . لكن نفس ذلك العنف الواهن شكلا وبلا سبب الذى قذف به هنا . ثم تركه . مضطربا وغير محددا . ثم يجعله يدور حول نفسه حاليا . ثم يلف . يسير حتى النافذة التى راح يرفع الستارة عنها ، وعندئذ فحسب قرر التحدث (مونتيس كان يراه من ظهره فقط ولم يستطع تبين تعبير وجهه . مستمعا الى صوته فحسب . اصم . عنيف . خجول) وهو يقول : « سبق ان رأيت عاهرات يقمن بتفتيش جيوبك ! لست انصح من غيرى وقد خدعتنى احداهن . لكن ان تستغفلنى واحدة منهن .. من ... »

كانت إيلين هذه . كبرى الشقيقتين (اعرف : ان البعض قد قال توا ان كل ذلك لم يكن الا حكاية من حكايات النساء . معركة من تلك المعارك الوحشية الضاربة لثلاث نساء ادى العناد البارد والتصميم الى أن يفقدن صوابهن . وذلك دون احتساب تلك الحاسة السادسة التى يضفيها عليهن رعب الشعوذة الرجالى . وكأنهن لكى يتمكن من الانجاب أو من اثارة الشر يكفيهن ان يتواجدن دون حتى تكبر عناء التصرف او التحرك : يكفى ان يتواجدن . فى صبر وتأهب . فى ذلك الوضع الخالد لأم الدنيا العريقة الضخمة . العاهرة الخالدة ـ ديميتر او دليلة ـ وقد فتحت ذلك الجوف . ذلك الفخ . او الفوهة النهمة المظلمة حيث يفرق قطيع الخراف ويغنى جيلا بعد جيل . لكن . ربما كان ذلك شديد البساطة . او شديد السهولة) . إيلين هذه . إذن . كنت احاول ان اتخيلها . واقفه بلا حراك فى سمك الزمان (وهو ليس نحيلا . خيطى الشكل . مثل تلك الحبال المجدولة التى ليستخدمها حاملى الرسائل من الهنود البدائيين . مفهوم لزمن احادى الأبعاد تتراص عليه الأحداث الاساسية . الماضى والحاضر والمستقبل . فى تتابع بلا تزاحم . بهدوء . تباعا : لكن على العكس (الزمن) اشبه ما يكون بحمم سميكة حيث تعد اللحظة فيها كضربة بلطة فى الأرض الراكنة . كاشفة عن عجاج عديد من الديدان) . كنت أراها اذن . إيلين . تقف وهى تخطو فى ظل الردهة . وقد توقفت حركتها . اشبه ما تكون باحدى شخصيات شكسبير او اشبه ما تكون باحدى شخصيات التراجيديا اليونانية . غبية عمياء . بوجهها السمح . الدقيق . الهادىء وغير المضطرب (هى التى كان بوسعها ان تكتشف رجلا عاريا فى الغرفة المجاورة لغرفة اطفالها . فى منتصف الليل . بهدوء ليس ظاهريا فحسب ولكن بلا انفعال ايضا . وتبدأ فى الحوار معه . وهى نفسها شبه عارية لا تمسك الا بذلك السيخ الذى تقلب به الفحم . غير مدركة للسخف . او السخرية او لتناقض الموقف . ولا لما يمكن ان تتعرض له من اخطار . او موقف مشين او

فاضح) أو أشبه ما تكون بتلك التماثيل ذات العيون الخالية من الحدقة ، ومن الرؤية هادئة تماما ، تبدو ظاهريا خالية من اى شعور، من اى انفعال ، بل وحتى من اى اهتمام بينما راحت ترقب والدها وموريس عبر زجاج باب مكتب ابيها :
وعلى الجدران ، على صباغة النسيج الحمراء التى اكلتها العته ، مجموعات الاسلحة الصدأة الثابتة ، والبراويز المذهبية اللامعة فى العتمة ، وشخوصها الثقيلة ، النهمة المبطرخة ، يحسدها من اسفل أخر سلالتها ، محتقن الوجه ومبطرخ فى زيه الذى لا يتمشى مع العصر لفلاح انجليزى ـ حلة تبدو وكأنها غلطة من غلطات مسئول لوازم الديكور والذى كان الافضل له ان يكسيه بصدرية من نسيج نانكين ، ورد نجوت وسوالف من عصر لوى فيليب ـ ، مربع ، الشكل جالس فى احد مقاعد المكتب المتحركة والمشتراه على ما يبدو من مخازن المعدات الأمريكية للحرب قبل الأخيرة ، وامامه ذلك الشاب الذى حددت موقعه من اول نظره ـ رغم او بفضل هيئته الواثقة ، وانافته المختارة بعناية ، وحركاته المحسوبة ـ حددته فى الفئة الدنيا المجهولة للعاملين ، لسماسرة النبيذ او المندوبين ، الذين اعتادت رؤيتهم هكذا ، وهى تعبر الردهة ، جالسين بحرص على حافة المعقد المكسى بالقطيفة ، واضعا شنطة من الجلد على ساقيه ، فى مواجهة الرجل البدين مقطب الوجه ، والذى كان حاليا ، محتقن الوجه ، ويحاول جاهدا ان يتمالك ويترك الفرصة لزائره لكى يتحدث (لكن هى ، إيلين ، لم تكن تتمكن من سماع ما الذى يقوله ، فلم يكن اى صوت يصلها عبر الباب ، وبذلك كان المنظر امامها يتميز بشىء خارج عن المألوف ، مقلق وعبثى ، مثلما يحدث عندما ينقطع الصوت عن شريط سينمائى ويجعل الشخصيات تستمر فى الحركة وفى الحياة ، افواه تفتح وتغلق ولا يخرج منها سوى الصمت بينما تعبير الوجوه يتغير ، يتبدل ، يرتخى ، يستنير او يتعكر تباعا بلا انفصام وكأنهم تحت تأثير مخدر او منهك ، كأن الشفاة فى تحركاتها تخرج من الانفاس ، مع الهواء غير المرئى ، شىء ما اكبر من الكلمات ، واصلب من المادة : الكلمات) ، راحت اذن ترقبهما ، الرجل البدين كان يكتفى بتفحص وجه موريس بعينيه الهائجة ، المرتابة اللئيمة ، الغارقة فى الدهون ، وقد تراجع حاليا فى مقعده (على عكس السماسرة المعتادين الذين يجلسون على حافة المقعد بحياء) ، يمروح بعدم اكتراث بقطعة من الورق مستطيلة الشكل ، ثم فجأة ، تختفى عنه البلادة وعدم الأكتراث ، تقدم بجسده الى الامام ، بعد ان كان خابيا ، بينما راح يضع الورقة الصغيرة تحت أنف الرجل البدين الذى قفز ، اعتدل فى جلسته وقد تصلب عوده ، باعدا رأسه الى الوراء كرد فعل للاحتجاج ولتصحيح مدى رؤيته ، ثم وقبل حتى ان يتمكن من القراءة ـ او مجرد ان يتعرف على الخط ـ وان تصل اليد

المرفوعة الى الورقة ، عاد موريس الى الوراء وراح يمروح بها ، وقد غاص فى قعر مقعده فى جلسة اكثر عدم اكتراث وغير عابئة عن ذى قبل بينما ظل الرجل البدين ويده ممدودة فى الهواء ، وقد اصبح وجهه جاليا بلون الجمبرى المطهو (لكنه مازال بتلكما العينين الصغيرتين الشبيهتين برأس الدبوس ، براقتين ، جامدتين ، لئيمتين ، غاضبتين ، بحيث لم ينهض فى قفزة واحدة لكنه نهض بهدوء ، وظل فترة واقفا ، يتأمل زائره وقد اصبح الآن تحت مستوى نظره ، ثم اتجه الى الباب ، وفتحه) ، وعندئذ الأصوات التى لم تكن كفت عن التواجد (اصبحت الأن بالنسبه لأيلين اصوات راعدة ـ وان لم يصرخ احدهما ـ مثلما يحدث تماما عند رفع اليدين بعد الضغط بهما فترة طويلة على الأذنين) :

« ..لايعنينى .. ارجوك ..

ـ اتعنى ؟ قول ..

ـ ان ذلك لا يعنينى .. والآن ارجوك ..

ـلاشك أنك لم تفهمنى جيدا ..

ـ بلا .. فهمت تماما . اتفضل من هنا ..

ـ ربما تتخيل ليست هى التى كتبتها .. ربما تتخيل ان ...

ـ لا أتخيل شيئا .. لقد قلت لك اننى مشغول .. لدى بعض الأعمال . ارجوك ان ..

ـ ومع ذلك فلعلك استطعت التعرف على صفحة هذه المفكرة ...

ـ محتمل .. اتفضل من هنا لو سمحت ..

ـ لكن .

ـ الا ان كنت تفضل ان اتصل بالبوليس ؟

ـ حسنا .. آه ، كأن .. حسنا . حسنا .. لكن ، ربما ..

ـ لا .. الى اليسار ..

ـ ربما اثار ذلك اهتمام شخص آخر ..

ـ تماما : شخص أخر ..

ـ آه ، انصحك ..

ـ تنصحنى ؟ ..

ـ ما علينا ، حسنا ، لكنك ستندم .

ـ لن أدخل ممسكا بالباب مفتوحا لمدة ساعتين . لو سمحت .

ـ حسنا .

ـ لو سمحت ..

ـ حسنا .. ستندم .. ايها الـ .. »

ثم صوت الباب وهو يغلق ، ويستدير والدها ، وقد تحول لونه الى البنفسجى تماما الآن ، واقفا بلا حراك فى نفس المكان ، قائلا : « آه ، أهو انت ؟ هل سمعت ؟ شقيقتك . شقيقتك العبيطة .. اين انت ذاهبة ؟ ..

ـ سأعود ..

ـ اين ..

ـ سأعود حالا ! »

أما بالنسبة لموريس ، وفقا لما قاله فيما بعد ، فقد مرت الأحداث فى ايقاع سريع : خطوات حادة تحاول اللحاق به (لكنه لم يستدر) ، ثم سمع صوتا خلفه (لكن حتى فى هذه اللحظة ايضا لم يستدر) وتبادر الى ذهنه صوت امرأة ، الى ان سبقته ، ووقفت امامه ، قائله بسرعة ، دفعة واحدة ، لاهثة الأنفاس . بينما وقف هو يرمقها بوقاحة من اعلى الى اسفل ، يتفرس وجهها الدقيق ، بملامحه المشدودة قليلا ، ثم راح يخفض نظراته قليلا ، مقدرا سعر الفستان ، والحلية التى ترصع صدرها ، وأكتشف اخيرا بطنها المنتفخ الضخم ، المتعالى ، الهادىء .. « اصغ : ان أبى لا يفقه شيئا فى كل هذا ، انا .. »

هو ـ من انت ..

ـ اختها . ان ابى ..

ـ اختها ؟

ـ نعم .. اصغ : لا يمكننا التحدث هنا ؟ اننا ..

ـ هل هو الذى ارسلك ؟

ـ هو ؟ من ...

ـ العجوز ، قالها بأكبر قدر ممكن من الفظاظة . يطردنى ثم يتخيل الآن اننى ..

ـ لا .. لقد وصلت .. اعنى : حينما كنت تتصرف . وسمعت .. ان ابى شديد العصبية . ما كان يجدر بك .. بالطبع لم يكن بمقدروك ان تخمن . لكنه يجب على انا ان .. » .

ظل برهة يتأملها . مضطربا ، مزودا ، يتساءل عما لم يكن يتبينه ، مجتهدا فى التفكير باسرع ما يمكن (وحينما علمت فيما بعد كيف مضت الأمور ، بدا لى وكاننى اراها ، انا ايضا ، بذلك الوجه الذى لم تفكر ـ أو ان الفكرة لم تطرأ لها على بال ـ ان تجتهد أو تحاول اتخاذ تعبير يتفق مع كلامها ، مع ما قامت به توا :

ان تجرى فى الشارع ، فى وضح النهار ، فى مثل حالتها ، وبطنها يتقافز بثقل امامها ، وقبعتها فى يدها ـ كانت قد خلعتها منذ لحظة عندما دخلت عند والدها ولم تفكر ، او لم تجد الوقت الكافى لترتديها ـ وراحت تنادى ـ ثم تلحق بموريس وتجبره على التوقف وكانت هى فى هذه اللحظة لاهثة الانفاس ، تكاد تنطق كلماتها الأولى بعناء ، دون ان يغير كل ذلك ، او يمس بأى صورة من الصور ذلك البرود أو الغرور الهادىء الاصم والمتكامل الذى كان لا يتفق الى حد ما مع تصرفاتها ، وكأنها وقفت الى الوراء نوع ما ، تنظر الى اتجاه آخر ، تنتظر بصبر وكأنها ترقب احد الخدم حتى يفرغ من القيام بمهمة سخيفة ، مقرفة او مقززة) محاولا فهم ما الذى كان يدور خلف هذه النظرة التى كانت تبدو وكأنها تتجاهل وجوده وان كانت تنظر اليه ، تخترقه ، تنكر وجوده ـ تلغيه . ذلك الوجه البارد ، ذلك الفم الذى يتفوه بكلمات ترضية ـ متواضعة ، دون ان تكلف نفسها عناء تصديق ما تقوله ، فقال موريس فى نفسه : « ومع ذلك فلقد جريت .. وبسرعة . جريت بسرعة بحيث انهكت تنفسها ، وتلك البالوعة البالغة من العمر ثمانية أشهر وربما اكثر والتى على وشك الانفجار ... » ثم اعتلاه الغضب . واجتاحته الأهانة.. فقال : « لك ؟ لكن بما ان والدك الغبى لايهتم بذلك فلا أرى .. » فقالت : « اصغ : اننى مستعدة .. لكن ، لايجب ان نظل هنا ، لنسير .. انهم .. تعال ، لنسير » وفيما بعد (وهما يسيران كشخصين يتنزهان ، هى بخطوات مثقلة وقد هدأت انفاسها ، تقول بصوت صارم) : « لكن ، هذه المرأة من أى نوع تتخيل ؟ فقال « عن اى ... من اى نوع يمكنك ان تتخيلينها ؟ من أى فئة تتصورين ان ملاكما بل وغجريا سيختار لنفسه .. » . فقالت : « تقول : غجريا ، ملاكما ؟ » فقال : نعم : لكن .. ما اهمية ذلك ؟ ان يكون غجريا او زنجيا او حتى .. » . فقالت : « لاشىء ، بكل تأكيد ، انا .. لكن مثلا هل تعتقد انها فعلا رفيقته ؟ اعنى .. » . فقال : « ان كان يضاجعها ؟ أذلك ما تودين قو .. » . هى : « اعنى ان .. » . فقال .. ؟ لم اذهب لارى ذلك . لم يدعواننى . لكن ان أثرتى تصديق عكس ذلك ، فلا أرى اى مانع . ثم لماذا لاتسألين اختك عن كل ذلك ؟ يخيل الى انها .. » هى : « محال ! » .. هو : « ماذا ؟ ما هو المحال ؟ ما الذى اقوله يالهى ! : محال ! .. أتتخيلين ان اختك انسانة شابة حسنة التربية لكى .. فقالت بسرعة : « لا . اصغ . لقد احسنت صنعا . اعنى : بمجيئك . اعنى : ان والدى لايمكنه فهم .. لكنك احسنت صنعا .. اعنى لن تندم على ذلك . سأتصرف بحيث انك .. لكن ! أتفهم : اعرف انها متهورة شىء ما ، لكن كونها .. اعنى : هل انت متأكد ؟ الم تخلط .. اعنى : تصورت شخص آخر .. او اسأت التفسير .. »

فقال : « اسأ .. أه .. مثلا . اسأ ... وهذه ؟ هل تجيدين القراءة ؟ أليس خطها ؟ ايمكنك ان تقولى من اى مفكرة .. ؟

ثم تحرك شيء ما اشبه ما يكون بضربة جناح طائر حركة خاطفة ، غير مادية ، برق لونه رمادى مصفر اعترى وجهه ، اسرع من الحمامة ، واسرع من لطمة الوجه . ثم وقف على الرصيف ، مذهولا . كألابله ، ينظر بغباء الى يده الخالية ، بينما كانت هى ترتب من وضع ياقة ثوبها بهدوء ، وتربت عليها بأصابعها المرتدية القفاز ، تربت على كسرات الفستان التى وضعت تحتها ، وضعت تحتها .. وبعد فترة قصيرة (وقد جاهد ان يظل هادئا ، جاهد الا يرفع صوته ، ضغط على اسنانه ، يفتح شفتيه بغباء ، واختمر فى رأسه ذلك الشعور بان هناك شيئا ما على وشك الأنفجار ، التفتت) استطاع ان يقول : « اعيديها لى ! » . وعندئذ ، ودون حتى ان تضحك ، دون حتى ان تبدو عليها ايه علامة للأنتصار ، للسخرية قالت بصوت محايد ، لاطابع له : « اعيد اليك ماذا ؟ ! » فقال : تلك الورقة . تلك الكلمة التى كتبتها اختك العاهرة .. هيا . بسرعة . أتسمعين ؟ أعيديها .. » فراحت تتفرس وجهه . لحظة ربما كانت خمس ثانية . صوبت نحوه تلك النظرة الباردة ، الخالية من التعبير ، لم تكن حتى نظرة احتقار ، بل ولا قرف ، وقبل ان تحيد بنظرها كانت قد كفت عن النظر اليه ، محته ، القت به فى عالم يبدو شكلا انه لم يقربه من قبل ، ثم استدارت اخيرا كلية بينما راح هو يرمق الشارع حولهما بنظرة خاطفة ، يائسة ، احاط بها الطريق ، والمارة ، وفناء المقهى بكل الجالسين يحتسون المشهيات ، وعندئذ ، ومازالت اسنانه ضاغطة على بعضها قال : « ايتها القذرة ! » ثم قال : « يابنت ديـ ... » ثم : « ايتها العاهرة الوغدة ! » ، ثم راح يكررها ، ويعيدها صمتا وهو يراها تبتعد ، بهيئة مثقلة ، متعالية ، هادئة . مرفوعة الرأس ومستقيمة ، وهى تختفى هناك ، عند طرف الشراع ، بين المتنزهين مساء .

وكان مونتيس يفكر : « لكن ترى لماذا يقص على كل هذا » ؟ وقال لى انه ظل هناك ، بلا حراك . فى نفس الوضع الذى كان عليه حينما فتح الآخر باب الغرفة بضربة قدم وصفقة على الحائط ، لكن يداه كانتا خاليتان الآن . ممدودتان على الملاءة فى نفس المكان الذى سقطتا فيه انتزع منهما موريس الكتيب . بينما ظل موريس لحظة وكانه متحجر . ماخوذ . يتطاير الشرر من عينيه ، ومذهول ، يعيد ويستعير نظره على العنوان ، على الكلمات ، على الأحرف المطبوعة بلافهم ، ودون ان يتمكن من التصديق ، واخيرا تمالك ، والقى بالكتيب بعصبيه عارمة فى نهاية الغرفة .

انه يصف لى هذه اللحظة : كان قد توقف ، توقف وسط ذلك الغضب العارم ، الطوفانى (وربما الغثيانى) ، او بتعبير ادق ذلك الغضب العدوانى . ففى الواقع كان الوضع اشبه ما يكون بذلك : لقد جرى مباشرة من الحانة حيث قذف فى جوفة ثلاثة او اربعة كئوس من « البرنو » الى الفندق ، والى الغرفة ، وكان معدته الخاوية تمتلىء بالكحول . كانت صورة الغرفة ، ومن فيها ، تتكون تدريجيا فى مخيلته . مثل الرموز نفسها ، لكى أصل ان لم يكن لسبب الفشل الذى لاقاه توا ، او لشعوره بالاهانة والخجل .

ظل واقفا اذن ، كالمخنوق ، غير قادر على التحدث ، يحاول ولاشك ان يصدق حقيقة او واقع ما قرأة (عنوان تلك المجلة) كما كان يحاول ان يصدق الواقع الذى تراه عيناه : سرير طلبة الداخلية (شبه جنائزى : الملاءة مرتبة تقريبا ، لايكاد الجسد يرفعها ، مرتبة ، مسطحة ، حتى ابطيه) ، وجلابية طلبة الداخلية ، بوجهه المبتئس ، الهادىء والذى يوجد به تحت حاجبين غليظين ، عينان دائمتا التفكير والحزن ينظر اليه دون ان تحاول اليدان التحرك لتأخذان ما انتزعه منهما - الى ان طارت المجلة خلفه ، ولم ينظر حتى اين سقطت ، ولم يعتذر ثم نجح فى انتزاع نفسه ، فى ان ينسحب من ذلك الاغراء (او لعله اجبر على الانتزاع ، من جراء تلك الثورة الداخلية ، من اعصار الغضب الذى يجتاحه ، من ذلك الحزن

الغارق فى شراب «البرنو» . وبدأ يحكى له حكايته . اى . بقول اخر . بدأ يخرج ما بنفسه . ان يلقى به فى وجهه . لا اكثر ولا اقل كأنه لم يكن البادىء بسرقة البضاعة التى حاول بيعها والتى قد سرقت . فلم تكن محاولته الا محاولة لابتزاز الاموال مسبوقة بمحاولة مساومة مع نفس الشخص الذى جاء ليصرخ فى وجهه باهانته وبغضبه من أنه ضحك عليه . وكأن هناك مؤامرة تربط فى ذهنه بين مختلف شخصيات الموضوع الذين انابوا عنهم من هو اكثرهم خيانة ولؤما لتجرده ، ولاشك ان الكحول المبتلع بكثرة كان يؤثر حاليا بصورة مقيتة . لا على المعدة وانما على ذهنه . وقلبه . محركا كل ذلك القىء فى شكل تلك الخطبة غير المترابطة التى كان يرتجلها . خالطا مابين شذرات مغامرته . وتهديداته . وشتائمه العدوانية ، الصارخة . المغالية والمقلقة .

ثم صوت الباب وهو يخبط بشدة . ثم الصمت . ومن الخارج . لم يعد يأتى . إلا صوت الريح المنسى .

ان صوت الحفيف المتقطع الناعم وهو يحتك بالجدران كان اشبه ما يكون بخطى لص منتعلا حذاء قماشيا ويهرب ملتصقا بالجدران مثلما يهرب الزمن . يهرب نهائيا ، كالدماء وهى تنساب من جرح فتفرغ الجسد . والحياة . فى يأس بطىء ، ومن مكان ما يأتى صوت خبطات ضلفة شيش غير مغلقة تماما او شىء يتدحرج ، مثل طوبة جمالون تتساقط . بلكونه . ارضيات . ثم لاشىء ومونتيس مازال فى نفس الوضع . (لم يكن قد تحرك قط . لم يفتح فمه . لم تبدر عنه اية حركة) . كان هو الآن ينظر امامه الى المكان الذى كان يتحرك فيه الدخيل . بتوعداته وحركاته ، الجدران عارية رمادية . خالية . لكنه لم يتحرك اكثر من ذى قبل ، ولم يفكر حتى ليقوم ويأخذ المجلة ويعاود قراءته . وقال لى انه لايذكر حتى انه مد يده ليضغط على زر النور . فلم يكن يرغب فى النوم : لم تكن الا رد فعل ، حركة آلية . وببساطة اظلمت الدنيا . وهو مازال ممددا . وان عاد ذراعه الى وضعه فوق البطانية . وجسده لم يكن فى وضع نوم او استرخاء وانما مستقيما . متخشبا ، كالجثة . القدمان مضمومتان . العينان تحملقان فى الظلام . وبعد فترة . بدأ يميز مستطيل النافذة الفاتح بعض الشىء . بينما ظلال اغصان شجر السنار المتداخلة تتراقص بلا هوادة على سقف الغرفة .

قال لى انه لم يكن يفكر فى شىء بالتحديد . ولا حتى فى روز . أو فى اى شخص آخر بالتحديد . ولا حتى فى اخر من راه فى ذلك الاقتحام الخاطف . العنيف . المضحك والمحزن . فلا يوجد . على حد قوله : افظع من الشخص الذى يتخبط باحتساء الخمر وتوجيه الشتائم ضد قرفه) والذى بدا وكأنه انبثق

من صمت الليل واختفى بنفس الطريقة ، وقد تم ابتلاعه أو امتصاصه بنفس الطريقة : كأن شيئا أخر ، شيئا اكبر من الشغف ، من الرغبة او الاحباط ، بل واكبر من اليأس . « اشبه ما يكون بالموت ، كأنني ببقائي ممدد ، بلا اية حركة ، وبلا اية افكار ، وقد انجح في ايقاف كل شيء ، وان يكف العالم نفسه عن الدوران ، ليتوقف اخيرا .. وبالطبع .. لم تكن لدى اية فكرة ، لم اكن اتوقع بتاتا كل ما حدث ، وما كان يحدث بالفعل ، او بدأ يحدث ووصل الى مرحلة الحل النهائي ، وكأنه وصل الى المرحلة الأخيرة الشبيهة بالولادة البطيئة المعقدة التى كادت تنفرج .. لا .. ان كل ما كنت اشعر به كان مجرد تعب ، لكنه تعب مهول ، غير محتمل ، لدرجة المعاناة ، لدرجة التمنى بكل قواى ان اموت ، ان اموت حقا ، وان ينتهى كل شيء ، حتى ان ينتهى كل شيء لكى استريح ، ولا اى شيء أخر ، لاشيء سوى ذلك التعب .

ولا تتخيل اننى كنت افكر فى الانتحار : فالانتحار مازال عملا من اعمال الأحياء ، ولم يكن فى مقدورى الا ان اكون سلبيا ، بل ولا حتى السلبية ، الا افعل سوى ان اتحمل ، فقد كان تعبى اكبر من ذلك ، ليست شجاعتى او مقدرتى ، او رضوخى للمعاناة ، لكنها قواى ، لم اكن قد احتسبت شيئا (فلو شعرت بالرغبة او واتتنى مجرد الفكرة ، لفعلتها) ، ومع ذلك فقد خيل الى ان كل شيء يدور ، والشيء الوحيد الذى كنت اتمناه حاليا (ولا اعنى التمنى : فالمرء لا يتمنى حاجة ، أو ضرورة ، أو الحاح) هو ان يقف كل شيء بأية وسيلة ، لكن ليتوقف بحيث عندما اجتزت هذا الباب ، حينما رأيته - اعنى الملاءة : كان الجسدان ارضا وكانوا قد انتزعوا احدى الملاءات وألقوها عليهما ، ولم اكن بحاجة الى رفع طرفها لأرى ما الذى تحتها - وفى هذه اللحظة ، كل ما كان فى مقدورى ان افكر فيه هو : انها ماتت ، حسنا ، حسنا .. انها محظوظة » .

وقال لى : لأن ذلك حدث هكذا على اية حال هذا هو ما عاشه ، هو : عدم التوافق ، تلك المواجهة العنيفة ، اللا معقولة شكلا ، وكل هذه المشاعر والوجوه ، والكلمات ، والأفعال ، كأنها قصة ، يتصف ترتيب الجمل بها او اجروميتها - الفعل ، الفاعل ، المفعول - بأنها ناقصة مثلما يحدث لأى مقال فى الجريدة (الأحرف المتراصة برتابة ملولة رمادية كئيبة ، والتى تؤل اليها كل احداث العالم) حينما ننظر صدفة الى ورقة ممزقة قد استخدمت فى لف حزمة كرات ، وعندئذ تدب الحياة بشكل متعال مستقبل ، بفضل سحر بعض الأسطر المبتورة الناقصة ، لتصبح ذلك التداخل غير المنظم ، بلا نهاية ، ولانظام ، كلمات تتفجر بحكم انها فصلت وتحررت عن قاموسها ، بعدت عن تلك الرتابة الكالحة ، عن ذلك

الاسمنت الذى يحشون به اى شىء والذى يستخدمه المحرر كالصلصة . كالصلصة البيضاء اللزجة ليلصق الموضوع اجمالا بقدر الامكان ، بحيث يصبح قابلا للهضم ، او يلصق اجزاء عابرة متناثرة لشىء لا يهضم مثل رزمة ديناميت او حفنة زجاج مجروش : وبفضل ذلك (او بفضل عالم النحو والصرف ، او المحرر المسئول ، او الفيلسوف العقلانى) يستطيع كل منا ان يبتلع كل صباح ، فى نفس الوقت مع وجبه الأفطار ، نصيبه المهدىء من جرائم القتل ، والعنف والجنون المنظم ، بصرف المنظر عما اذا كان ذلك يعجبه ام لا (وظاهريا ، وعلى عكس مايفكر ، فان ذلك لا يعجبه) ، ويلجأ استكمالا الى تحضير الأرواح ، والتنجيم فى القهوة ، وايقاد الشموع ، ورسل السماء او رسل مستشفى المجانين .

فى كل قصة اذن ، او فى كل مرة حدثتى فيها فيما بعد عن هذه الأيام (فلم يقص على من كل هذا الا شذرات ، تدريجيا ، وليس على هيئة قصة متماسكة وانما وفقا لشتى التفاصيل التى تتبادر الى ذهنة ، دون ان أدرى سببا ـ مثلما لا نعرف ابدا تماما ما الذى يدفع بالذكرى المدفونة فى مكان ما من مخبأ الذاكرة تطفو عنيفة وغير محتملة ، لكنه كان يلغى الزمن ، الشعور نفسه ، اللحم والمادة ، الغيور ، المتحكمة ، المتسلطة) ، فكان يبدو وكأنه ينتقل بلا مقدمات من تلك الليلة التى أتى اليه موريس يقذف فى وجهه بتهديداته على رائحة خمر « البرنو » الى تلك اللحظة التى كان يدفع فيها الشرطى الذى يسد له الطريق (الشجار الخاطف ، بل ولا حتى شجار : فكان الشخص يقول : « عندك » ، وثانية : « الى اين انت .. » ، وهو لم يكن حتى يحييه ، ليس تبجحا او لؤما ، لكن لانه لم يكن حتى سمعه ، مثلما لم ير هيئته المربعة فى الردهة ، مثلما لم يشعر باليدين ـ يد واحدة فى الأول ، ثم الثانية ـ وهما تحاولان الأمساك به ، وتعثران عليه تحت معطف المطر .

مثلما حاولا الامساك بموريس منذ يومين ، وقبضا على ذراع نحيل فى حجم ذراع الأطفال ، وافلت منهما ، ليس انزلاقا ، او هروبا وانما بالقوة : بهزة عنيفة واحدة ، جافة ، حادة ، امتدت كالزنبرك ، وذلك دون ان يبدو عليه انه يلتفت لما يقوم به ، ودون ان يكف عن السير ، بل ولم ينظر حتى الى من كان يحاول القبض عليه ، فقد ظلت عيناه مصوبتان على الباب هناك ، وقذف بالرجل الى الحائط ببساطه ، مثلما نستبعد ذبابة ، فقد قال لى انه لم يلحظ اى شىء ، لم يدرك حتى انهم كانوا من رجال البوليس ، ولا حتى انهم يوجهون اليه الحديث ، بينما كان هنا ، ساكنا واقفا ، ينظر الى تلك الملاءة عند قدميه والشكلان الممددان تحتها ، الى ان اخذ تلك اللطمة على وجهه والتى انفجرت فى رأسه كالصاروخ .

فتأرجح ، تراجع الى الحائط الذى ارتكن اليه ، بينما كان الشخص البدين يصرخ فى وجهه : « اننى اسألك لثالث مرة ما الذى أتى بك الى هنا ، هل تتخيل اننى سأكرر ذلك حتى الغد ؟ ») ، فاقتحم الغرفة الوحيدة التى كانت روز تعيش فيها مع الطفلتين والغجرى .

كان ذلك فى اليوم بعد التالى وقد مضى ليلة بأسرها ، ثم يوما ، ثم ليلة اخرى . لكن ربما لم يكن مدركا تماما ، ربما ظل واقفا فى ذلك الوضع طول هذه الفترة أو فى حالة الجثة التى كان عليها (رغم انه نهض ، وارتدى ثيابه ، ونزل لتناول الأفطار ، وقام بما كان عليه القيام به) منهكا ، متهالكا ، على حافة المقاومة ، ليس الجسدية ، وليس المعنوية (لم تكن دناءة موريس . ولا ضربات الملاكم ، ولا ذلك الكبت اليائس من العاطفة : « كل ذلك لم يكن الا معاناة ، على حد قوله بغرابة ، كما أن الذهاب عند طبيب الاسنان ليس من الامور المسلية) ، لكنه كان على حافة المقاومة العقلية : نوع من عدم الرغبة الذى وضعه فى حالة استحالة الاستيعاب ، ليس الطعام (فقد قال لى أنه أكل ، وان كان غير قادر فى اللحظة نفسها ان يقول ما هى نوعية الطعام الذى يبتلعه ولا ما هو طعمه) ، الا ان العالم الخارجى قد اصبح عبارة عن شىء لاشكل له ، مثلما فى رواية بلزاك وذلك المصور الذى من شدة رغبته فى الدقة والأتقان لم ينجح الا فى عمل لوحة ملطخة خالية من أى معنى : « حسنا . هل انتهينا » ، ولم يفكر حتى « ما الذى حدث ؟ كيف حدث ذلك ؟ » ، او اقل من هذا القول : « يا للفظاعة » ، متقبلا الوضع مثل بقية الأشياء لا اكثر ولا اقل ، اى مثل الهواء الذى يستنشقه ، مثل تنفسه ، او مثل كونه يعيش ، يضطر يأكل ليظل على قيد الحياة ، ينام ، يستيقظ ، ينام ثانية ، يغير ثيابه ، يعيد نفس الحركات صباحا ومساءً بين اشخاص أخرين يكررون أيضا نفس الحركات ، يغتسلون ، يذهبون الى المكتب ، او ينبشون الأرض ، يأكلون ، ينامون ، يستيقظون ثانية ، وفى النهاية يموتون . قال لى انه كانت توجد بقعة داكنه على الملاءة ، بينما امتلأت الغرفة بالذباب ، لكن الذباب كان يوجد فى كل مكان منذ ان بدأ الجو يميل الى الحرارة ، ولم يقم بأى ربط بين الذباب وما كان يوجد تحت الملاءة ، ويجعلها تنبعج ، كما لم يربط بين البقعة الداكنة وفكرة الدم ، وان كان يعلم تماما ان هذه البقعة لايمكن ان تكون الا بقعة دم . لكن مرة اخرى ، لم يكن الامر اقل او اكثر احتمالا من بقية الأشياء . وعندئذ تلقى اللطمة على وجهه . وقال لى ، بطريقة ما ، ان ذلك كان من حسن حظه . وقد شعر بالامتنان تقريبا لذلك الشخص البدين . لانه ، لولا تلك اللحظة ، كان

سيصاب بالجنون ، ليس من المعاناة ، على العكس ، بل على حد قوله ، من قلة المعاناة . او ربما كان الموقف عنيفا ، شديد العنف ، مثل تلك الجراح التى يقولون انها تخلق مسكناتها بنفسها ، وقد افادته هذه اللطمة ، ايقظته : قال لنفسه (وهو ممسك بوجنته الملتهبة ، مجتهدا بعناء ليحاول فهم ما الذى كان يصرخ به رجل البوليس فى وجهه) انه مازال بمقدوره ان يشعر ، ان يحس بشيء ما ، أن ينفعل ، حتى وان لم يكن الا رد الفعل البدائى للطفل الذى يرفع كوعه خشية الحصول على لطمه اخرى ، وظل يراقب يدا رجل البوليس ، فلاحظ اظافرة التى يحدها السواد ، شديدة الطول ، على هيئة المعول ، واكوام الشعر التى تعلو فقرات اصابة ، ودبلة الزواج ، ففكر فى نفسه : « اذن ، انه متزوج . يحب . وربما لديه اطفال هو ايضا .. » ثم تحركت اليد ، لكنها أمسكت به هذه المرة فى بطنه ، وبينما كان يندفع على الحائط وكأنه كان يتمنى ان ينزوى بداخله ، يحفر فيه ، يختفى ، راح كل جسده يتقوقع فى انتظار اللطمة القادمة . لكن شيئا لم يحدث تذكر انه شاهد يد رجل البوليس الآخر وهى توضع على الذراع الممدود . ثم اختفى الذراع والرجل البدين من محيط رؤيته ، ليحل محلهما (مثل تلك الصور الثابته المعروضة على الشاشه ، عندما تسحب جانبا لنترك المكان للصورة التالية) وجه بشارب صغير اشبه بفرشه الاسنان ، نحيل العود ، شاب وفى ذلك الوجه عينان تفحصانه باهتمام .

لم يكن قد تعامل مع رجال البوليس حتى ذلك الوقت . وقال لى ان هناك ، حيث يعيش ، فى قريته الصغيرة حيث الجميع يعرفون بعضهم بعضا ، لايوجد الا غفر الدرك . ولاشك ان ذلك (بالاضافة الى الحقول الخضراء ، والنهر النائم ، والخطوط الطولية لأشجار السرو) يمثل جزءا من النظام ، والتوازن ، الذى يتعلق به (او حاول الأعتقاد ، او كان قد قرر الالتزام بذلك ، وكأن بشكله الشبيه بالغرقى ، ووجهه الحزين البالى مبكرا ، شديد الطيبة وشديد الهدوء ، لم يكن يمثل عكس ما يتصوره . لكن ، ماعلينا : فقد كان هناك غفر الدرك للشكاوى ضد اللصوص ، ومبنى البلدية للأحوال المدنية ، والكنيسة لكل الباقى . شيء اشبه ما يكون بالمثلث ، بالثالوث ، مع ذلك المتشرد الخالد الوحيد العازف على ألة الكمان الذى يمضى به من حين لآخر (خاصة ايام الشتاء) . ويحصل على مساعدة من البلدية ، ويمد كاسكيته يوم الأحد على باب الكنيسة ، بالأضافة الى بعض حوادث سرقة التفاح ، وخطف الأحاد غير الضارة حول الموضوعات التقليدية العامة للأبن الضال والحمل التائه ، ومناقشات مجلس البلدية فيما يتعلق بمشروع نافورة او اعمال الطرق . كما انه لم يسبق له ان واجه الموت العنيف من

قبل . ولايعنى ذلك انه يجهل الموت فى حد ذاته (فلقد حكى لى ذات يوم . انه راعى والدته طوال فترة احتضارها الطويلة . ثم اودعها وسط الزهور . بين العبير العنيف ، الحاد والجنائزى لباقات الورد ، بذلك الشكل المعتاد للجاد المتصلب ، المتعالى الى حد ما ، المعادى نوعا والمحتقر الذى يبدو ان معرفة أو حيازة سر ما تضفيه على الجثث او على الأقل ما تضفيه الراحة ، راحة الضمير للراحل المسافر وقد وصل الى نهاية المطاف ـ او حتى وهو مستمر فى اسفاره فى عالم المجهول حيث يبدو ان المرء يدخله وهو مندهش . وقد تخلى عن رغباته ، وارتدى افخر ثيابه ووضع فى صندوق فاخر مثل تلك الرسائل التى تهتم البائعات بالمحال الكبرى بوضعها داخل علبة اسطوانية الشكل ويرسلونها فى انابيب عبر اعماق غامضة) الا انه لم يواجهه (الموت) الا كنهاية فى حد ذاتها ، كخاتمة تأتى لتضع حدا لمشوار متطور ، وربما كان اليما . مأساويا ، لكنها خاتمة معترف بها ، مقبولة ، تأتى بعد سلسلة من التطورات التقليدية (مثل الحشرات ، والضفادع ، والشرنقة ، والحوراء ، والشجرة السليب . والشخص البالغ ..) ، فالمرض ، حتى وان كان مبكرا ، حتى وان كان قصيرا ، ليس الا طور من هذه الأطوار ، مجرد عملية اسراع لمرحلة الضمور الاجبارية الطبيعية التى تمثلها الشيخوخة ، مثل وفاة جندى او حتى شخص مدنى فى انفجار وقد سبقته مرحلة اعداد (تجنيد ، حالة حرب) ، والتى مثلها مثل المرض ، يمكن اعتبارها كالفصل الأخير ، الردهة ، قاعة الانتظار لما يسبق النهاية ، او ان أثرنا ، الانتقال الى وسيلة حياة اخرى : هى اشبه ما تكون باحدى هذه التراجيديات الكلاسيكية ذات النمط الثابت ، ذات البناء الثابت ، ذات المراحل والنهايات الثابتة ، والتى امكن تشبيهها بمصارعة الثيران بمعنى انه اذا كانت النهاية (موت البطل) معروفة مسبقا ، فلا يمكن ان يتم ذلك الا مراعاة لبعض الشكليات ، اى بعد اتمام بعض الطقوس ، وبعد عدد معين من الفصول ، والمقاطع الطويلة ، والصراخ العالية ، بحيث ان اى متفرج تأخر فى الحضور يمكنه ان يسأل احد الذين حضروا قبله ، ولا يكون السؤال : « ما الموضوع ؟ ما الذى حدث ؟ » ، وانما ببساطة : « نحن فى اى جزء ؟ » ، مدركا فورا ما هو الجزء المتبقى لمشاهدته ، بل هو بحاجة ان يسأل : اذ ان مجرد رؤيته لتعبيرات الممثل . وحيوية الردود او حالة الثور يدرك الموقف .

لكن هذه المرة ، على حد قوله ، كان ثمة شىء لا يسير كالمعتاد . لاتوجد زهور : مجرد ملاءة ، ولاتوجد نهاية ، نتيجة : وانما انقطاع . كأن النور قد انطفأ فجأة قبل نهاية الفصل ، فى منتصف اجابة احد الاشخاص ، ثم يظهر الملقن

على خشبة المسرح ، ممسكا الستارة بكلتا يديه ، قائلا : « انتهى . اتفضلوا » ، ولكى يثبت قوله يفتح الستار ثانية وبدلا من الديكور الذى كان يوجد منذ لحظات ، بدلا من القصر ، والمعبد ، لا يوجد سوى المسرح خاليا ، الحائط الرمادى المتسخ فى الآخر ، الفراغ ، وعامل واحد بجوار الحائط ، ينتظر تحرك الجمهور ليطفىء ما تبقى من انوار . ثم ذلك وكأنه لم تراع آية قواعد . ولا حتى الصراخ ، ومدة الانتظار ، ولا حتى المهابة ، او اقل قدر من الاحتفال (وقد رفع رجل البوليس البدين منكبيه وارتكن الى قطعة موبيليا وراح يدخن ، وبينما كان الثانى ، ذو الشارب الصغير ، يتحدث ، رفع منكبيه ايضا ، ولاشك انهما يخصان الجثتين بهذه الحركة) ، بل ولا حتى الوقت : وكأنه دفع على عجل عن شىء اكثر سرعة منه ، يحاول جاهدا وبلا جدوى اللحاق بشبح الغجرى وهو مازال يجرى (مدفوع ، بالدافع الغرائزى ، وردود الفعل الاجمالية العريقة لجنسه البشرى : يقفز ، يضرب ، يهرب) وقد اصبح حاليا بعيدا تماما عن المنال بما انه مات ، ومازال (شبحه ، ذلك المندوب الذى يمثله فى العالم الآخر) ، مدفوعا بانطلاقته ، وجريه الرهيب الذى بدأ فى اللحظة التى قفز بها عند رؤية رجال البوليس (البرق ، حركة واحدة ذهابا وايابا ، وقد عاد الذراع مكانه قبل حتى ان يتحرك ، وكأن ملامسة اليد الخاطفة بصدر المرأة لم تكن الا خيالا ، وكأنه حتى لم يصفعها ، ما كاد يلمسها ، فتبدو ، اليد والسكين ـ او على الارجح بلا سكين ، فلا وقت لذكره : مجرد بريق معدنى ، نحيل ، بارد ، يكمل قبضة يده بينما كان (الغجرى) يهجم على الباب ، بلا ضوضاء ايضا ، وبلا صراخ : فربما لم يكن هناك متسع من الوقت لذلك ايضا او ربما الوقت لم يكن لديه وقتا لنقل هذه الأصوات ، مكتفيا بتسجيلها ، بتخزينها ليعيد تكوينها فيما بعد . فى تلك اللحظة التى تلى ما حدث مباشرة والتى يبدو فيها كل الاتجاهات تبدأ تباعا فى العمل ، وينفجر كل الضوضاء عندئذ ، ينساب مثل شريط الصوت لفيلم قد تعطل لحظة : ضجة فجائية : تداخل اصوات قبيح ، ترتفع فيه طلقتان ناريتان . بصوت لا يزيد عن طرقعه الباب ، بحيث مرتا تقريبا دون ان يلتفت اليها احد وسط الضوضاء (الأصوات . النسوة فى اروابهم ، شعورهن منكوشه ، وجوههن فزعة . يملآن درابزين السلم) : طلقتان خاطفتان ، لا معنى لهما ، متواضعتان . عكس الابهة ، والهيبة الاحتفالية ، اشبه بلا شىء ، وبعد ذلك جسد الغجرى ملقى ممددا بطوله فى الردهة ، انفه مكفى على رزم النقود ، بطريقة لم يكن اى ملاكم ليخادع ليتفادى اصابته بالضربة القاضية ، ورجل البوليس الثانى يخرج من الغرفة ،

بينهم الى الشخص الذى اصابه . قائلا : « لقد مر .. » . فإنك : « انك تتحدث عن هلفوت ، وماذا ؟ » ، ثم قائلا وهو يشير بحركة من ابهامه ، فوق كتفه « لا داعى لاستدعاء عربة الاسعاف : لانها هى ايضا انتهت » ، ولا شىء اخر .

وفى الجانب الأخر من فناء مبنى الثكنات القديم . كانت الشمس بدأت تلامس قمم بواكى الطوب ، تصبغها بلون برتقالى . حيوى . مرح ، وفى مكان ما كان هناك عصفور كناريا يغنى وكانت الجدران تردد الصوت ، وحيدا ، نضرا ، وانتفض مونتيس ـ فقد قال لى انه مازال لا يشعر بأيه معاناة . كان يعيش فى تلك الحالة حيث تنعدم العواطف التقليدية ، وتفقد الكلمات معانيها التقليدية . لا اكثر من « خوف » او « بأس » او « هلع » . فاخفض عينيه . والتقت نظراته بالملاءة ثانية ، كانت واضحة ، لايمكن اغفالها ، واسفلها . تلكما الهيئتان الممددتان على البلاط البارد مباشرة ، ولاشك شبه عرايا . مثلما كانا حينما خبط رجال البوليس على الباب ، هو الغجرى ، ربما كان حافيا . وقد ارتدى بنطلونه بسرعه على قميص من تلك القمصان البيضاء الخالدة لم يقفل ازراره ، بل تركه مفتوح الصدر على شكل رقم سبعة كاشفا عند صدره الداكن بلون كعكة البهارات ، وكانت هى ترتدى قميص نوم باهت اللون ، شفاف من كثرة الغسيل ، وكثيرا ما كانوا يرونها وهى ترفه اثناء ساعات فراغها بعد الظهر ، بوجهها الذى يحمل بقية آثار اصابتها بمرض الجديرى ، مما كان يجعلها تشبه تلك التماثيل القديمة المشوهة المعثور عليها فى قاع المحيط ، وتحت الانقاض ، وجسدها الضخم غير المتساوى ، الناصع وصدرها الناصع ، الضخم ، المتعرج ، وقد تدفقت الحياة من طرفيه اللذين بلون البنفسج الفاتح الباهت ، الخشن . والجاف حاليا . وفوق الحوض كانت هناك زجاجة لبن مزروع فيها زهرة ليلك شبه ذابلة . واسفل الحوض قطعة نسيج حمراء اللون منشورة على حبل . كانت ولاشك تخفى بعض الآنية القذرة او صندوق القمامة . لم يكن قد دخل هذه الغرفة من قبل وراح الآن يتأملها (لم يكن محتواها مقززا ، ولا شديد البؤس : مجردا ينم عن الفقر . لا اكثر ، اى كان ينبعث عنها تلك المهابة ، او الصراحة . التى تنعكس من الاشياء ذات الطابع او الدور الاساسى ـ لم تكن « المائدة » ، و « الاناء » ـ) وكانت ارضيه المطبخ من البلاط ، عارية . وبلا اى اثر للتراب . والجدران عارية . مدهونة باللون الازرق ، بالجير ، يحدها سوكلو بنى ، وبه بعض قطع من تلك الموبيليا المشتراه من سوق الكانتو ، لكنها نظيفة . اعيد طلاؤها . البوفيه ذو الارفف لونه اصفر داكن يميل للأخضر ، والارفف نفسها مغطاة بورق قصت اطرافه بشكل زخرفى وعليها طبقا زينة ليست من الأطباق القديمة او النادرة . لكنها مزخرفة بوحدات من الزهور

ومجموعات من الفاكهة . بالاضافة الى زجاجتى « عرقى » اسبانى من الزجاج الملون الرخيص ، تمثل الرسوم التى على احداهما مصارع ثيران بمعطفه الاحمر القانى ، والزخارف الذهبية تعلو حلته وقبعته السوداء . والزجاجة الثانيه .. عليها رسم راقصة ، كما كان يوجد فرن من المعدن المصبوب بشعلتين ، سوداوتين ، منخفض الشكل ، وكأنه محنى الظهر . باقدام قصيرة مقوسة . وقد وضع امام المدفأة المصنوعة من الخشب (مدهونة هى ايضا . مثل سوكلو الخبران ، باللون البنى) وهى عارية تماما الا من قست لبن من الالومنيوم موضوع على اليمين ، وكذلك المائدة المستديرة المغطاه بالمشمع المتشقق . اصفر اللون ، برسوم زرقاء وحمراء تقلد احد المناظر الطبيعية الشرقية من النخيل والاهرام. ونسوة حول حنفية المياة ، وفرسان ، وفى نهاية الغرفة اشبه ما يكون بالخلوة ، تحجبه ستائر وردية اللون . باهته ، مزدانه بورود صغيرة . يحيط بها اربعة مقاعد . وعلى الحائط نتيجة من نتائج البريد وبجوارها صورة فوتوغرافية مكبرة (وجهان احدهما بشارب وسط هالة شاحبة . لكنه لم يكن وجه روز ولا الغجرى) معلقة فى اطار بيضاوى اسود (قرب السقف . فقط لاغير) . وكأنه يحاول ان يتشبع منها ، ان يستخوذ عليها ، الى اللحظة التى ادرك فيها وكأنه كان يضاجعها جثه ، وقد تقبل هذه الفكرة لأول مرة ، على حد قوله وهو يفكر : « هل كان يجب ان انتظر موتها لكى اضاجعها ؟ » . وفكر ايضا : « وكم كان بمقدورنا ان نقوم بذلك بمنتهى السهولة ! » ، ولم يشعر باى حرج من هذه الأفكار ، ولم يحاول ابعاد هذه الصور ، والأفكار ، ولا حتى (حينما ادرك) حينما شعر برغبة فى الضحك ، كان هناك شيئا ساخرا بائسا يهز كيانه ويلوح امامه كمن يهش ذبابة ،

فحاول ان يوقف تلك الدغدغة التى تعترى وجنتيه وهو يكرر للمرة العاشرة لرجل البوليس (كان الآن جالسا على مقعد . منذ فترة ما ، على حد قوله ، لانه لاحظ فى مواجهته ، فى الجانب الآخر من الفناء ، ان الشمس قد مالت لتلامس الصف الثانى من البواكى ، واضفى وهجها على مجموعة من علب المحفوظات المستخدمة كأوانى للزهور وبينها بقعة حمراء لزهرة جبرانيوم . كما لاحظ دخول وخروج اشخاص عدة مرات ، لم يكن بينهم الرجل البدين او ذى الشارب ، اشخاص أخرون ، لكنه لم يلتفت اليهم . بل ولم يشعر بالحاجة للنظر اليهم ليدرك انهم لم يكونوا الا اشكال اخرى من نفس نوعية الشخصين الآخرين ، يروحون ويجيئون فى الغرفة ، يحركون الموبيليا ، يبحثون فى كل مكان ، يتحدثون همسا ، يخرجون ، ثم يدخلون ثانية) ، فكان يحاول اذن ان يشرح للمرة العاشرة لرجل البوليس ، ان صاحبة الفندق هى التى اضطرته ، فارتدى ثيابه على عجل دون ان

يفكر حتى فى حلق ذقنّه ليعبر الميدان . ويصعد السلم كل اربع درجات فى خطوة ويصل هنا ، وفى هذه اللحظة ادرك انه لم يعد الشخص ذو الشارب هو الذى يتحدث اليه لكن الشخص البدين . ولم يكن يتحدث اليه بالشكل المفهوم ، فقد كان الان هو ايضا جالسا على مقعد ويبدو انه لم يكن حتى ينصت اليه ، وعندئذ توقف (مونتيس) عن الحديث ، فقال البدين كمن يود شغل فترة الصمت : « هل كنت تعرفهما جيدا ؟ » فقال : « نعم كنت ... » وفى هذه اللحظة نظر الى الملاءة ورأى « المكان الذى كانت توجد فيه بقعة الدم الحمراء منذ فترة قد تحول الى اسود تماما ، فانحنى ، هش الذباب ، بينما الشخص البدين يتابع حركاته بعينه . بلا انفعال ، بنظرة ميتة ، وراح يتأمل هو ايضا الشكلين الممدودين ، سحب عليه سجائر زرقاء من جيبه ، دفس واحدة فى فمه ، اشعل الولاعة ، اسبل عينيه ، خفض رأسه ليبعد اللهب عن انفه ، ثم اشار بذهنه الى اقصر الجثتين طولا ، وقال عبر الدخان بصوت تحول فجأة الى العطف ، المندهش ، الفضولى ، بل المتفاهم ، بل حتى الرحيم : « اكنت تضاجعى ؟ » ، وتغيرت ملامح محدثه مرة اخرى ، نظر الى وجه رجل البوليس الآخر ـ الشارب الصغير ، الياقة النظيفة ، الشعر المدهون ، رباط العنق البسيط ـ وملامح يعلوها تعبير التصالح ، وعلى فمة علامة برطمة خفيفة ، وهو يصدر بعض الأصوات غير الراضية ، المتضايقة قائلا : « ما عليك .. » وفى نفس اللحظة راحت يده النحيلة ، المزدانه بخاتم عليه احرف اسمه ، تدفع بثبات زميله الى الوراء ، وفجأة كف عن الكلام ، استدار حاول استكشاف ما الذى كان مونتيس ينظر اليه فوق كتفه ، الى مكان ما فى نهاية الفرقة غير المرتبة ، (قال لى مونتيس : لا ، لم يكن ذلك ، كان بوسعهم تفتيش كل شيء ، نثر محتويات الأدراج ، التحدث عاليا ، الذهاب والاياب ، دهس اعقاب سجائرهم على الأرض دون مراعاة لما يوجد تحت الملاءة ، لم يكن ذلك تدنيسا ، فإن كنت تعلمت شيئا منذ ان وصلت هنا ، منذ نصف ساعة ـ او الساعة ، او الساعتين ، او القرن من الزمان ، لم اعد اعرف ـ التى امضيتها على هذا المقعد ، فهو ان الموت عكس ما هو مقدس (على كل حال ما قمت به انا من تدنيس ، من اغتصاب فكرى للجسد الذى كان مازال دافئا ، وغرس شفتاى فى الغابة ابطها السوداء ، وكانى اغرسها فى نباتات ـ الا يقولون ان الشعر والاظافر تستمر فى النمو عند الموتى ؟ ـ مازالت تعيش من لحمها ؟) ، عكس ما هو غامض ، فهو واضح اكيد ، لايمكن انكاره ، التاكيد الوحيد الذى يحصل عليه فى نهاية المطاف : وان كانوا يحيطونه بجو الهيبة الناجم عن الموت ، والزيف ، وتلك المهابة الفخمة التهريجية ، وكانهم يبعدون ، يخفون المراة الجميلة فى تاليه من

الفخامة ودموع فضية ، وسيل من التحيات فى حين أنها لم تعد سوى قليل من اللحم المتعفن !

وقد قال لى ان وقع ذلك عليه كان بمثابة لطمة اخرى ، ايقظته ، جعلته يطفو على سطح ذلك الخمول ، ذلك اليأس السلبى الذى كان قد لجأ اليه ، متربصا ولا شك بلا وعى اللحظة التى يمكنه فيها ان يخرج ، ان يواجه ثانية الفراغ الخارجى العنيف ، الهواء ، الريح ، الضوء ، الوحدة ، وكأنه ، فى تلك الجلسة فى الزمن الملغى بجوار روز الميتة ، محبوس ، غائر فى ذلك اللحم ، فى تلك الرائحة الثقيلة لزهور الليلة الذابلة ، التى تتحلل ببطء ، وجبر نفسه وكأنه يعود الى نوع من الحالة الجنينية ، الملفوفة كاللولب فى تلك السكينة المؤلمة والمعذبة لحياة داخل الرحم والتى كان ـ لثانى مرة ، لثانى مرة من بين فخذى امرأة ، وان كانت تصغره بخمسة أعوام ـ سيطرد منها ، سيلقى ، صارخا مرعوبا ، فى الفراغ ، وقال هو فيما بعد : « وان احتسبنا العمر لا بالنسبة الى الزمن الذى عاشه المرء لكن بالنسبة للزمن الذى يفصلنا من نهايتنا المحتومة ، فقد كانت هى الآن اكبر منى ، بما انها سبقتنى ، لا لكى تموت فحسب ، انا الذى انتظرت خمسة وثلاثين عاما ، مما يعد كثيرا نوعا ما لنأتى الى العالم ، لكن .. » ، وحاول ان يضحك ضحكته التعسة ، بلا سعادة ، وكأنه يعتذر ، لكنه كان يختنق ، لم يكن يتمكن من انتزاع دغدغة هازئة من حلقه ورحت ارقب وجهه بينما كان ذلك التعبير الغريب يمحى من عليه ، تعبيرا يائسا مبتسما فى أن واحد ، بينما كانت ملامحة تزداد نمورا ، تبتدل ، تحت تأثير اكتئاب غير محتمل ، ثورة ما ، ربما كانت نفس الثورة التى طالعها رجل البوليس حينما رآة بدأ يقلق فجاة على مقعدة ، ينهض ، يحاول فرد جسمه النحيل ، يمد قناع الغرقى أو قناع الغارق الذى انقذ لتوه والذى اصبح الآن يمثل عكس الخضوع ، وعكس السلبية ، بحيث قال رجل البوليس : « هيا ، هيا ! » وراح يتمتم بعض عبارات التهدئة ، ثم قال دون ان يستدير ، دون ان يكف عن النظر اليه : « يافندم ، انه سأل عن الأطفال ! » ، ثم ثانية : « هيا .. هيا » واضاف بعض عبارات الاستخفاف ، ثم اضاف دون ان يستدير : « يافندم ، انه .. » .

ـ لقد سمعت » ثم رآة مونتيس : وجه أخر ، له انف ، وفم ، وشعر ، وبدلة ، وهيئة اذا ما نظر اليها على حدة ، لكانت مختلفة عن الاثنين الآخرين ، الا ان الشكل الأجمالى العام كان مماثلا لهما تماما ، محاطا بتلك الهالة الغامضة ، المقلقة ، لشخص قليل الأجر ، محتقر وبخشونه ، يتميز بشىء ما لا إنسانى او

عكس الانسانى ، نفس النظرة المغلقة ، الكالحة ، نفس العين التى تبدو عند بعض الحيوانات وكأنها ليست بحاجة الى جفون . لتخفى تلك النظرة الحادة الخابية ، النائمة ، والتى كانت تتفحصه (لاشك من فترة مضت . وان لم يستطع تحديدها ، كان واقفا وسط محتويات الأدراج المبعثرة . يداه فى جيوبه ، الجاكيت مفتوح يكشف عن صدريه ردئية المكواه . وقبعته مدفوعة الى الوراء) ، ثم تحرك ، ونظراته مثبته على مونتيس ، بينما كان يردد مرة اخرى ، موجها حديثه اليه الآن : « الطفلتان ، والذى ...

ـ انهما بخير ، تحت الرعاية » وتوقف على مقربة خطوات منه ، ويداه مازالتا فى جيبه .. كان يبدو وكأنه يتجاهل الملاءة وما تحتها .. فلم يصوب تجاهها ولا نظرة واحدة وهو يقول : « وهكذا ، اذن ، فقد كانت صديقتك ؟ » . نطقها دون حتى ان ترمش عينه او تندهش ، بوجه محايد تماما ، وكأنه غير مبال ، بل وملول ، ان السؤال لم يكن يتطلب حتى اية اجابة بما انه بدأ وكأنه فقد اهتمامه فجأة بمونتيس ، ولمس كتف رجل البوليس الآخر باصبع يده وبدأ يتحدث معه بصوت منخفض ، بحيث ان مونتيس لم يوجه كلامه الى وجهيهما دائما الى ظهريهما ورقبتيهما العمياوتان ، رافعا منكبيه ، وهو يرفع صوته ليجبرهما على الاستماع اليه قائلا : « ان كنتما تبحثان عن صندوق المجوهرات ، فلقد سلمته امس الى احد رجال الدين لكى يعيده ... » .

حدث ذلك على النحو التالى : هو والمفتش ، الذى ناداه الآخر بلقب " افندم " والقس ، الثلاثة واقفون وسط تلك الرائحة الكالحة للبخور التى تبدو وكأنها تنبعث من المبنى نفسه ، من الجدران ، من الموبيليات الملمعة بالمشع (وقبل ذلك خرجوا من الغرفة ولم يلحظ متى مروا بجوار الملاءة ، لم يلتفت ، اجتاز عتبة الباب دون ان يتوقف ، وأن ادرك فى هذه اللحظة ان شيئا ما ينكسر بداخله ، او بتعبير ادق ، على حد قوله فيما بعد ، شيئا كالتفكك ، كالانفصام (تصورت الحبل) ، وبينما كان يبتعد فى الردهة بجوار المفتش شعر خلفه وكأن الهواء يغلق كل شىء من خلفه عقب كل خطوة ، يتجمد فى شىء أنشف من الحجر ، أكثر عتامة من الصمت : ثم خرج ، وجد نفسه فى الخارج ، وجد النور ، الميدان ، الريح الخالد ، فوقف برهة ، تردد ، كالسكران ، لكن فقد اتزانه (وقد قال لى ايضا أنه شعر بشىء اشبه مايكون بالشخص المبتور الذى ينهض ، ويحاول السير لأول مرة) ، فاغمض عينيه لا ليحمى نفسه من الضوء ، ومن الاتربة التى كانت الريح تواصل اثارتها بلا هدف فى شكل سحابات ينقلها من مكان لآخر من الساحة ، لكن ليحاول كسر أو كحت الغلالة الرفيعة التى خيل اليه انها تغلف وجهه ، مثل طبقة من الشمع منفصلة عن الهواء الخارجى الذى اصبح بالنسبة له كالوسط ، كالمجال الغريب الذى لم يدخله ابدا من قبل ، وعندئذ ظل واقفا دون ان يقرر مواصلة السير ، امام مجموعة النسوة بشعرهن الأشعث والاطفال المنزرعين كالمعتاد تحت الرواق ، الى أن عاد المفتش ادراجه واخذه من ذراعه وزج به فى السيارة ، والآن كانوا ثلاثتهم واقفين ، لايتحدثون والمفتش - كان قد خلع قبعته : فبدى على جمجمته الصلعاء الغريبة البياض ، بضعة شعيرات نادرة مازالت تحمل آثار المشط الذى مر عليها بعناية ، وحيثما كان جلد القبعة يحز جبهته ، كانت توجد منطقة وردية اللون تخط جبهته - يحاول اعادة تغليف الصندوق المعدنى الصغير ارتجالا فى نفس ورق الجرائد الذى كان يحيط به ، ثم أمسك بدوبارة ، وراح يفك العقدة (بينما مازال القس ومونتيس يرقبانه ، ينظران فى صمت الى الاصابع وهى تتلمس ، شد ، تتوتر ، حتى اصابها اليأس ، فأحالت الدوبارة الى كومة متداخلة ، ودفستها فى الجيب حيث تدلى جزء منها

بطول رجل البنطلون ، فحرك مونتيس يده ، واصبعه متجه ناحية الجيب ، دون ان ينبث بكلمة ، والمفتش ينظر اليه بدورة باندهاش هذه المرة ، شبه مهان ، مغتاظ ، ثم احاد ببصره ، ودفس الدوبارة فى جيبه) وبعد ذلك ، دون التوقف لحظة ، وكأن كل حركة تثير الحركة التالية مباشرة أو كان نهاية كل حركة تعد فى نفس الوقت بداية الحركة التى تليها ، فأخذ الصندوق الصغير ووضعه تحت ابطه ، وظل نظر مونتيس ثانيا هناك ، ينظر بغباء الى المنطقة المحيطة بالابط المحددة باللون الرمادى (كمستودع مالح ، مثل تلك التعاريج التى يتركها البحر على الرمال) ، وتحدد بقعة فى نسيج البدلة ، والفتاة ذات لباس البحر تستمر فى الابتسام ، وقد وقفت على رأسها فوق الورق المكرمش الممزق ، وبجوارها مباشرة ، لكن فى الوضع المعتدل هذه المرة ، شيء ما غير واضح المعالم ، اشبه بالفسيفساء مكون من عدة وجوه تحت اعلام داكنة وراح يقرأ آليا اجزاء من كلمات واحرف لامعنى لها ، وعندئذ شعر بشيء مايهزه ، اشبه بالضحك بينما راحت صور الجريدة ، واسورة قميص رجل البوليس ، وطيف رجل البوليس نفسه تتداخل ، لكنه لم يتحرك ، لم يرفع يداه تجاه عينيه ، ظل (الآن لم تعد البقع مهزوزة ، غير واضحة او متقزحة باللون الفضى) الى شكل المفتش والقسيس وهما يتداخلان ، يختلطان ، وادرك انهما يتحدثان . لكنه لم يتبين الحوار ، واستمر الحال لحظة ، ثم انقسمت البقعة السوداء الوحيدة التى تكونت من تداخل الرجلين ، تباعد الجزأن وان ظلا مترابطين بخيط رفيع ، راح يزداد نحافة الى ان انقطع (مثلما يحدث فى الافلام التسجيبة حيث الخلايا تتكاثر ، تتضاعف عبر انقساماتها الذاتية) ، وراح طيف رجل البوليس يبتعد الآن اسرع واسرع ، وعندئذ تحرك (مونتيس) ، بدأ السير لكنه سرعان ماتوقف ، اذ ان المفتش (كان يراه الآن بوضوح) كان يقف فى مواجهته فجأة بعد أن قام بنصف استدارة سريعة ، وتوقف ، ليقول بصوت سخيف ، متحرش : « الى اين ؟ » .

لم يجب ، واكتفى بالنظر الى رجل البوليس مستفسرا (كنت اتخيله ، اراه : اشبه مايكون بواحد من هذه الكلاب التى تتابع المارةفى الطريق وتقف كلما توقف ، تنظر اليه بعينين خائفتين ، مضطربين متوسلتين بينما يلوح لها بيده ليطردها) ، وظلا هكذا فترة ما الى أن قال المفتش :

« هل انت مصر ليقحم اسمك فى هذا الموضوع ؟ »

ولاحظ انه لم يعد يخاطبه الآن بصيغة التعالى ، ربما لوجود القسيس . وهذه المرة حاول ، ولعله نجح فى الكلام ، وأن كان هو ، على حد قوله لم يتبين ماالذى كان يقوله : أو ربما لم يتحدث حقيقة ، ومع ذلك فقد بدأ المفتش وكأنه ادرك مايقوله ، لان تعبير وجهه تغير : بدأ (ان تظاهر ، أو تظاهر بأنه يتظاهر بأنه) يفكر ، فاخفض نظره ، راح ينظر الى طرف حذائه ، مقطبا حاجبيه ، ثم رفع عينيه

قائلا : « لكن بأى معنى ؟ » ثم قال فور ذلك مباشرة : انك لست من الاقارب من أى درجة كانت ، اليس كذلك ؟ » .

وعندئذ رأى (المفتش) على وجهه ، وفى عينيه اللتين تنظران اليه ، شيئا حقيقيا لايحتمل . لأنه لم يتحرك وقال بسرعة شديدة : « يمكنك محاولة كتابة طلب ، ربما سمحوا لك برؤيتهما . فلا يوجد مايمنع » وادار ظهره الآن تماما وانصرف .

ولم يشعر مونتيس بيد القسيس وهى توضع على ذراعه الا بعد فترة من الزمن ، ورأى بجواره كومة من اللحم اللين ، الرمادى ، يبدو وكأنه يسيل من حول الانف والفم المتعرج الثنايا المتراخى والذى تعلوه بعض الشعيرات الرمادية . وقال لى انه ظل فترة ما قبل ان يدرك ان ما يراه وجه (مثل تلك الصورة التى نراها وقد تم تكبيرها بشكل مبالغ فيه لأشياء عادية ـ مثل لبابة الخبز ، أو مسطح قطعة سكر ـ مما يستغرق وقتا لتبينها) ، كان يتبين التجاعيد بوضوح ، والذقن التى مضى عليها يومان ، الجلد المتراخية ، مثلما رأى فتاة الغلاف منذ لحظة ، وصورة المظاهرات ، وبقعة العرق تحت كم البدلة ، دون ان يتبعها أى شىء أخر (ولا اى مفهوم ، ولا اى فكرة ، ولا أى خاطر) : لم يشعر الا بمجرد ادراك للأشكال ، للأشياء (الشعر الاعلام ، السيقان الطويلة العارية ، النسيج المتسخ) ، بحيث أنه لم يفكر حتى قائلا : قسيس مهمل ، عجوز متعب » ، ولاحتى حينما أدرك تعبير الوجه ، لم يفكر فى كلمة : « حرج » أو « قلة صبر » أو « لوم » ، أو « شفقة » أو « ضيق » : لاشىء ايضا سوى طرف الجفن المتجعد بلونه الوردى الداكن المتراخى ، يتدلى تحت عين رطبة ، بحدقتها فاتحة الزرقة ، وكأنها مجربة بلا لون ، غارقة ، متحللة ، وسمع نفسه يقول فجأة : « لا لاشكرا » وفى نفس اللحظة التى كان يتراجع فيها الى الوراء ، ويسحب ذراعه من تحت اليد ، كان مازال يكرر : « لا ، اشكرك ... » ومازال يسمع صوته وهو يكرر كلمات الرفض وكأنها خارج عنه ، دون ان يعنى ذلك ، ينظر الى الفم المتجعد وهو يفتح ليقول : « ان استطعت ان » وهو مستمر (لابشفتيه ، ولسان فحسب ، لكن على مابداله بكل جسده ، بكل كيانه) فى القول : « لا لا لا لا لا لا لا لا .. » ، ثم أدرك انه يسىء ... ، ويتجه بدوره الى الباب ، دون حتى ان ينتظر لينهى الآخر الجملة التى بدأها ، مفكرا : « يجب على الاقل ان اعتذر » وعندئذ ، او فى نفس اللحظة اضاف : « لماذا ؟ » ولم يستدر حينما اجتاز الباب مثلما لم يستدر قبل ذلك بقليل حينما اجتاز لثانى وأخر مرة باب غرفة روز ، وأن لم يكن بحاجة ليستدير ليستمر فى رؤيته ، واقفا فى ردائه الاسود (فقد كان يرى ايضا ياقته البالية وصف الازرار الصغيرة لجلبات الكهنوت والمغطاة بنسيج بالى هو أيضا . والنسيج البالى ، اللامع عند الخياطات) ، وهو ينظر اليه بينما كان يجتاز الباب ، وفتح فمه

مرة اخرى قائلا بسرعة : « صلى » ، ثم (ولم يفكر مونتيس لكنه ايقن : وجود بلادة ما . والآن يضعونها هنا ايضا لا تغلق الباب ، الـ ...) الباب اغلق خلفه واصبح وحيدا .

اثقل عليه التعب بشكل خاص ربما كان هناك شيء أخر ، لكنه لم يدركه على اى حال حكى لى انه كان قد سار منتصف طول الكنيسة حينما ادرك فجأة انه غير قادر على أن يخطو خطوة اخرى فجلس . ظل هناك لفترةوهو شبه فاقد تماما لأى وعى او ادراك الا أنه جالس ، وانه لم يعد مجبرا على الوقوف ، وفتح عينيه ، والاستمتاع ، وبالتالى على التحدث وبعد فترة من الوقت تذكر القسيس ، وخشى ان يخرج من مخزن الأمتعة المقدسة ويجده جالسا ، فجاهد ليقف ووصل الى احدى المقصورات الجانبية وجلس ثانية .

قال لى ان الجو كان رطبا مظلما وهادئا وان الرطوبة والظلام والهدوء كانوا يكفونه حاليا . لم يفكر فى كونه يجلس فى كنيسة : لم يدرك الا ان الجو رطبا ، مظلما وهادئا ، وبالتالى شعر بالراحة . كان يمكنه الاكتفاء بأن يظل جالسا هكذا ، بلا حراك ، محدقا امامه ، وهنا ايضا لم يمكنه ان يتذكر كم من الوقت مضى ، بما ان الوقت هنا على حد قوله ، لاحساب له . وتذكر فقط تدريجيا (مثلما تعتاد العين تدريجيا على الظلام . لكن بعد فترة طويلة نسبيا ، لأن المسألة لم تكن مسألة ضوء ، وردود فعل جسدية) وبدأ يستعيد قدرته على الاحساس ، وتبين شيئا أخر سوى الصمت ، والهدوء ، تبين الصور المطبوعة على حدقته ، وراح يقرأ كلمته « شكرا » المتكررة باحرف مذهبة اسفل الحائط ، فى مواجهته ، كنوع من النقش المتواصل : شكرا شكرا شكرا ، فى عدة صفوف على قطع من الرخام الابيض كل قطعة فى حجم كراسة التلاميذ ، تتلامس ومثبته فى الزوايا بمسامير مذهبة الرأس ، ثم رأى القديس نفسه واقفا على قاعدة من الرخام الصناعى : تمثال من الجبس المدهون ، اقل من الحجم الطبيعى بقليل ، يمثل شخصا بشعر قصير ، يرتدى درع المحاربين الرومان بعضلات مصطنعة عند البطن ، مفضض ، وجونلة ملونة من سيور من الجلد ، وحرملة طويلة لونها وردى قديم تتدلى خلف ظهره ، ينتعل صندلا من الجلد ، ممسكا صليبا صغيرا بيده على صدره بين النتوئتين البارزتين لصدر الدرع وفى اليد الاخرى غضن الشهداء . وثلاث أنية ظهور بها تشكيلة من زهور اللؤلؤ الكبيرة المصنوعة من المعدن المطلى مرصوصة حول قدمى التمثال ولمبة كهربائية صغيرة تلمع داخل أنية صغيرة من الزجاج الاحمر كاللمبة السهارى المضاءة والمحافظة عليها تلقائيا فلم يكن هناك من يهتم بها وانما قد وضعوا الفيشة فى التيار العام للمدينة مثلما وضعت الزهور المعدنية مرة واحدة وانتهى امرها ، لا تتغير وصلبة بالوانها الصارخة المطلية بالمينا ، وان كانت انطفأت قليلا بفعل طبقة رقيقة من التراب

الذى يعلوها (لم تكن طبقة : مجرد رشة ، مثلما يحدث فى تلك المنازل القديمة التى ليست مهجورة وانما التى يقومون بتنظيفها كل اسبوعين . نظر لقلة الخدم . ولا يتم التنظيف بشكل دقيق ، واحيانا يتّم كل ثلاثة اسابيع فحسب ، فقد قال لى انه كانت توجد باقة من الورد الطبيعى لكنا تحولت الى تلك الحالة المحنطة الجافة كالكرتون تحولت الى تلك المادة الهشة داكنة اللون كلية والتى لاتصل اليها النباتات الا عند درجة التحلل القصوى . وكانت الباقة ايضا مغطاة بتلك الطبقة النحيلة من الرماد الذى يبدو انه كان يتراكم هنا ببطء ، وكانه لا يصل الى هنا عبر الضوء المنعكس من الوان الزخارف الزجاجية وانما الضوء الرمادى المتساقط ، الذى يعلوه التراب ، والميت ، المنبعث من الفانوس المعلق فى سقف القبة ، فيضفى ظلالا شاحبة ، رمادية ، على الثريتين الضخمتين المدليتين ، الشبيهتين بما يمكن ان نراها فى صالون ما ، وآن لم يكن هذا المكان بصالون بالمعنى المفهوم ، رغم ما به من اشياء مذهبة ، واعمدة ورخام احمر واسود ،وافريز : كان اشبه ما يكون بالجو الجنائزى الباذخ القبيح ، ومازال هو (مونتيس) هنا ، بلا حراك على مقعده ، يجسد صورة البؤس اكثر من اى وقت مضى ، لكن بلا دموع ، ينظر بعين باردة جافة ، الى الديكور القذر الفخم . وكانه يراه لأول مرة ، على حد قوله ، وكانه لم يدخل فى مثل هذا المكان من قبل فى حياته وعندئذ دخلت امرأة وكان التراب الذى يعلو البلاط غير المكنوس جيدا يصر تحت نعليها مع كل خطوة : لكنه لم يستن ، واكتفى بتسجيل ذلك . مثل بقية الاشياء كالرخام ، والنجف ، والتراب ، حينما دخلت محيط رؤيته : كانت شابة . تضع اشاربا من الدانتيلا السوداء على شعرها ، شفتاها شديدة الزواق ، باللون الاحمر القانى ، الدسم الى حد ما ، اقتربت من صندوق الصدقات ، القت به قطعة معدنية ، اخذت شمعة اشعلتها ، ركعت على البلاط ، يداها متشابكتان ، وظلت هناك ، فى نفس ثبات التمثالين الموضوعين على جانبى المذبح ، قديستان تلويان ايديهما فى دوامة طرحتيهما المتحجرة تحت الكفن الدقيق جدا الذى يعلوه التراب ، وجهيهما الشهوانيان يعلوهما الزواق والدموع المنسابة المرسومة ايضا بلا عاطفة ، متهالكتان ، غارقتان فى نار المعاناة الخالدة فى النشوة الخالدة)

ثم وجد نفسه فى الخارج مرة ثانية ، لم يدرك الا بعد فترة ، على حد قوله انه كان يتحرك ، دون ان يكون عقله بحاجة الى اعطاء الأوامر ، ويقرر ، ولاحتى لتحديد اى اتجاه يسلك . بحيث انه لم يدرك الا بعد فترة طويلة ايضا انه مازال ممسكا بطاقيته (كان قد خلعها وهو يدخل الكنيسة مع رجل البوليس) فارتداها .

لم يكن لديه اية فكرة عن الطقس ولا عن الساعة ومنذ ليلة امس لم يكن اكل شيئا ، ومع ذلك لم يكن يشعر باى حاجة للطعام . وبينما كان يجتاز ردهة الفندق ، شم رائحة الطعام ، وسمع اصوات الأوانى وهى تخبط ، ففكر : « اذن فلسنا الا ظهرا ، وهم ليسوا الاعند وجبة الغذاء .. » ولكنه لم يتوقف ، ولم تكن لديه اية فكرة للدخول فى غرفة الطعام مثلما لم يدرك بخلده ان يخبط الفتاة البدينة وذراعاها محملان بالاطباق ، مرتبكة الى حد ما ، مذهولة ، شديدة الحمرة تخرج من المطبخ وهى تفكر فقط : « آذن استبدلوها انها الجديدة .. » ، ولم تضف شيئا ، اذ كانت قد بدأت تصعد السلم المؤدى الى الغرف ، تصعد الدرجات الخشبية الواحدة تلو الأخرى ، ثم قال لى وهو فى نفس هذه الحالة الثانية ، شبه الآلية ، كأنه بعيد عن أى انفعال . بحيث انه لم يشعر لا بالغضب أو بالاهانة ، بل ولا حتى بأية مفاجأة حينما وجد نفسه وجها لوجه امام موريس فى الردهة وهو يحاول ان يسد عليه الطريق ، فاكتفى بالنظر اليه بنفس هذه العين التى تكتفى بالنظر ، والتسجيل (قائلا فى نفسه : « من المحال ان يكون ثملا فى مثل هذه الساعة . لكن ماذا ؟ ») ، وسجل النظرة المتوسلة ، التعبير المتوسل الصوت المتوسل المحزن ، وفى نفس الوقت سجل الحديث ، الكلمات : « اسمع يجب .. انا .. » ، كان كل شىء اشبه بشذرات الواقع - وجوه ، حركات ، صوت ،كالاشياء التى ترى ، خطفا من خلال سيارة او ترام ، او قطار ، او اية مركبة تسير ، وتختفى حتى قبل ان تنتهى الحركة او الجملة . لأنه لم يتوقف ، واستمر يسير بمحاذاة الردهة ، ربما تأتى بعد لحظة توقف عابرة غير ملحوظة . اشبه بالتردد ، لكنها محركة اساسا - وهو رد الفعل الوحيد فى مواجهة الطرق المغلقة ، او امام عقبة تعترض الطريق - بل وربما لم تكن حتى كذلك ، فبينما كان يستمر فى مواصلة سيره رأه يتباعد (عندما خرج اختفى من رؤيته ومن ادراكه بالصورة ، كما ان نظره ايضا لم يتجه يمينا أو شمالا وانما ظل ينظر امامه بعناد ،

وقد لمح فقط خيال شيء يبتعد سريعا ، لصورة متواضعة . مثل الصوت الذى كان يصل الآن من خلفه ، يصرخ يحتج بلطف . بتواضع : « لا ! أسمع : لا ، لست انا ! أقسم لك ، لست انا الا هذا . لم .. ») ثم لاشيء لانه الآن كان قد اغلق باب غرفته ، بلا عنف بلا عجلة ليس فى وجه شخص ما لكن مثلما نغلق الباب خلفنا ، لم يعد هناك اى شيء لمدة بضعة لحظات اخرى ، لم يكن صوت ولا حتى ضوضاء ، لكن - وتلك لحظة ، سجلها . لا اكثر من ذلك - شيء اشبه بالتنفس ، بوجود صامت ، متواضع متواسل ، بائس ، ثم نفس هذا التواجد لم يعد له وجود ، وهو (مونتيس) ، مازال محمى ، او تحت تاثير ما ، أو نهشا لحالة من عدم الشعور ، غارق فى هذا التأثير الغريب اللا واقعى جالس على حافة الفراش ، ممسكا فى يده بكوب الماء الذى ملأه توا للمرة الثانية من صنبور الحوض وممسكا باليد الاخرى بقطعة بسكويته . بسكويتة لم تؤكل منها إلا قضمة واحدة ، مقضومة فى شكل هلال مثل قرقضة الفار . وفى فمه خليط العجينة اللزجة التى كان يمضغها دون ان يتمكن من ابتلاعها (او ربما لم يفكر فى ذلك) ، ثم لاشك انه نام ، كيفما كان هنا . الكوكب والبسكويته فى يده ، لان كل ماتذكره فيما بعد هو ذلك الشعور بالبلل وبالبرودة بطول ساقيه ، ثم السقف ونقط الذباب السوداء وهى تحلق حول اللمبة بلا هوادة ، ثم جلس ثانية ، ينظر بغباء الى القماش المبلل ، الى البقعة الداكنة متعرجة الاطراف على فخد بنطلونه وكانت الكوب الآن خالية ويده مازالت ممسكة بها بينما اليد الاخرى لم تترك البسكويته التى قضم منها ، وادرك الآن أن الشمس قد مالت وأصبحت تخبط حافة النافذة ، وتنعكس على الحائط المقابل : اولا بخط افتح قليلا واطراف باهتة ، ثم حد ذهبى ، ثم مثلث نحيل يميل الى الطول ، يتأكد ويمتد بشكل غير محسوس فى فترة ما بعد الظهر الخاوية البطيئة (وقد قال لى انه كان يمكنه الشعور بالزمن ، بالبداية الخالدة ، والتحول الخالد للمادة الساكنة ، غير الحساسة ، وهى تدور الى مالا نهاية ، تنتقل بذلك البطء المذهل الذى لايتزحزح ، وكانها وعد بعذاب بطيء ، باختصار بطيء . وفى مكان ما فى ذلك الزمن المضيء شيء ما اشبه بالبقعه ، شيء ما يشوبه الغموض ، شيء اسود ، شيء لايمكن تغييره ، كان ذهنه يتخبط فيه : يد تعود فى حركة آلية لتحاول ازاحة شيء ، ثم تتذكر ، تفكر (اليد) : « حقا نسيت » فتسقط ، وتعيد الكرة فى اللحظة التالية . والآن كان واقفا امام المرآة الموجودة فوق الحوض يحلق ذقنه ، او على الاقل كان يجاهد ليمرر مكنة الحلاقة ارتجالا على خديه المغطيين بالصابون دون ان يهتم بتغيير الموسى الى ان رأى الوجه الذى ينعكس امامه فى المرآة بدأ يتداخل ، تماما مثلما حدث صباحا مع الصورة المتداخلة للقسيس ورجل البوليس ، وعندئذ لم تعد الا بقعة سائله هى التى يقف امامها ، فانتظر ، ممسكا بمكنة الحلاقة فى

يده ، مفكرا بيأس : « لن افلح ابدا ، مستحيل لن استطيع ابدا ، انا ... »

ثم نجح فى اتمام حلاقته . فك المكنه ، اخرج الموسى ، مسحها وضعها فى المكنه ثانية ، وقال لى انه دائما فيما يتعلق به ، كان يبدو وكأنه ينظر الى تحركاته من الخارج ، وكأنه منفصل ، يرى نفسه هنا ، بعد فترة طويلة من وضع الفرشاة ومكنة الحلاقة على المائدة الصغيرة ومازال فى مواجهة المرآة ، مقطب الحاجبين ، وكأنه يقوم بمجهود عنيف ليفكر ، ليتذكر مالذى كان يود عمله ، مالذى بدأ يعمله حينما فكر اولا ان يحلق ، ثم فى اللحظة التالية (رأى نفسه) يسحب من تحت الدولاب نفس الشنطة مخدوشة الجلد التى اخرج منها موريس وهو منتصر منذ ثلاثة ايام الصندوق الصغير ، ففتحها ، اخرج منها الان بنطلونا قديما مطويا بعناية وراح يتفحصه ، يقلبه ويعيد تقليبه ، ينظر بعين بائسة الى حافته المتآكله ، والى حجره شبه الشفاف ، وقرر اخيرا ، فقام وفك البنطلون الذى كان يرتديه ، وفرده على ظهر المقعد الوحيد ، وارتدى الآخر ، ثم نقل محتويات الجيوب ، وبعد فترة وكأنه لم تكن هناك مرحلة انتقالية ، وكأن الشوارع ، والشمس ، والظل ، لم تكن الا مجرد ردهة عليه ان يعبرها ، وفى لحظة فتح الباب اغلقه ليمر من مكان الى آخر وظل ينظر ، ببلاهة ، وكأنه مبهور بمختلف الألوان الصفراء ، والقطع اللامعة ، وفوج الدراجات المعلقة فى الرواق بينما كان جزء أخر منه يتفاوض مع الشخص ، ثم (الجزء الثانى من نفسه الذى سجل الجواب قادة ، اوصله) راح يعبر الردهات ، والسلالم ذات الجدران المدهونة بلون رمادى معدنى واحد ، مثل تلك الغرفة التى جلس ينتظر بها ، جالسا على اريكة (وهنا ايضا خيل الىَّ اننى اراه ، بذلك البنطلون الناحل جدا ، الذى تردد فترة قبل ان يقرر ارتدائه على حد اعترافه ، وهيئته ، وشكله المسكين ، الشبيه بكل الذين اعتادوا ان ينتظروا هنا بحيث ان عساكر الشرطة والموظفين فى مأمورية البوليس الذين يروحون ويجيئون ـ وقد تذكر فيما بعد ايضا : ان ضوضاء الخطوات ، والكعوب الصلبة على الخشب العادى ، بلا شمع ، الخشب المائل الى الرمادى ، والاسود فى الاماكن التى لم تجف ، مع ذلك الصوت الرنان ، بهذه القوة وهذه الرائحة المميزة للخشب المكنوس والمرشوش بالماء لم يلتفتوا حتى لينظروا اليه) . ثم ظهر وجه المفتش ، نفس الشخص الذى كان قد اوصله عند القسيس ، نفس الصلعة العارية ، شديدة البياض ، العارية هذه المرة لا لأن صاحبها كان فى زيارة الآن او فى مكان ما حتى رجال البوليس انفسهم يخلعون فيه قبعاتهم . لكنه كان فى عقر داره ، اى أنه كان جالسا خلف مائدة من الخشب المدهون بالاسود فى مكتب يوجد به رجلان آخران بثياب رثة يطبع احدهما على الآلة الكاتبة ويجلسان خلف مائدتين صغيرتين سوداوتين : ثم (ولاشك انه بين المكانين كانت هناك مرة اخرى الشوارع والشمس ، والريح ـ لكنه لم يرها ، ولم

يشعر بها ، على اى حال هو لم يذكرها) وجد نفسه فى مكتب أخر ، جدرانه الآن مدهونة باللون السمنى ، ولم تكن الارضية من الخشب الخشن ، الذى يكنسونه ويرشونه كل اسبوع ، لكنها كانت من اللينوليوم أو شىء من هذا القبيل ، من نوعيات الكاوتش التى تكتم صوت الاقدام . والمكان بصورة اجمالية ـ وان كان يتصدره ذلك الجو المميز والذى يصعب التعبير عنه والسائد فى المبانى الادارية ـ كان ناصعا ، نظيفا ، متألقا ، مثل تلك المرأة الجالسة خلف المكتب (ليست مائدة سوداء : وانما قطعة موبليا من الخشب الفاتح ، المدهون بالاستر ، وامامها حافظة عصرية ، ومفكرة عصرية وسلة مراسلات عصرية بل وحتى باقة زهور صغيرة متواضعة فى الركن . وكانت عصرية الشكل ايضا ، متألقة رغم شعرها الذى بدأ يدب فيه الشيب لكنه غير مصبوغ ، من باب الاناقة شعرها قصير ، مموج ، وشفتاهما يعلوهما اللون الاحمر الخفيف المحتشم ، تبتسم بطريقة مرضية بشوشة بطريقة ناظرة المدرسة التى تستقبل اهالى الطلبة او حتى بطريقة مريرة الاستقبال فى احد الفنادق الفخمة والمؤهلة من احد المعاهد العصرية للفندقة الحديثة ، ربما كانت سويسرية ، تتفحصه دون ان تكف عن الابتسام بنفس الطريقة البشوشة ، المتفاهمة ، بينما كان يحاول ان يشرح لها سبب مجيئه الى هنا ، ويتلعثم ، يتهته ، وهو ينظر الى اظافرها المشذبة تعبث بأحد هذه الاقلام الضخمة الخاصة بالمكاتب الى ان سمع صوتها وهى تقول : « انى آسفة لكنه مستحيل وان كانت هناك اية قرابة مع هاتين الطفلتين ..

ـ لكننى سأر ..

ـ أؤكد لك انهما ستكونان فى احسن حال ، وربما حتى ... »

ثم ترددت وراحت تنظر الى جاكتته الناحلة وقميصه بياقته الناحلة ، ورباط عنقه الناحل ايضا ، وبعد لحظة جمعت شجاعتها لتقول بإبتسامة مهذبة : « على الاقل افضل من الوسط الذى تواجدنا فيه حتى الآن .. » ثم كف عن رؤيتها ، هى وتموجاتها ، وبلوزاتها اللامعة ، بل وحتى المكان نفسه ، والمكتب النموذجى ، والتنظيم النموذجى ، والعمارة النموذجية ، الجديدة ، وابوابها اللامعة مثل خشب الاكاجو ، وجدرانها المكسية بالورق السمنى ، وهيئتها الرديئة المتماثلة ، ومكاتبها المتماثلة التى تجلس اليها سيدات نموذجيات ربما تم تصنيعهن وفق النمط النموذجى لتلك السيدة ولا شك انه ظل هكذا يسرح فى تخيلاته (بعيدا ، او ربما فى اللامكان ، ضائعا فى انسياق الزمن البطىء ، وسط هذا الفراغ ، وذلك العدم ، وهذه المساحة الشاسعة التى تلتهمها أشعة الشمس الزاحفة ملليمترا ملليمترا ، كالموت البطى ، والمعاناة البطيئة شديدة البطء ، لكنها مطلقة بلا حدود وكأنها السلام نفسه ، وبعد فترة ما ، من المؤكد أنها فترة طويلة لشخص يسأل عن حاجة فى مكتب الشئون العامة ، أذ عندما رآها ثانية ،

(المرأة) كانت تنتفض : لم تعد الابتسامة هي نفسها ، وان كانت الابتسامة هنا آلية مثلما تعلمتها فى المدرسة السويسرية لتعليم المشرفات الاجتماعيات النموذجيات ، الآن ، كان بها شىء من الافتعال ، شىء من الاجبار ، الضيق ، وفى نفس الوقت لاحظ انها تنظر الى الساعة ، حركة خاطفة ، وخفية الى معصمها حيث تلمع ساعة صغيرة من الذهب ، بحركة رجولية ، وعندئذ فحسب ادرك ان كل حركاتها كانت كحركات الرجال حتى حينما كانت ترفع يدها آليا ، وخنصرهاالصغير متباعد ، لترتب من وضع تموجات شعرها ؛ كما انها قاطعته بلهجة رجولية ، غير صبورة ، حادة رغم الابتسامة المطبوعة وهى تقول : « تتبناهما ؟ » .

فأضاف هو بسرعة : « نعم هو ذلك . هاهو : الـ .. اود ان .. » ثم توقف . مال برأسه ليرى مالذى كانت تنظر اليه (بقعة ؟ شق ؟) ما الذى كانت تحدق فيه تلك النظرة الباردة غير المنفعلة التى كانت تجرى عملية تقويم للمرة الثانية . يستعرض ثيابه الناحلة بالتفصيل ، ووجهه الغريب الشبيه بوجوه المهرجين او بوجوه من يقومون بأدوار الخونة فى المسرحيات الهزلية . بتلك النظرة الآثمة المتفحمة تحت حاجبين متفحمين ، وحينما رفع رأسه لم ترفع هى حتى منكبيها . وهى تقول (بنفس الصوت العطوف ، الناعم الذى يشوبه الاحتقار) : « اعتقد انك لاتجهل ان القانون يفرض وجود عدد من الضمانات ، وذلك لمصلحة الطفلتين ، وأول هذه الضمانات من الشخص الذى يتطلب التبنى .. »)

هو : « ش ؟ » وما كاد ينطق بها حتى سمع الرد، لهجة الصوت المنتصر حاليا ، لم يكن السن قبيحا الى ذلك الحد ، لكنها تعمدت ذلك ، بشكل متحذلق لتقول الرقم ببساطة بهدوء ، : اربعين عاما ، وفى نفس اللحظة التى كان يفكر فيها : « لكنى لم ابلغ الا الخامسة والثلاثون . اذن خمسة اعوام . لا » لعله أو لعل الجزء الذى كان يعمل اكثر من الآخر فى عقله فكر واعطى الأمر ، ابلغ شفتيه ما عثر عليه كحل ، ولعله قال ، او ان لم يكن قد قاله فربما ادركت انه سيقوله وذلك تم عبر شفتى الرجل النحيلتين الورديتين ، اللتين تعلوان ذقن الرجل :« ان اعهد لك بهما ؟ »

والآن ، كانت الابسامة قد اختفت تماما ، راحت تتفحصه لحظة ، بوجه بارد قاس ، يعلوه تعبير القرف ، والغضب وشىء من الشفقة ، ثم اتسع فمها ثانية بابستامة واضحة الإفتعال ، متشنجة ولاحظ التجاعيد المرتسمة حوله فى شكل مروحة اعلىواسفل الشفتين ، كالنسيج المكرمش ،وقال فى نفسه : « عجوزتان انها عجوزة ، انها .. » ثم تبين الكلمات التى كان ينطقها الفم بابتسامة مشدودة محدقة : » ... « اعزب على ما فهمت » وان كبرى الفتاتين بلغت الثالثة عشرة تقريبا ومثلما يحدث عادة عن الاطفال الذين يجرى فى عروقهم دم غجرى ، فقد

نضجت تقريبا . لعلك تدرك ان .. » وكان هو يفكر : « ياساتر يارب ، ياساتر يارب ، اعوذ بالله ... » لكنه لم يتحرك ، وان كانت هى قد بدأت ترتب الاوراق التى على مكتبها بانشغال واضح دون أن تلتفت اليه وكانه لم يتواجد امامها من قبل ، ولم يجلس فى المقعد الذى اشارت اليه حينما دخل ، نظرت الى الساعة التى حول معصمها مرة او مرتين ، لكن دون ان ترفع نظراتها اليه ، وحينما راح يتحدث رفعت رأسها بشكل مندهش ، وكأنها مندهشة لاستمرار وجوده امامها ، فقطبت حاجبيها بضيق واضح ، بحيث راح يتهته قائلا : « كنت اود ، اعنى ، ارغب .. » ثم صرف النظر ، بدأ يتململ فى مقعده ، انحنى الى الامام ليخرج حافظته ، ونجح فى ان يقول : « لا احب ان ينقصهما شىء .. » فقالت : « هل تريد ان تتبرع ؟ » فقال : نعم . اتبرع . لهما . لكى لاينقصهما شد .. » فقالت : « ان التبرعات التى نتلقاها تستخدم على اكمل وجه لصالح جميع الاطفال الذين ... » فقال : تودين القول ان .. انهما .. » ، فقالت : « ستستفيدان مثلهما مثل الآخرين ، مثلما ستستفدين من التبرعات التى يقدمها اشخاص اخرون ... » . فقال : « ثم رأها تنظر ثانية الى معصمها ، مع ذلك فقد ظل باقيا ، دون ان يمكنه التحرك ، بوجهه المجعد المأساوى الذى يزيد المجهودمن تجعده ، وكأنه يجاهد يائسا لحل مشكلةوانه طالما ظل فى هذا المقعد ، فى هذا المكتب ، كانت هناك امامه فرصة للوصول الى الحل او على الاقل الى حل ما ، او ربما لم يعد يحاول فى اى شىء ، ولا يتمنى اى شىء ، وقد نسى المرأة ، مثلما نسى الوقت ، بل ولم يدرك مدى الوقت الذى امضاه منتظرا فى قسم البوليس ، ثم هنا ، قبل أن تستقبله ، ربما ظل جالسا لانه موجود بالفعل ولأنه غير قادر على مواجهة اللحظة التالية ، التى سيغلق فيها الباب الاخير الباقى امامه ، فنهضت ، ربتت على بلوزتها اللامعة ، رآها فبدا وكأنه استيقظ اخيرا ، فنهض ايضا وهو يقول : « نعم بكل تأكيد . انا نسيت . نعم لو سمحت هل يمكننى معرفة كم الساعة الآن ؟ »

كان يشعر انه يريد ان يأكل . قال لى انه دخل الى اول مطعم صادفه ، كان خاليا (لم تكن الساعة السابعة تماما) طلب وجبة اليوم دون ان ينظر الى قائمة الطعام ، وعلى الرغم من انه لم يشعر بأى جوع قبل ان يجلس ، وجد نفسه يلتهم محتويات الاطباق التى كان الجرسون يضعها امامه ، دون ان يشعر بأى طعم لكنه كان يأكل بشراهة نهمة ، بوحشية ، الى ان انتهى كل شىء ، انحسر ولم يكن امامه سوى لحظات ليجرى الى دورة المياة ينحنى ويتقيأ ، دفع ثمن الوجبة التى تقيئها الطعام الذى ماكاد يدخل معدته ، دون ان يهضم الا ليخرج من جسده وكأنه على حد قوله وجد ان جسده غير جدير باستقباله ، وأبى ان يظل بداخله ، وذلك هو التعبير الذى استخدمه حينما قص على ذلك ، لكنه لم يتضايق فقد شعر بتحسن بعد ذلك ، كان منهكا لكن افضل من ذى قبل : فقد أفرغ ما فى

جوفه بمعنى الكلمة . كانه لم يتبق منه الآن سوى مجرد ظرف لايحوى شيئا بداخله ، وكان ذلك كان نوعا من انواع الشعور بالسلام ، بالهدوء ، وقد فكر ان الامر ربما يكون عمليا اذا ما استطاع المرء ان يتقيأ كل شيء بهذه البساطة ، ويتقيأ نفسه ، يتخلص منها يطردها ، كطعام غير مهضوم ، ثم قال ، لكنه بقى عليه ان يسحب ذلك الجسد الغبى دون ان يعرف ما يفعله به ، ولا اين يضعه . ووصف لى ذلك الشعور من اضطراره حمل هيكل مربك طاغى - فقد كان يشعر بثقله ، بحمله - وخيل الى اننى اراه هو او بالتحديد هيكله وهو واقف فى غرفة موريس (وقد حدث ذلك ثانى يوم ، على مافهمت وهذه المرة لم تكن المحاولة من جانب موريس ، اعنى انه - او الهيكل - هو الذى راح بنفسه : دون ان يتمكن من أن يقول ما الذى دفعه تماما ، او اتى به الى هناك : وتصورت انه ربما مساق فحسب مساق بتلك القوة التى دفعت به الى المطعم دون ان يكون جائعا ، او على الارجح دون ان يعلم انه جائع ، ومضطر الى التهام اى شيء بشراهة دون الوصول الى هدوئه النفسى ، أو اشباع تلك الحاجة المبهمة أو ملء هذا النقص ، ان يشغل هذا الفراغ الذى تكون فى داخله الذى وانحفر فيه ؟ ولم يكن قد فكر فى هذه الزيارة - لموريس - مسبقا ، مثلما لم يفكر ، مسبقا ، فى الاكل ، بل ولم يفكر فيها لحظة من قبل حينما كان مايزال فى غرفته بحيث انه حينما كان فى الردهة وبدلا من ان يتجه الى السلم ، استدار فى الاتجاه العكسى - ربما بعد لحظة تردد غير ملحوظة - وطرق الباب ، ودخل دون حتى ان يتذكر ان كان سمع ردا) ، دخل الاثنان اذن ، هو وهيكله او ربما هيكله بمفرده ، وقف ، ولاشك ان تعبير الالم والعذاب كانا يعلوان وجهه ، لم تكن المعاناة الداخلية لكن المجهود مثلما حدث له فى مكتب الشئون الاجتماعية ، حينما جاهد ليتذكر ما الذى كان أتى من اجله ، مالذى كان يبحث عنه ، بينما قفز موريس من الفراش الذى كان مستلقيا عليه ؛ اطفا سيجارته فى واحدة من السبع او ثمانية طفايات الاعلانات المتناثرة فى ارجاء الغرفة ، كان واقفا امامه متلجلجا ، متعثرا فى كلماته : « انت .. انا .. اسمع : بالامس حاولت ، اردت ان اقول لك .. اسمع : لست انا ، اسمع أقسم لك : إلا هذا إننى دنىء ، ولكن إلا هذا ، إلا البوليس لست أنا ، اسمع : اننى قادر على عمل الكثير اعلم اننى هددتك بأن أبلغ ، لكن لأننى كنت غاضبا ،اردت تخويفك ، اقسم لك ان ... »

وفى هذه اللحظة ربما رفع مونتيس يده ، او قام بحركة لكى يقول : « ماجدوى ذلك الآن ؟ او حتى : « حسنا ، حسنا اننى اصدقك » ، او ربما قال ببساطة : « كفى تعبتنى ! » ثم تحرك تقدم ودون ان يسمح له (وكأن الادوار قد تبدلت ، مع ذلك الفارق ، انه لم يكن هناك اى شيء فى تصرفه ، او حركاته ، ينم عن رغبة أوقاحة أو تحد ، بل ولا حتى اى ميزة كانت حتى السيادة التى كان الموقف يعطيها له على موريس : لا شيء اكثر من رد الفعل الطبيعى لهيكل منهك ،

والحاجة الى الراحة) ، جلس على حافة الفراش الذى نهض منه موريس منذ لحظة ، وظل هناك ثانية بهيئته الحزينة الساكنة المضطربة قليلا . لم يسأل عن شيء ، ويبدو انه لم يكن ينتظر أى شيء . واكتفى (لم يكن فرحا لكن لاشك انه كان اقل حزنا لم يشعر بالراحة وانما بنوع من الهدوء ، من السكينة لانه لم يعد بمفرده ، وانه يرى شخصا يعرفه ويستمع اليه . شخص يمثل جزءا مما كان يشكل عالمه طوال الشهور الماضية) . فاكتفى اذن بالنظر فيما حوله دون ان يقول شيئا بذلك الفضول الساكن شديد البراءة فى فضوله بحيث لاح عكس التطفل والفضول ، راح ينظر الى الغرفة غير المرتبة ، الى الحقيبة المفتوحة ، وقد امتلأ نصفها ، والدولاب المفتوح ايضا ، ثم قال اخيرا وهو يقاطع موريس ، محددا كل احتياجاته ، وسيل كلماته ، تحدث دون ان يرفع عينيه بصوت متردد ، مثقل باكتئاب لا يوصف ، وبيأس لايوصف) : « سترحل ؟ اعنى : بعيدا عن هنا ؟ ستسافر ؟ » .

وفيما بعد وقف الاثنان على رصيف المحطة : هنا فى نفس المكان الذى نزل فيه مونتيس ، منذ اقل من اربعة اشهر ، لكن هذه المرة وقف على الرصيف المقابل ، بينما وقف موريس عند فتحة باب عربة الدرجة الثالثة ، فى فترة الهدنة ، فترة الانتظار ، التى يتبادل فيها المسافرون والاهالى النظرات . وقد بدأ الانفصال بحكم سمك فراغ الجو الذى بين عربة القطار والرصيف كانه لوح زجاج ، بدأ التباعد . والواقفون ينتظرون هنا . رءوسهم مرفوعة . محرجين ، مرتبكين ، بينما يقوم العاملون عند نهاية القطار بقذف اكياس البريد والطرود فى أخر عربة وعند بداية القطار يقف رئيس المحطة يتحسس صفارته . يقف بجوار الآلهة للاهثة على فترات منتظمة ، ويرتفع الدخان فى الخلاء . (نفثات ملتفة من الدخان الاشقر تطردها الريح تحت السقف الزجاجى . وتذيبها فى الشفق الاخضر ، شبه البارد ، ثم تدفعها الى ارضية الرصيف حيث تقبع جريدة مكرمشة اشبه بطائر رمادى ، غير قادر على الطيران . يندفع ويسقط ثانية ، جريح ، وعلى جبهة موريس خصلة شعر شقراء ، ترتجف بخفة ، ومن وقت لآخر ترتفع دفعة من الاتربة من تحت عربات القطار ، محملة بخبث الفحم الحجرى ، فتجبرهما على اغماض الجفون ، لكنهما لم يكترثا الآن . كانا صامتين ، واخيرا انطلق صوت صفارة طويلة ، وبدأت عربات القطار تنساب ببطء . فرفع مونتيس يده الى مستوى كتفه ، وحاول ان يعبر بوجهه عن شىء ما اشبه بالابتسامة وهو يستدير ببطء بينما كان طيف موريس النحيل الواقف عند فتحة الباب ينساب امامه بسرعة متزايدة ، وتشبث وجهه بذلك التعبير الذى لم يكن بابتسامة . وعيناه الشبيهتان بعينى الكلب ، وشعره شديد الطول الذى يخرج من تحت الطاقية . والتجعيدتان المرتسمتان ابتداء من فتحتى انفه . تحيطان بفمه كالندبتان) .

يخيل الى اننى اراه على ذلك الرصيف ، ينظر الى الفانوس الاحمر المعلق عند نهاية القطار ، وهو يتضاءل . منسابا على القضبان التى ينعكس عليها الغروب ، وكانه غير قادر على أن يقرر ذهابه من هنا ، على انفصاله . على انتزاع نظرته من المكان الذى بعد لحظة لم يعد به سوى القضبان العارية قليلة اللمعان . بينما بدأت انوار العلامات الخضراء تتألق فوقه محول السكة الحديد . ومن ذا الذى

فى وسعه ان يتخيل ما كان يشعر به الآن ، فى تلك اللحظة التى يرى فيها القطار وهو يختفى بعيدا مقلا آخر شخص يمثل ، آخر صلة تربطه بذلك الماضى القريب والشديد البعد ، الشديد العنف والقصر ، والذى لم يتبق منه اى شىء الآن ، ولا حتى تذكار من تلك التذكارات التى لامعنى لها - وردة مجففة ، فردة قفاز ضائعة - والتى تحتفظ بها الذاكرة كجزء من الشخص المحبوب فى ركن درج ما ، بل ولاحتى خطاب واحد ، او صورة (قال لى انه لايعلم لماذا لم يلتقط لها سوى تلك الصورة الرديئة التى اطلعنى عليها ، وسط مجموعة من الاشخاص ، مع اصحاب الفندق والطفلتين ، خاصة وانه كان يعيش دائما ومعه تلك العين الثالثة المتدليه على معدته) . لذلك اعتقد انه لم يكن يعنيه أو يهمه أن يوضح الدور (السلبى ، أو المشين ، أو المحتوم) الذى لعبه موريس فى كل هذا الموضوع ، فى الوقت الذى رأى فيه ذلك العالم ، هذا النظام الذى تعلق باسطورته بنوع من الرهبة المتشائمة التميمية ، وهو ينفجر امامه مثل بالونات الاطفال ، دون ان يترك له حتى بين اصابعه تلك البقايا الضئيلة من قطع الكاوتش . فان يكون موريس نذلا ام لا ، لم يكن لذلك اية اهمية الا بالنسبة لموريس نفسه ، لكن ليس بالنسبة لمونتيس بكل تأكيد (على الاقل ليس فى هذه اللحظة) . اعتقد انه كان الآن بعيد عن مثل هذه التأملات . اعنى مناقشة ان كان ذلك الشخص طيبا ام شريرا ، أو ان كانت الحياة نفسها طيبة او شريرة ، بل وابسط من ذلك ، ما الذى تدل عليه تعبيرات مثل "طيب" أو "شرير" (مثل ما نقره عادة ، مانطلق عليه الحق ، القانون ، وان كان ليس سوى نتاج توازن القوى) واى قوى يمكنها ان تقرر الحد الذى لايجب ان نتخطاه ، أو تحدد الحد الفاصل بين ماهو خطأ ام صواب ، بين ماهو مباح ام ممنوع ، مثال (العرف الخاص بالشرف الذى ربما كان موريس يرتكن اليه) والقيام بالمساواة والتهديد بالابلاغ (يعد شيئا مسموحا) ، وواقعة تبليغ البوليس بالفعل (تعد شيئا غير مسموح) .

لأنه هو لم يخطىء ، ولم يصدق للحظة واحدة ان المفتشين قد حضرا تلقائيا بفعل حاسة التخمين ، يطرقان باب روز . كما ان چب ايضا لم يخطىء : فقد هدد روز بالقتل اذا ما وشت به ، وقام بتنفيذ ذلك ، فقد ضربها قبل ان يحاول الهرب ، لأنه هو ايضا كانت له تجاربه ولا شك مع رجال البوليس ويعلم انهم لايكتشفون اللصوص مثلما يحدث فى الروايات البوليسية ، اى بفضل التخمين والاستنتاج الحاذق ، لكنهم يكتشفونهم بفضل شىء أكثر ابتذالا ، بفضل المعلومات التى يفضى بها المرشدون . اما عن مونتيس ، فلا اعلم مالذى فكر فيه ، او اعتقده ، او لم يفكر فيه . على اى حال يبدو انه لم يسأل نفسه ابدا حول هذا الموضوع ، أو أنه ود أن يعرف اكثر مما رآه ، أما ان يكون قد قرر ذلك . أما أن يكون رضخ لهذه الفكرة ، أو لأنه قد وصل الى مافيه الكفاية من منطقة ما بعد الآلام ، الى تلك المنطقة الخاصة التى نصل اليها مكتفين باعتبار الناس والاحداث كمعطيات

نهائية ، دون الضياع فى البحث بلا جدوى عن الكيفية والاسباب . لذلك ، حينما علمنا فيما بعد كيف تمت الاحداث ، لم اذهب لأعيد عليه او انقل له القصة كما تناقلتها المدينة ، ابتداء ، من ذلك المحور على ماأعتقد ، من تلك النقطة الهندسية ، العصبية ، التى تلتقى فيها اخبار المدينة الشفهية ، وتحاك ، وتتكون ، عبر الصراخ المتبادل من غرفة لاخرى وسط تلك الروائح العنيدة وأزيز مجففات الشعر الكهربائية ، ذلك لأنه يمكنك ان تعهد بشىء الى امرأة مهانة ، أو تعتقد انها مهانة ، فتقوم برد الاهانة فى وقت اقل من الذى يستغرقه سردها ، او على الاكثر نفس الوقت الذى يستغرقه سردها ، ضد الشخص الذى أهانها . فلاشك ان زوجة النائب العام وجدت زيارة ايلين شيئا مهينا ، ولايمكن قبوله ، لا من حيث الوسيلة فى حد ذاتها ولكن فى الاسلوب الذى تمت به ، فعندما راحت تصف الزائرة (وامتنعت عن ذكر اسمها ، على اعتباره سرا من اسرار المهنة) الا أنها وصفتها بحيث يمكن لكل شخص ان يتعرف عليها ! بطنها الفاضح المتعالى ، وجهها الشبيه بالالهة چينون ، هيئتها المتعالية ، المستعجلة ، الآمرة ، بل والجارحة ، على حد قول (أو تفكير) زوجة النائب العام ، كما اعتبرت تصرفها مهينا لأنها لم تتصرف مثل كل الناس ، اى انها لم تذهب لمقابلة زوجها فى مكتبه ، فى المحكمة ، اثناء النهار وبينما كان يمارس مهامه الوظيفية . مثلما كان اى فرد آخر سيتصرف ، بدلا من الذهاب اليه فى بيته الخاص ، دون مراعاة عدم ازعاجه ، وذلك فى الوقت الذى كان سيهم فيه بالجلوس الى المائدة لتناول عشائه . وقلت فى نفسى : عشاء ؟ وفكرت : اذن لقد ذهبت مباشرة ، بلا انتظار ، ما أن اخذت الورقة التى كتبتها اختها ، وبعد أن قامت بربط الاحداث ، بعد ان دفعته الى الحديث ، واغرته بالنقود ، (هى ، ربة الاسرة ، الزوجة المحترمة التى لم تقم فى حياتها باتمام صفقة ما ، ولم تعرف النقود فى حياتها ، ولا قانون المساومة الذى لايرحم ، أو قانون "خذ اكثر ما يمكن وادفع اقل ما يمكن" ولم تعرف اكثر من تلك الورقة التى تكتبها لطباختها صباح كل يوم فى المطبخ وتعطيها لها مع بقية الاوامر قبل ان ترسلها الى السوق - وهو (موريس) ذلك المساوم الحقير ، المشبوة المورد) مثل القوادة الشمطاء وما تفعله بطفل من اطفال الكورال . اتخيل انها فى بادىء الأمر قد عادت الى المنزل ، اعنى : عند والدها . أكاد اراها تدخل غرفة المكتب الداكن حيث الرجل البدين مازال جالسا وسط الموبيليا المغطاه بالقطيفة والصور المزينة بالريش لجنرالات سياس ، ثم تلقى امامه ، بانتصار ، فوق ساقه ، بصفحة المفكرة المنزوعة قائلة ، دون ان ترفع صوتها ، ودون حتى نبرة الانتصار التى قد لاتتمكن غيرها من كبحها (وكأنها تتحدث عن فاتورة ثم تصحيحها ، أو عن خلاف مع احد الموردين ، او خادمة تم فصلها ، أو عن احدى تلك التفاصيل المنزلية التى يقع على عاتق المرأة ترتيبها ، وتسويتها بسرعة وبكتمان ، لأنه ليس من صفات الازواج او الامهات - ولا من كرامتهم ، -

بل ولاحتى فى وسعهم ان يهتموا بمثل هذه الامور الدارجة والبسيطة فى أن واحد - (ولعل ذلك يرجع الى شعور الازدراء المحترم المحافظ الذى تشعر به اية امرأة بابهام حيال اى رجل) -

وقالت : "ها هى . حصلت عليها" ، ويأخذها منها الرجل البدين ، يلقى عليها بنظرة شاردة ، يطبقها مرتين ويلقى بها فوق مكتبه وهو يرفع منكبيه ، وعندئذ تقول هــى : "ما الذى تنوى عمله " هو : "عمله ؟" ، هى : "مع سسيل . هل .." هو : "اعمل ماذا ؟ ما الذى تودين ان افعله . على اى حال ، ان كان ذلك الشاب يعجبها .." هى : "هذا الشاب ؟ ذلك العبيط الذى كل المدينة .." فينظر اليها دون ان يقول شيئا ، وعيناه الضيقتان اللئيمتان ، الغبيتان والنهمتان ، القذرتان اللامعتان على وجه مصاب بعدة وردية ، الى ان قالت : "هل ستتركها تستمر ؟ هل ستتركها تذهب اليه تستنفذه ثانية فى ذلك الفندق المريب ، وتطلب منه لقاءات اخرى على اوراق المفكرة ليأتى صعلوك يعرض علينا شرائها ؟" واخيرا دبت الحيوية فى سلبيته الغامضة وفى وجهه الثقيل ، وتململ ، ليقول بنبرة ضيق : "كل ذلك ليس بالأمر الخطير . على كل حال انه .." فقالت : "ليس بالأمر الخطير ؟ هذا الغبى الذى ، على وشك بلوغ الاربعين من عمره ؟ هذا العبيط ؟ الذى فوق ذلك يلاحق عاهرة ؟ الا ترى خطيرا ان تتورط سسيل وتهزئنا وربما اكثر من ذلك ، .. لا . الا انا . الا انا" ، فقال وهو مازال بلا حراك ، ضخم فى ظلاله المخملية : "مالذى تنوين عمله ؟ انها .."

فقالت : "انوى عمله ؟" ، ونهضت ، ارتدت قفازها : "انوى عمله ؟" ، عادت الى هدوئها . باردة ، ساكنة ، وضعت قبعتها بهدوء ، عدلت من ثوبها امام المرآه وهى تقول : "يجب أن ينتهى كل هذا" ، وقالت : "اعتقد اننى اعرف وسيلة" ، ثم قالت : "على اى حال ، ستكون النتيجة دائما غيابهما ، وبعد ذلك سنرى ان كانت .. واستمرت وكأنها تحدث نفسها ، وقد عادت ثانية الى ذلك القناع البارد ، المغلق ، الذى كانت تصفه زوجة النائب العام فيما بعد وهى تحكى القصة : فنهض زوجها حينما اعلنت الخادمة عن قدوم الزائرة ، وجدها تنتظره فى الردهة ، تنظر اليه بنفس تلك العين غير المعبرة (بنفس الطريقة على ما اعتقد التى نظرت بها الى موريس ، والى الغجرى الذى ضبطته عاريا مع خادمتها ، الذى كانت تنظر اليه مثلما كانت تنظر الى موظف شركة الغاز الذى يحضر لقراءة العداد أو الى طبيب الاسنان ، أى دون ان تراهم ، مثلما تطوعت ايام الحرب كممرضة ، فكانت ولاشك ترفع البطاطين ، وتعاون الجرحى على قضاء حاجتهم بنفس النظرة) راحت تنظر اليه بينما كان يقترب تجاهها معتذرا ، اما هى فمدت له يدها بالقفاز ، بنفس الطريقة ، الغائبة عن الوجود ، المتحجرة .. كانت تعرفه ، فقد تعرفت اليه اثناء دعوة عشاء من قبل ، حيث جلسا جنبا الى جنب ولعل ذلك ولاشك هو الذى جعلها تحسم الموقف ، وتقرر هذه المحاولة التى لما فكرت فيها

ابدا لو اضطرت للذهاب الى مأمورية البوليس وتطلب التحدث الى شخص لاتعرفه . اما السبب الثانى الذى دفعها الى الذهاب اليه فهو أملها فى أن تحضر الفضيحة التى كانت ستتورط فيها شقيقتها اذا ما راح البوليس يتبع ما تخيلته من وجود عصابة ، ورئيس عصابة وعصابة من اللصوص والعاهرات التى سقط بين ايديها ابن العم العبيط ، ولم تكن لتكترث به ، ولكنها كانت هناك شقيقتها . ولاشك انه لولا ذلك ايضا لاعتبرت هذه المحاولة ، حتى ، وان كان الهدف غير المغرض هو الايقاع بلص ، لامن حيث الكبرياء ، او الحياء ، لكن لأن التدخل فى محاولة اقل من مستواها يعد من المسائل المهينة فى نظرها ، اذ ان الاشخاص الذين تتم سرقتهم يتورطون ايضا بصورة ما (مثلما يحدث فى حوادث الاغتصاب) ، اى انهم يتورطون بحكم اشتراكهم فى احدى هذه الحكايات القذرة التى يمكن قراءتها فى الصحف ، فى باب الاغتيالات والمحاكم الذى يبدو انه محجوز مثل الهزات الارضية والفيضانات ، لفئة معينة من الناس - كاليونانيين ، والصينيين ، والعائلات الايطالية البائسة التى يمكن رؤيتها فى الصور ، بثياب رثة ، قذرة ، يحتضنون احدى هذه الاشياء القذرة مثل المقلاية او لحاف تم انقاذها من الكارثة - فئة حتى وان كانت لضحايا سلبيين ، فانهم يحملون ثقل اللعنة والخطيئة الى حد ما .

وهكذا ، ووفقا لقول زوجة النائب ، كانت ايلين تقف هناك ، ربما مثلما كانت ستقف فى مكان سىء السمعة ، او على الأقل فى مكان مشكوك فيه . معتبرة ان النائب ينتمى ايضا الى عالم الجريمة والقذارة - ولايعنيها أن كان عدوا - فاكتفت بأن مدت يدها وسحبتها بعد ان صافحها (أو قبلها) دون حتى أن تظهر انها لاحظت انه لمسها ، ثم تبعته الى غرفة الطعام ، وحيت السيدة والاطفال الجالسين حول المائدة . بانحناءة من رأسها (بنوع من الابتسامة المطبوعة الآلية ، التى كرمشت وجهها ، لم تضئه : وانما مطته ، وسرعان ما عاد الى عدم تعبيره فى اللحظة التالية : ، ثم دخلت المكتب ، وما ان اغلق الباب عليهما حتى قالت وهى مشدودة ، متصلبة ، دون ان يبدو عليها انها لاحظت المقعد الذى كان يقربه منها : "هاك الموضوع : اتذكر واقعة سرقة المجوهرات التى تمت منذ فترة ؟" ثم قالت : "لقد تذكرت فجأة أن الاشخاص الذين وقعوا ضحية هذه السرقة كانوا قد عينوا خادمة كنت قد طردتها فى بداية هذا الشتاء .." ، ثم توقفت . راحت تنظر اليه وهى تجذب انفاسها ، بحدقتين باردتين ايضا ، لونهما ازرق فاتح ، ثم استدارت ، راحت تتأمل زخارف المدفأة ، أو أى شىء فوق المكتب ، أو مقعد ، بينما كانت تقول بسرعة شديدة : "حسنا . لقد علمت اليوم شيئا سمح لى بعمل مقارنة معينة ، بالطبع قد اكون مخطئة ، لكنى اعتقد اننى اعرف من هو السارق"

وبعد ذلك ، لعلها اكتفت بالبحث فى الجريدة صباح كل يوم بوجهها المتعالى الدقيق المتوتر قليلا ، يشوبها الملل ، التفكير ، مقطبة الحاجبين ، تقلب الصفحات بضيق الى ان عثرت اخيرا بعد يومين ، وان لم يكن بالضبط ما ينطبق على توقعاتها ، فقد قرأت كلمة "مصرع" بدلا من "تم القبض" ثم قرأت "مجرم خطير"، وبعد مسافة قرأت "مطعونا بالخنجر"، لكنه دون ان تهتز عضلة واحدة من ملامحها ، كانت حدقتاها فحسب هما اللتان تتحركان ، وهى تمر على الصفحة يمينا ويسارا ، ومن اعلى الى اسفل ، وهى تلتهم الاسطر لتقرأ المقال ، لكنها لم تكن راضية او منفعله او مضطربة ، ولعلها لم تفكر فى أكثر من : "اذن لم أكن مخطئة ، كان هو" ولم تضف شيئا ، واستمرت فى القراءة كما لو انها لم تشترك فى كل ذلك اطلاقا ، بل ولم تفكر حتى لتبرر تصرفها "على اى حال . كانا سينتهيان بهذه الصورة" ،

وانما قالت : "والآن اعتقد ان ذلك يعتبر درسا لها" ولم تعبر عن اى شىء أخر اكتفت فقط بان تركت الجريدة فى مكان واضح ، مفتوحة على الصفحة التى بها المقال ، وربما وضعت علامة معينة أو اى شىء لتدرك منه ان كان احدا قد أمسك الجريدة وقرأها ، وراحت ترقب وجه اختها تنتظر ، تراقب تحركاتها ، تستنتج وفقا للوقت ، ولنوعية الثياب التى ترتديها ، والاتجاه الذى تسير فيه واحتمالات جدول اعمالها ، وبكل تأكيد لم تكن بحاجة لكى تتبعها ، مكتفية فى المساء بذلك الفحص الحاد (ليس الذكاء والاستنتاج ، بل ولا حتى المراقبة : شىء ما اعمق من هذا ، شىء فى كيانها ، فى لحمها : مجرد لمحة خاطفة ، ومضة خاطفة ، تضبيق خاطف لحدقتيها الزرقاوتين الباهتتين ، بلا لون تقريبا ، نظرة حادة ، ثم لاشىء) ذلك الفحص الذى تتمكن النساء من خلاله لا باستنتاج الاشياء وانما بحسها ، فهن يعرفن قبل ان يعرفن انهن يعرفن ، وتأكدت .

وبالفعل ، حينما سألت مونتيس فيما بعد ، قال لى انه لم يرها ، وانها لم تذهب لمقابلته ورمقنى بتلك النظرة المندهشة ، المذهولة والمتضايقة الى حد ما ، كأننى سألته سؤالا دون رغبة فى سماع الاجابة ، بحيث ظللت انظر اليه فترة ، وكاد الغضب يعترينى ، بينما رحت اتساءل : "ما الذى يخفيه ؟ هل .." ثم اشحت بوجهى وقلت اى شىء وانا افكر : "لا . لا اوب دى فيجا ، ولا كالديرون .

لاشىء سوى الديكور : الواجهة المصنوعة من الطوب المطلة على الميدان ، العارى ، الميت ، الخالى ، الذى تلفحه الشمس احيانا ، او تغرقه الظلال ، وانما يلفحه ويصقله ذلك الريح الذى لا يكل بلا هوادة ، ولايوجد ممثلون يثرثرون عند مقدمة المسرح يحكون اسرارهم ، وآلامهم ، وانما هناك شىء ما اخرس ، اخرس مثل هذا الديكور ، وهذا الحائط العارى ، وهذا الباب الثقيل . وصمت مطبق تماما ؟ ولا اى تمثيل صامت بحركات معبرة ، أو وقفات ، أو حركات تقليد : شىء

ما حيث يوجد فى أعماق المسرح واجهة ذلك البيت الفاخر الصارم ، والممثلون يظهرون ، يعبرون خشبة المسرح بلا توقف ، يمرون امام البيت ، يدخلون او يخرجون بنفس ذلك القناع الصامت ، غير الذاتى ، الاصم ، مجرد تحركات لايمكن تفسيرها ، وغير مفسرة ، ويظل المسرح خاليا لفترات طويلة ، ولاتحتله سوى الريح كلما اصبحت الشخصيات بحركاتها الصامته (ولايتحدث الممثلون فى أكثر من حالة الجو ، او بعض التفاهات ، أو الطعام الذى تناولوه أو لون احد الثياب) وفجأة ، ودون ان يكون قد حدث اى شىء أخر ، ودون ان يرفع احد صوته ، أو يحث خطاه ، أو يئن ، أو حتى دون ان يجرى احد : نرى تابوتا او ميتا ، وذلك دون ان تتغير تلك الملامح التى لاتهزم ، وكأنه لايدور اى شىء خلف تلك الجدران ، ولا خلف تلك الوجوه ، بل كأنه لايوجد اى شىء تحت هذه الثياب ، أو فى هذه الاجسام ، ولا اى شىء ايضا تحت الجبهات ، لا افكار ، ولاقلوب ، ولا اعضاء تتألم ، أو تتمنى ، تغضب ، منفعله وواهنة ، بل ولا حتى (اشخاص) من حاملى السيوف علانية ، أو يمسكون بالمعول او الخنجر الذى يرفع جانب الحرملة ، بل ولا يرتدون الخواتم التى يخفون بها السم ، وكأن كل ذلك لاطائل له ، ولا يصلح الا لسكان فيرونا او سراجوس أيام حكم فرديناند داراجون ، اما هم (الشخصيات العصرية) فيمتازون ولاشك بملكات وباسلحة غيبية ، أو فائقة الصنع مثلما فى روايات الخيال العلمى ، لكنها اسلحة غير مرئية ، تعطيهم القدرة على الصعق عن بُعد ، دون القيام بأية حركة أو دون نطق اية كلمة ، فيسقط احدهما ميتا دون ان يتمكن الآخر من النظر تجاهه ، او دون القيام بأية حركة : بل ويمكن قول افضل من ذلك : ان يتشابكا فى مبارزة دون ان يرى كل منهما الآخر ، كالعميان ، دون حتى الشعور بهما (حيث ان اتقان الاسلحة قد وصل الى هذا الحد) مثل هؤلاء الاشخاص الذين لا يدركون انهم اصيبوا بجراح الا بعد فترة ما ، فيقولون : "ترى اين استطعت ان اجرح نفس ؟" ، أو حينما يعودون الى ديارهم بعد الافلات من حادث ما ، وهم سالمين شكلا ، وفجأة (بعد ساعة ، او بعد يوم أو حتى بعد اسبوع) يشعرون فجأة بالألم ، فيرقدون فى الفراش ، وبينما هم يحتضرون ، يعبر قناع الموت لأول مرة عن شىء ما ! يعبر عن مفاجأة لاتوصف ، عن اندهاش خفيف ، او شىء من الاستنكار ، او الاستغراب الذى لايوصف .

وذلك مثل التعبير الذى كان يمكن تبينه على وجه مونتيس حينما كنت احدثه عن سسيل ، واسأله آن كان قد رآها ثانية واعتقد انه كان نفس التعبير ايضا الذى ارتسم على وجهه حينما ذهب موريس لملاقاته وهو جالس على الاريكه فى الميدان ليساومة ومعه ورقة الاجنده المنزوعه والمكرمشه التى وضعتها تحت باب غرفته لتطلب منه تحديد موعد بسرعة . لم يكن التعبير والاندهاش ينم عن الاستغراب بقدر ما كان يدل على انسان مستغرق فى محاولة حل مسألة حسابية

عويصه من الدرجة الرابعة ثم يأتى احد ليسأله عن الغلام الذى قذف بالكرة على نافذته . والوضع ببساطه هو : انه لم يرها . على اى حال لم يقل لى آكثر من هذا ، او أكثر مما وصفه لى ، مثلما رأها اثناء ذلك العشاء ، فى ذلك المنزل الكئيب الشكل (لكنه حدد انه كان يفكر فى ذلك اليوم الذى دعاه فيه المسجل فى منزل والده فى غرفة الطعام التى فتحت لهذه المناسبة ، الحجرة ذات الرائحة العفنة والجو المغلق : فكل المنازل هنا تشبه سراديب الدفن) : وتلك الفتاة الشبيهة بالصبيان ، شعرها القصير المقصوص كالصبيان ، بلونه الكستنائى ، شعر اشعث وكأن يد الحلاق لم تمسسه قط ، وجسدها الشبيه بالصبيان ايضا ضيق الحوض ، باكتاف مربعة ، ووجه حاد ، نحيل قاس ، وكأنه منحوت على عجل ، وكأن الوجه والجسد ، وكل الباقى ايضا ، يمثل نقيض شقيقتها ، الشبيهة بالآلهه چينون المنمقة ، الملامح ، المستديرة ، ذات الارداف الممتلئة . وسواء كانت سسيل تمثل النقيض الطبيعى ، أو سواء كان عدم التشابه هذا نتيجة لارادة محددة ، متصلبة الرأى ، عنيدة ، لم تقم بتنمية كل ما يمكن ان يميزها عن شقيقتها الكبرى فحسب وانما بتنمية كل ما يجعلها نقيضتها . واذا ما نظرنا فى الامر وفقا لما حدث بعد ذلك ، يتضح صواب هذا القول ، أى كانت هناك ارادة ، وثورة ، وربما لم تكن موجهة ضد اختها فحسب . ربما كان هناك شىء اكبر من ذلك ، وبالتالى شيئا أكثر ابهاما ، وبالتالى شىء يصعب تهدأته .. ثورة من تلك الثورات التى لايوجد لها سبب واضح ، والموجهه ضد لاشىء ، وضد كل شىء : اختها ، عائلتها ، لون عينيها ، الوسط الذى تعيش فيه ، حذاؤها شديد الضيق ، الزجاجة التى لاتفتح بسهولة ضد اى شىء ينم عن اية مقاومة . وفى نفس الوقت ، وكنوع من التناقض ، ضد اى شىء يرجع بسهولة . وربما كان (هذا الغضب ، هذا الحنق البارد ، الدائم ، هذا التمرد اجمالا) موجها ضد نفسها فى المقام الأول ، اى ضد وصفها الاجبارى كأنثى ، بل وأكثر من وضع الانثى : وضع الشابه ، كنوع من المزايدة على الحالة الاولى . ذلك الاستعداد الذى يعد بمثابة كيان النوع الانثوى : ادراكها بانها ليست الا فراغا ، وعاء ، انية .

وفيما بعد ، حينما علمت المدينة بمختلف تفاصيل القصة ، والطريقة التى فسخت بها خطبتها ، وكيف جرت خلف مونتيس دون مراعاة للحياء ولا للتقاليد المتبعة ، وبلا اية مهارة (وان كان المعنى واحدا بصورة إجمالية) ، ثم عادت الى خطيبها لتتركه مرة ثانية – أو هو الذى تركها – بدأ الناس يتلسنون عليها .

ولاشك انها اعطتهم الفرصة لتعويض مافاتهم ، خاصة وانها قبل ذلك لم تعطيها لهم ، فلم يجدوا ما يتهامسون فيه سوى طريقة لبسها ، وقصة شعرها ، وتصرفاتها الصبيانية .. لم تكن حتى مثل هؤلاء الفتيات اللائى ينتحين جانبا فى

الاحتفالات ، جانبا بعيدا عن الاضواء ، او يتسللن خلسة اثناء الحفلة فى نفس الوقت الذى يختفى فيه احد الشبان ، كما ان الشبان فيما بينهم ، لم يتحدثوا عنها ابدا بهذه الطريقة المميزة (وهم يتغامزون عليها) مثلما يفعلون وهم يتحدثون عن الفتيات الاخريات ، حتى اكثرهم دراية ، مالكى السيارات ، والسيارات المكشوفة ، حتى الذين اصطحبوها ، مندفعين وهم يرقبونها بطرف عينيهم الى مكان تعطلت فيه السيارة زعما ، او الى المكان المناسب . فلقد حدث ذلك ثلاث او اربع مرات : تتوقف السيارة فى الظل ، وشخص أخر يرقب من الخلف ويراهما عبر الزجاج الخلفى ، الرأسان بشعر قصير ، رقبتان لصبيين ، فى البداية كل رقبة على طرف من المقعد ، ثم احدهما ـ يقوم بحركة ، يقترب ، يميل ، وعندئذ ، وبصورة شبه تلقائيا ، صوت الباب يغلق بحدة وطيف الفتاة النحيل واقفه على الطريقه ، تسرع الخطى (حتى وان كانا على بعد عشرين او ثلاثين كيلومترا من المدينة وفى عز الليل) دون ان تلتفت ، دون ان تنظر خلفها مرة واحدة بينما الشاب يحرك السيارة ويلحق بها ، يسير بجوارها ببطء على الصوت الهامس الصامت للعربة ذات الستة او ثمانية سيلندرات ، وقد اخرج رأسه من النافذة ، يعتذر ، يتوسل ، الى ان تتوقف قائلة : "حسنا . سأركب . لكن ، ابتعد " والشاب يقول : "ابتعد .." فتقول "انا التى سأقود . هيا . اسرع" وتفتح الباب ، ويقول الشاب : "لكن ، اسمعى : هل تجيدين القيا .." فتقول : "ابتعد ايها الاحمق !" ، فيقول الشاب : "على الاقل هل معك رخصة القيادة ؟" فتقول : "لا . هيا . كيف تتحرك سرعات هذا المحرك" وبعد ذلك يمكن رؤية هذا الشاب جالسا فى شرفة اى مقهى او بار ، وهو مازال يشوبه الهلع ، يحاول ان يتمالك نفسه بابتلاع كأس ، أو يكون مايزال مهزوزا ولا يستطيع التباهى او تأليف احدى البجاحات ، وغير قادر الا على ترديد "ياالله .. ياساتر .." كالأبلة ، ثم يقول (للخادم ، او للبارمان ، أو لصاحب يقابله) : « ياالهى ! حينما رأت تلك الشاحنة تنقض قلت فى نفسى : ان الضربة قاضية ! لكنها تمكنت من الافلات ، دون ان ترفع قدمها من فوق بدال السرعة وكأنها ملتصقة به . وهل تعتقد انها هدأت السرعة بعد ذلك ! ياالهى ! وحينما وصلنا الى منحنى الـ ..." وهكذا ربما استطعنا ان نتخيلها (أو على الارجح ان نحاول تخيل ما الذى اعتمل فى داخلها) وفى ذلك اليوم الذى رأت فيه مونتيس لأول مرة ، هو يتقدم نحوهم (والدها ، شقيقتها ، هى ، وذلك الخطيب ـ لاشك انه واحد من الذين استطاعوا التغلب على خوفهم ، او على الاقل لايظهره ، وظل ممسكا بصمت بمقعده بينما كانت تقود السيارة بسرعة مائة كيلومتر فى الساعة حتى فى المنحنيات ، وتلعب الاستغماية مع سيارات النقل ، وتكون معدته من القوة بحيث يمكنه القول حينما ينزل من السيارة « كانت رحلة ممتعة : متى يمكننا القيام بجولة اخرى ؟"

فكان يتقدم اذن مرتديا تلك الجاكته المصنوعة من القطيفة الناحلة والماذ الى الاخضرار ، بوجهه الغريب المهموم ، وشكله المذهول الهادىء ، ونظرته المتناقضة التى تجمع بين نظرة الخونة السوداء ونظرة فتى الشاشة ("وملايينه على حد قول الناس ـ يبدو انك نسيت انه فى هذه اللحظة كان قد ورث ضيعه من اجمل ضيعات المنطقة وان ..") حسنا : وملايينه ، على الأقل من حيث فاعليتها . لا انساها . لايوجد من ينسى الملايين . بل وماهو اقل من الملايين . حتى ـ وخاصة ـ من ينسون انهم لاينسونها . اذن ، لقد رأت هى كل ذلك : الجاكته الناحلة ، الوجه ، العينين والملايين . حسنا . ولماذا كانت لاتراهم ؟ حسنا) . يبقى ان ذلك يمثل شيئا او بمعنى اصح يمثل شخصا لا يشبه اى فرد من الذين تخيلتهم أو عرفتهم حتى هذه اللحظة بل ولا يشبه اى واحد من هؤلاء الشبان الذين يملكون السيارات المكشوفة أوحتى بلا سيارات . كما انه لايشبه اى واحد من هؤلاء الرجال الذين كوّنوا انفسهم والذين يتحدثون عن اسعار النبيذ ، وعن التدابير السياسية ، ولعبة البريدج او ما كانت تستهلكه سياراتهم . فلا شك انها بدأت تعرف ما فيه الكفاية عن الشبان ذوى السيارات المكشوفة ، عن مضارب الكرة والياقات الايطالية ، وعما يصل اليه نفس هؤلاء الشبان فيما بعد ، وعلى نوع الحياة التى يمكن لامرأة ان تحياها بجوارهم .
"لكنها كانت تمزح فحسب ، على حد تعبير مونتيس انت تعرف ما معنى : فتاة من هذا الوسط ، جميلة ، شابة ، وانا .. لعلك تدرك . كانت تمزح فحسب . لم تكن سيئه النيه" ـ فقلت : "لا ، لم تكن سيئة النيه . لكننى لم اتحدث عن سوء نيه" ثم فكرت اذن لقد فسخت خطبتها . لكن الفكرة لم تدر بخلد مونتيس ان تكون فسختها من اجله . وعلى اى حال فلا يوجد ما يثبت ذلك . حتى كونها راحت تبلغه بهذه الواقعة ببساطه وفى غرفته . على اى حال ، لسبب او لآخر ، لقد تم وحدث الآتى : لقد طردت خطيبها وبعد فترة ، بما انه (مونتيس) لم يقرر الذهاب اليها لم تطأ قدماه منزل والدها ثانية ، فقد قررت (او انتهزت فرصة الدعوة الثانية التى وجهها له والدها ، أو اقترحت على والدها ان يدعوه هذه المرة الثانية ، أو وافقت على اقتراح والدها بأن تقوم بنفسها بتوصل هذه الدعوة اليه لتوفير طابع البريد) لذلك قررت الذهاب لمقابلة مونتيس فى فندقه القذر .

لكن حتى فى هذه المرة فهو لم يرها . على الاقل لم يرها كما كانت تتمنى . او تتوقع ان يراها ، ذلك انه بعد ذلك لم يذهب اليهم مرة اخرى ، مما اضطرها ، هى ، ان تذهب اليه ثانية (ولم اسأل مونتيس) ان كان ذلك يمثل جزءا من المزاح : الاهانة ، الغضب ، الغيرة ، وحقيقة معاملتها للشبان الاثرياء فى المدينة على انهم مجرد مستأجرى سيارات ، وان تجد نفسها امام احد متصنعى الشجاعة

الذى يكبرها بخمسة عشر عاما والذى لم يلحظها فى حين انه كان يقوم بدور الاب الحنون على مرأى من الجميع مع طفلتى خادمة مطعم حقير . حسنا . وان تكون قد عادت لتلقاه للمرة الثالثة ـ ربما لتعتذر له عن تصرفها ، عن وقاحتها ، او ان تكون قد فهمت ، او وافقت ، او ارادت ان تقول له ، عكس ما كانت قد تمنته : « ادرك الامر ، لقد تصرفت كالبلهاء . حسنا . هل تود ان نكون اصدقاء ؟ » ، لكن حينما لم تجده ، كتبت بسرعة على صفحة المفكرة التى مزقتها ووضعتها تحت الباب . وذلك ايضا من قبيل التسالى والملايين ، بلاشك . لكنها فعلته . ثم لاشك انها انتظرت ان يقوم باية بادرة ، ان يرسل لها كلمة ، اى شيء تفهم منه انه رآها ، انه رغم كل شيء قد لاحظ وجودها ، وحينما علمت بما حدث ، سواء عن طريق احد الخدم ، او عن طريق الناس ، او ربما من تلك الجريدة التى تركتها اختها عمدا ، لاشك انها ظلت تنتظر ، وربما بنوع من الأمل ، وان كان بطريقة اخرى ، فإذا ماكانت قبل قراءة الجريدة يمكنها ترك الكبرياء والحياء جانبا لتعود ثانية لتحاول لقاءه ، فالآن لم يعد بوسعها الذهاب ثانية دون التوغل فى حدود البذاءة ، لا لأنها علمت او عرفت بمحاولة موريس ، والطريقة التى استخدم بها تلك الورقة التى كتبتها (اذ يبدو انها لم تعلم بذلك ابدا ، كما لم تعلم بزيارة اختها للنائب) ، لكن ببساطة لأنها أبت ذلك على نفسها ، واكتفت بالانتظار ، بهدوء شكلى ، فكانت تخرج ، وتعود ، وتعيش حياتها العادية ، بينما اختها ترقبها ، لا مما ينعكس على وجهها ، الذى كانت تعرفه جيدا لكى لاتتوقع ان يدلها على شيء ، لكن من تلك العلامة الذاتية ، تلك الرجفة الغريزية التى تطلعها على كل ما تود معرفته .

ولم يشاهدوها مع خطيبها ثانية الا بعد ذلك بفترة ، بعد ان فسخت خطبتها بشهر تقريبا ، مثلما يطرد احد الخدم ، وهى تركب السيارة بسرعة وتجلس بجواره ، بوجهها الصغير الصارم كالصبيان ، والذى لاينم عن أى شيء . ثم فجأة (وبعد أكثر من اسبوع ، او ربما عشرة ايام) انتهى الموضوع ثانية : لم تعد هناك تلك الرأس بشعرها الاشعث الكستنائى ، لم يعد فى السيارة الا النصف الاعلى لشخص واحد حينما كانت السيارة تمر فى المدينة ، (شخص هادىء ، رزين ، منزو الى حد ما ، بوجه اشبه بالرومان مثل معظم الناس هنا ، صبغته الشمس ، يرتدى دائما تلك البدلة الرمادية الانيقة التفصيل ، والذى يعمل فى تجارة والده ، مثل كل الابناء الوحيدين الذين مصيرهم هو الجلوس ذات يوم على مقعد مازال دافئا فى مكتب معد مسبقا وأمامه كومة من المراسلات جاهزة على التوقيع وحياة مجهزة مسبقا ايضا) ، ثم هو نفسه اختفى ، سافر ، وبعد فترة ، وجده احد اصدقائه جالسا بمفرده على مقعد احد البارات ، فى مكان ما بالكوت دازور (فى مكان مامن بيت الفساد الفاخر ولعب القمار الممتد على مائتى كيلومتر تقريبا حيث اضطر والده لارساله الى هناك بعد ان ملأ جيوبه بالنقود أملا فى انه

من كثرة دس النقود او شىء آخر فى الفتحات المصطفة بطول المائتى كيلومتر من الشاطىء سينجح فى النسيان) ، كان الخطيب يجلس هناك ، وقد ارتسمت على انفه علامة الافراط فى احتساء الخمر ، وان لم تكن تلك عادته ـ لكن ربما قد اصبحت من عاداته ـ وبدأ يتحدث ، لأن هناك اشياء حتى وان كان الشخص مهذب الى اقصى حد ، ورغم كل نياته الحسنة ونشأته الطيبة ، لا يستطيع كتمانها حينما تقع له ، فراح يصف نفسه وهو جالس امامها (سسيل) فى شرفة ذلك المطعم حيث اصطحبها لتناول الغذاء ، وكانت هى بنفس شكلها العنيد ، المنطو (قال انها لم تنطق باكثر من ثلاث كلمات طوال فترة العشاء ، ولم تقل اكثر منها طوال الاسبوع الذى بدأ يلتقيان فيه ثانية ، وانه كان يصطحبها إلى كل مكان فى هذه السيارة أملا فى فك تجاعيد وجهها او على الاقل أملا فى الحصول على ابتسامة او حتى مجرد نظرة بسيطة بدلا من عدم حديثها ، نظير كثرة مجاملاته وملاطفاته) ظلت تنظر الى البحر ، الى الشاطىء الكئيب (ليس الى ذلك الديكور السينمائى كما فى الكوت دازور ، باشجار الارز المنقولة وصخورها المدهونة باللون الاحمر على الاقل ، مرة فى بداية الموسم ، وانما لم يكن امامها سوى : الرمال والبحر فى ضوء الربيع الباهت ، وثلاثة او اربعة فنادق شديدة البياض وشديدة الارتفاع ، مزروعة هنا ، على الرمال المسطحة ، وسط الحشائش والاشواك ، وباقة ضئيلة من شجر الارز المائل بزاوية خمس واربعين درجة ، وبعض الفيللات ذات النخيل ونصف الغارقة فى الرمال ، والبحر خال عار ، والشاطىء خال ، عار ، شاسع ، مهجور ، تعلوه سحابة غير واضحة ترفعها الرمال التى تثيرها الريح ، ولا اى شىء آخر سوى هدب مسطح ، وقليل من الزبد بطول الشاطىء ، تفترش بلا ضوضاء ، مايكاد يتكون ، حتى يمتص ولا يبقى منه الا تلك الفقاعات المثقوبة من سيل الرمال) ، وقالت (سسيل) فجأة : « الا يؤجرون غرف هنا ؟ » فانتفض هو ، ونظر اليها (لكنها لم تنظر اليه ، ظل وجهها الدقيق متجها ناحية البحر ، بأنفها الدقيق الصغير الشبيه بانف الصقر ، وعيناها الرماديتين الصفراوين تحدقان فى الافق الخالى ، المسطح ، الذى يدفع الى اليأس) : « غر ... لا اعرف .... انا ... » هى : « الم تأت ابدا الى هنا مع فتياتك ؟ » هو : « مع ... لكن ... » هى : « ومع ذلك فيبدو انهم يعرفونك هنا » ، هو : « بالطبع . لقد جئت عدة مرات . ان الطعام جيد و .... » هى : « لا اسألك عن الطعام . اسألك ان كانوا يؤجرون غرف » ، فقال : « لكن ... » ، هى : « اذن استأجر غرفة ؟ » ، هو : « لكن ....» ، هى : « اقول لك استأجر غرفة ، الا تفهم الفرنسية ؟ » . وحينما تواجدا داخل الغرفة ، هى فى منتصفها ، تنظر ببرود فيما حولها ، الى ذلك الديكور النمطى لعشاق نمطيين ، بوجهها الصغير الذى مازال لاينم عن أى شىء ، مزدرد ، قاس ، وفى النهاية استدارت ، وقالت بشكل عنيف ،

نافد الصبر : « حسنا . وما الذى تنتظره لكى تستغل الفرصة ؟ » ، هو : « اسمعى ، سسيل ، انك .... » ، هى : « الم تقل لك ان الفرصة مواتية ، عليك بانتهازها . عليك بالاسراع لانتهازها ؟ » ، هو : « لكن عمن ... » ، فصاحت : « عن اختى ! إيلين ! كف عن الاستعباط ! اليس صحيحا ؟ هل انا مخطئة ؟ الم تتصل بك تليفونيا ، او لم تشر اليك ، او تطلب منك العودة عن طريق اى شخص . قائلة ان الوقت قد حان . وانه ماعليك الا ان تظهر . لأننى ... لأننى .... » ، وفى هذه اللحظة خانها صوتها ، احتبس ، خنقتها العبرات المكتومة ، لكنها تمالكت نفسها فورا ، وصاحت ثانية : « هل تجرؤ على انكار ذلك ، انها .... تلك العاهرة ..... اجب : اليس صحيحا ؟ » ، فاخفض رأسه : « اى ان .... » ، هى : « حسنا هذا يكفينى » ، هو : « اسمعى ، سسيل ، لقد طلبت منك ان تكونى زوجتى ، انا .... » ، هى : « حسنا . نعم . تماما . نحن . اننى وحيدة فى غرفة معك . اليس كافيا ؟ » ، هو : « لكن ليس بهذا الشكل ان .... » ، هى : « ليس بهذا الشكل ؟ ألأنه لايوجد عمدة او قسيس ؟ » ، ثم راحت تصرخ ثانية : « لايعنينى ! ولا احد يعنيه . حتى القساوسة لايعنيهم بما انهم يلغون الزواج حينما لايتضاجع الناس . الا تعرف ذلك ؟ وان الشىء الوحيد الذى يتم الاعتبار به فى نظرهم هو ان يتضاجع الناس ، وليس المهم هو الأرغن ، وانهم هم اول من يعترف بذلك بما ان .... أوه ، ثم اننا لسنا هنا لنتفلسف : هل تريد مضاجعتى ام لا ؟ هل سنظل مزروعين هكذا كالعبط الى مالا نهاية ؟ » ، ثم اضافت فورا : « والشمبانيا ؟ اليس من العرف المتبع طلب شمبانيا ؟ » ، هو : « سسيل ، عر .... » ، هى : « ذلك هو الزر ، اضغط واطلب احضار شمبانيا » ، وبعد ذلك كانت ممدة بجواره ، وفجأة ابتعد عنها ، بحركة عنيفة ، وقد امسكها بيديه ، ينظر اليها ، يتفحصها قائلا : « مابك ؟ » ثم اضاف : « ماهنا لك ؟ » ، وهى ، بعينيها المغمضتين ، كالميتة ، وجسدها الطويل اللين المشدود ، كالميت ، لم يكن جسدا واحدا وانما جسدين عارين باردين على هذا الفراش ، كالغارقين ، عرايا ، صغار فى السن ، جميلان وميتان ، بينما كان البحر فى الخارج ميتا ، مسطحا ، ضخما ، يستمر فى الطقطفة بلا نهاية تحت امطار الرمال ، ملايين وملايين الذرات البيضاء ، بصريرها ، وطقطقتها ، مجروفة بالريح التى تقذف بها فى شكل موجات ثابتة ، تتراكم ببطء ، وهى تقتحم جدران الفيللات المهجورة ، والكازينو ببوابته المتقشرة ، والحاجز نصف المردوم ، وهو ممسكا برأسها الشبيهة بالاموات فى كفه قائلا : « اجيبى . ما الذى حدث ؟ » ولم تتحرك رأس الاموات ، بعينيها المغمضة ، المغلقة ، فقال : « هل تراجعت ؟ يمكننا التوق .... مازال .... » ، فتحركت فجأة ، دبت الحيوية فى وجهها ، واعتراها نوع من الغضب ، من الغيظ الشديد ، وان ظلت مغمضة العينين قائلة : « بالعكس ! » ،

« ومع ذلك كانت عذراء ! لقد تأكدت توا . ولم يكن علىّ الا ان انظر لأرى الدليل ! » (اعتقد ذلك هو ما قاله فى ذلك البار ، بينما كانت الساعة تدق الثانية صباحا ، وقد احتسى كأسا أو اثنتين زيادة فى معدته والثالث نصف ملآن امامه . وربما كانت بجواره عاهرة ما ، آلة من الات العملة مزودة بملكة الكلام جالسة على ساقه ، تحاول ايقافه ، وهى تحملق فى زميله ، قائلة : « اليس من الدهاء ان تدفع له هذا الكأس ! انت ، سأحتجزك ! الم تر فى اى حالة كان ؟ اذلك مايسمونهم الاصدقاء القدامى .... » ، اما هو فازاحها بحركة من كتفه وتخلص منها ، وهو يكرر : « كانت عذراء ! » ولاشك انه كان يكررها لنفسه بينما كان يرتدى ثيابه ، وكلاهما صامت فى تلك الغرفة الصامتة ، هو يرمقها من وقت لآخر بنظرة خاطفة ، وهى مازالت جالسة على حافة الفراش عارية ، بوجه غامض ، بلا حرج او ارتباك ظاهر ، كأنها ليست اول مرة تجد نفسها عارية امام رجل ، بعد ان كانت اكثر من عارية ، دون ان تنظر تجاهه ، راحت تلف فردتى جوربها بعناية قبل ان ترتديها . ثم انحنى ورأى لماذا كانت تصر على خفض رأسها بعناد على ذلك الجورب الذى لم تتمكن من ارتدائه ، وحينما ادركت انه ادرك ماهى فيه قالت دون ان تحرك رأسها :

« ارحل ... ارجوك » . لكنها لم تكف عن البكاء . كانت الدموع تنساب ببطء بطول وجنتيها ، بلا ضوضاء . ومرة ثانية ، دون ان تتحرك او تلف رأسها ، قالت للمرة الثانية : « اغرب عن وجهى . سآخذ الترام » . وبعد فترة اضافت : « لم لاترحل ؟ ما الذى تنتظره ؟ » ، وظل هو واقفا ، مرتديا ثيابه ، وقد بدأ يدرك انه خدع ، خش ، هدمته امرأة ، لكنها لم تكن هى ، ثم انتفض على صراخها ، وهى تلقى بفردتى جوربها على الأرض ، ثم بحقيبة يدها التى كانت قد وضعتها على الكمودينو ، ثم القت بالاباجورة التى ارتطمت بالحائط ، وهى مازالت تصرخ ، لكن بطريقة اخرى ، بصوت ملأته الدموع قائلة : « وخاصة لاتنسى ان تشكرها ، هه لا تنسى ! والآن اتركنى وشأنى ايها الاحمق ، اتركنى وشأنى ، اتسمعنى ؟ اتسمعنى ؟ اتسمعنى ؟ » .

كان الجو ربيعا ، اذكر ان الريح ظلت تعصف بلا هوادة لمدة ثلاثة اشهر ، لدرجة انها حينما كانت تتوقف صدفة (لمدة بضعة ساعات او عدة ايام - وليست اكثر من يومين او ثلاثة) يخيل للمرء انه مازال يسمعها . تئن وتعصف ، ليس فى الخارج ولكن كأنها تعصف داخل الرءوس ذاتها : اصوات مجلجلة ، اصوات خالية من مضمونها ، مليئة بالضوضاء فحسب ، وعلى مايبدو ، مليئة بذلك الغبار الذى كان يتوغل فى كل مكان ، تحت الاجفان الملتهبة ، فى الفم ، مضيفا طعمه الى المأكولات ، متداخلا بين جلد اصابع اليد وكل ماتمسك به (اوراق منسية من الامس فوق المكتب ، اطباق ، شوك ملاعق وسكاكين) حائل متسلط ، لايكاد يرى ، محبب الملمس .

وفيما حول عيد العنصرة ، تضاعفت الريح ، ظلت تعوى لمدة ثمانية ايام وثمانية ليال متتالية كالاعصار ، تكسو الشوارع بالاوراق الجافة وافرع الاشجار المكسورة ، تكسر دعائم اشجار الكروم وتنهر الدعائم الاخرى التى كانت تصمد لها بعنف شديد بحيث تلف النبات وضاع كل المحصول تقريبا .

واتى الصيف . ملتهب الحرارة ، جاف هو ايضا ، واكثر غبارا . لكن الغبار حاليا كانت تثيره السيارات ، ويجرى اطفال الغجر (وجلد اقدامهم الداكن الغامق ، الجامد كالكاللو من اسفل ولونه رمادى كنعل الحذاء القديم) يجرون نصف عرايا او حتى عرايا تماما ، يجرون فى جماعات على جانبى الطريق او فى الضواحى ، لم تعد هناك اية نسمة ، الجو خانق ، ساكن . شىء معتم ينفذ الى الرئة دون ان يشبه الهواء ، يطبق كالشق اللين الثقيل خلف سيارات السياح ، اشخاص يرتدون الكاسكيتات البيض ، والقمصان ذات المربعات ، وألات التصوير ، وزوجاتهم المرتديات الشورت ، يستعرض سيقانهم المحمرة المرتجفة ، يعبرون الطريق بسرعة (لا يتوقفون الا لحظة التقاط الصور الفوتوغرافية ، بسيقانهم ، وكاسكيتاتهم ، وسوتياناتهم ، مغمضين عيونهم مكشرين من الشمس وهم امام المتاريس القديمة او بوابة الكنيسة) ليصلوا الى الشاطىء باسرع مايمكن ، ليسترخوا فى شرفة الكازينوهات وهم يحتسون المرطبات على جعير

« البيكابات » وهى تفيض بألحان التانجو والاغانى العاطفية بلا توقف . وكانت المدينة تبدو مهجورة ، ميته ، بمحلاتها المغلقة ، وشوارع وسط البلد شبه الخالية ، الساكنة ، تحت شمس ثابتة ، ولا تدب فيها الحياة الا مساءً ، فى الحوارى الضيقة للأحياء العالية حيث يوجد ذلك الجزء السكنى (لناس لايذهبون الى البحر الا بضعة آحاد من الصيف وفى الخامس عشر من شهر اغسطس ، بالترام المزدحم ، منذ الصباح الباكر ، ومعهم سلات الطعام ، يجلسون على الرمل قرب المياه ، ويخرج الرجال معدات الصيد ، والنسوة بوجوههن المتعبة ، المثقلة ، يشمرن جونلاتهن لكى لاتتكرمش ، ينزعن جواربهن ، كاشفات عن سيقان شديدة البياض ، بعروق نافرة ، ويظلون هناك ، تحت الضوء الساطع ، شبه مذهولات ، مندهشات لفراغهن ، يتأملن الرمال وهى تنساب بين اصابعهن ، بينما نسمات البحر التى تميل قلاع اليخوت ، فى عرض البحر تمزح برفع ثيابهن . تنفخ جونلاتهن كالبالون حول خسرهن وهن يحاولن انزالها) ، اناس يبحثون دائما هنا ، فى الصيف كما فى الشتاء ، لاعن نضارة الجو ، ولا حتى عن الهواء ، وانما عن تأخير لحظة عودتهم الى تلك الغرف الخانقة ، حيث يسحبون المقاعد ويجلسون امام الأبواب ، النساء يرتدين الاحذية البالية ، والرجال بالقمصان ، وياقاتهم مفتوحة ، واكمامهم مشمرة ، مرفوعة حتى الكوعين تكشف عن عضلات كثيفة الشعر ، وفى الأرض الخلاء كور اللاعبين تثير وهى تسقط نفحات صغيرة من الغبار ، الجاف ، الرمادى ، فى الهواء الجاف ، بلا حركة ، وشيئا فشيئا ، ودون ان تهدأ الحرارة اللافحة ، يأتى المساء رمادى هو ايضا ، خانق ومكتفيا ببساطة بالتحول الى اللون الاسود ، اكثر سمكا ، دون ان يقرر الناس الانسحاب الى الداخل ، بحيث يلمح المرء فى هذه الظلمات المثقوبة ببضعة نوافذ مضاءة همسات متداخلة ، ثرثرة مبهمة ، واحيانا بؤرة ضوء احمر لسيجارة ، وجه خافت ، والظلام ملىء بأصوات لاترى ، ملولة ، ميتة ، ويجلس مونتيس هناك ، غير واضح هو ايضا ، تحت الاوراق الكثيفة ، المظلمة وعديمة الحركة لنفس شجرة الصنار التى جلس تحتها هو وروز جنبا الى جنب تلك المرة الوحيدة فى الربيع ، يتبادلان ذلك الحوار الثنائى الغريب ، وربما كلمات العشق الوحيدة التى سمعها ونطقها فى حياته ، وربما الكلمات الوحيدة التى سمعها ونطقها فى حياته ، وربما الكلمات الوحيدة التى سمعتها ونطقتها هى ايضا وان لم يرد ذكر كلمات الحب بينهما ولا مرة ، وكثيرا ما (سافرت ايضا فى اجازات ، بعيدة بقدر الامكان عن المدينة ، والحر ، والشاطىء المزعج الاصوات) وكنت افكر فيه ، احاول ان اتصوره ، جالسا هنا ، وحيدا ، فى الظلام ، يتحدث مع ذلك الشبح ، ذلك الفراغ ، تعلوه الافرع المتصلبة ، ونفس الاوراق التى رآها تتفتح فى مطلع الربيع ، واهنة ، يعلوها الزغب شاحبة ، متصلبة ولا حياة ، تحت كفن الغبار المتراكم ، وكآنها

توجد فى الخلاء الرحب ، وانما داخل بيت ، فى احدى تلك الغرف الخالية ، المهجورة ، التى لم يسكنها اى شخص بعد وفاة ما ، او بعد فترة حداد ، ليست شجرة : وانما باقة من تلك الباقات الزابلة التى تجف ببطء قبل ان تتساقط بدورها غبارا ، وكأن السماء المعتمة المكتومة تثقل على البيوت ، وتحبه هو ، والاشجار المتصلبة ، والميدان بأسره بضوضاء ، اصواته الهامسة ، المترنمة ، فى مكان مغلق من كافة الاتجاهات ، لايرحم ، ذى رائحة متسلطة هى رائحة الموت والانطواء .

وكان يأتى ايضا اثناء النهار ، حينما يكون لديه بعض الوقت ، بين مشوارين ، يجلس ، يظل هنا يتأمل حذاءه دون ان يراه وقد تحول الى لون الغبار الرمادى ، وحقيبة اوراقه الضخمة بجواره ، ويعلو وجهه نفس ذلك التعبير الغبى ، المنهمك ، الذى اعتادوا ان يروه به ، وهو يتنقل بين كتبة المحاميين او الموثقين ، وموظفى المكاتب حيث كان يمضى ، ثانية ، ساعات وهو منسى على احد المقاعد ، يرفع رأسه كلما عبر الساعى الغرفة ، يتبعه بتلك النظرة الشبيهة بالكلاب ، نظرة متساءلة ، متعثرة وطيبة ، الى ان يختفى الساعى ويعود الى الانتظار ، وفى النهاية ، يبدو انهم ملوا ، ملوا من وجوده هنا وكانه عتاب حىّ ، كانه توسل حىّ ، لايمكن تجاهله ، ولا طرده ، يعود يوما بعد يوم ، لأنهم سمحوا له اخيرا برؤيتهما . قال لى انهما لم تعودا بتلك الضفائر التى اعتادت روز ان تجدلها على هيئة مقبض الابريق وتمسكها بشريط ، قال لى انهم قصوا شعرهما ، وانه كان الآن قصيرا مثل شعر جان دارك ، ربما لان ذلك اكثر نظافة ، كان كل شىء نظيفا : مرايلهم البيج المتشابهة ، الارضية اللامعة ، غرفة الاستقبال ذات رائحة الشمع والكافور بكنبة من القطيفة الناصلة ، والمقعدان الوثيران ، والكراسى المرصوصة حول الجدران ، تعلو احدهما لوحة زيتية (لم يتمكن من النظر اليها ، قال لى انه طوال الوقت الذى امضاه مع الطفلتين كان يشعر بوجود اللوحة عن يساره ، غير واضحة : شىء ما أشبه بنساء واقفات متشحات بطرح زرقاء ، ومسامير ، ونقط دماء مرسومة بعناية على اقدام مثقوبة ، وسماء سوداء) ، وكان شيش النافذة نصف مغلق ناصية الحديقة ، الضوء مغبّر ، والعالم الخارجى لافح ، ملتهب . لكننى لم اكن بحاجة ليقص علىّ ذلك ، كان يمكننى تخيله هو جالس هناك ، على حافة احد المقعدين الوثيرين وبجواره حقيبة اوراقه التى لاتفارقه والتى دفس فيها كل مايمكنها وما لايمكنها ان تحويه ، يحاول الابتسام قائلا : « كلى انت ايضا ، الا تريدين ؟ » وهى ، (تريزا) مستقيمة ، مشدودة ، بعينيها السوداوتين ، ووجهها الاسمر الداكن ، وهو ممسك بقطعة الجاتوه بطرف اصابعه ، يظل ثابتا ، يده مرفوعة فى الهواء ، بينما يتبادلان النظرات ، والطفلة الصغرى تجلس على كرسى وقد لطخت الكريمة وجهها حتى اذنيها ، وما زال هو وتريزا يتبادلان

النظرات ، الى ان نجحت فى القيام بمجهود تحريك يدها ، ومدتها لتأخذ قطعة الجاتوه ،بينما كان يحاول الا يرتجف ، فكه مشدود ، صارم ، وشفتاه تحاولان التحرك اكثر من مرة دون ان يخرج منهما اى صوت ، ويحاول السيطرة عليهما ، يحاول ايقاف ذلك التوتر العصبى الذى يدفعهما الى حركات مقتضبة ، ونجح بعد فترة ، لكن زوره احتبس ، فاخرج صوتا لم يشبه الصوت فى شىء ، فتنحنح ، وابتلع ريقه عدة مرات ، واخيرا تمكن من قول : « الحديقة هنا جميلة ، يبدو ان ، انه ..... » ومرة ثانية احتبس صوته ، راحت تفاحة آدم تعلوه وتهبط كأنه يحاول ابتلاع شىء ما ، وهى ، لم تعد تمثل انها تأكل قطعة الجاتوه ، ظلت واقفة بفمها المضموم ، وعلى شفتيها بعض الفتات المتلاصقة ، ترمقه بتلك النظرة الحزينة ، الغامضة ، تلك الحركة اللازمة التى ترجف شفته السفلى دون ان يتمكن من عمل شىء لوقفها او لمدراتها ، الا انه راح يتمخط بعد ان مسح اصابعها (واحتفظ بالمنديل لفترة اطول مما يحتاجها المرء ليتمخط فحسب) ، وحينما ابعده عن وجهه ، ابتسم هذه المرة وهو يقول : « الآن .. » لكنه اضطر فورا الى الابتلاع ، وخفض رأسه ورفعها ، وابتسم ثانية وهو يقول : « والآن سيصبح كل شىء افضل ، سيمكننا ان نتقابل كثيرا .... اى انهم سمحوا لى ان احضر كل اول خميس من الشهر ، وعندئذ .... » فقاطعته تريزا : « كل .... فقط ! كل ..... » ، لكن سرعان ماسكتت ، خفضت رأسها ، ومدت يدها بقطعة الجاتوه الى اختها ، وظلت محنية عليها لفترة طويلة ، تعاونها على الاكل ، تمسح لها وجنتيها اول بأول ، دون ان تبتعد عنها ودون ان ترفع رأسها ، ثم قال لى انه ادرك انه قد مضى فترة طويلة وهو جالس وان كان يخيل اليه انه وصل منذ لحظة : لم تكن هناك ولاقطعة جاتوه واحدة فى العلبة ، وراح يفكر : « هل هل هل ليس معقولا ... ليس ... » ، وفى هذه اللحظة دخلت الراهبة ـ كان وجهها ممتلأ ، سمينا وناصعا ، ويداها ممتلاتان ، سمينتان ، ناصعتان ، لوحت بهما بسرور وهى تقول بصوت مداعب : « ها هما ! يجب عليها الآن ان يذهبا .... » بينما هو يردد فى صمت : « لا لا لا لا ليس الآن ليس .... » ، وسمع صوت الخشخشة المنبعث من الجونلة الطويلة ، وشم رائحة اللحم الشاحب ، المنتفخ ، المحبوس ، بينما كان يسمع صوتها قائلا : « هيا .... » ثم تضيف : « ارجو ! . لقد افرطوا فى تدليلنا .... » ، وحينما انحنى لتقبيل الطفلة الكبرى ، قال لى انه شعر بها كقطعة الخشب ، شفتاها مضمومتان ، بكل قواهما ، بحيث عندما وضعت الراهبة يدها على كتفها ، يبدو انها لم تشعر بها ، واستمرت فى وقفتها المشدودة فى نفس المكان الذى قبلها فيه ، تضم على صدرها بذراعيها الطويلتين علبة الحلوى بغلافها اللامع ، ووضعت الراهبة يدها ثانية على كتفها ، لكن هذه المرة بشكل اعنف ، يد سمينة بيضاء وكأنها يد من شمع ، فراحت الطفلة ، تسير الى الوراء ، وهى تجاهد لتبتسم قائلة ، بسرور :

« الى اللقاء . اراك قريبا . ان ... » . بينما الوجه الصغير الفزع والمأساوى مازال يرقبه ، وقد كان شبيها بمومياء الاينكا اكثر من اى وقت مضى ، ولوح بيده ثانية لكنها لم تجبه ، لم تتحرك اية عضلة من وجهها ، والشىء الوحيد الحى كانت عيناها ، لايمتلئ احتمالهما ، وعندئذ استدار مسرعا وخرج الى الردهة .

كانت عربة بائعة الآيس كريم والمصاصات مازالت فى نفس المكان ، عند حائط الثكنات القديمة ، ومن مكانه حيث يجلس على الاريكة ، كان يمكنه رؤية الاطفال وهم يندفعون حولها ، يتزاحمون ، يشبون على اطراف اصابعهم فى محاولة لرؤية مابداخل الثلاجة كلما رفعت المرأة الغطاء المعدنى اللامع الذى على هيئة القبعة الصينية ، وتدخل يدها وتعود بها وعلى طرفها الملعقة بقطعة الچيلاتى بألوان شاحبة : وردى ، اخضر فاتح ، او اصفر ، وكان هناك لفيف من النسوة بأباريقهن ودلائهن حول مضخة الماء ، والصوت المعدنى لارتطام الدلاء ، وخطواتهن الثقيلة ، المتعاظمة ، حينما يعدن باردافهن المثقلة ، وشعورهن السوداء اللامعة ، واحذيتهن البالية ، وثيابهن المرتقة ، المتعددة الالوان والملكية . كان يظل جالسا وربما متسائلا : « اذا استطعت فحسب ان افهم .... » وبعد فترة يضيف : « لكن هل هناك شىء مايمكن فهمه ؟ » - « لأنه قال لى فيما بعد : الا توجد كلمة لذلك ؟ اليس ذلك مايسمونه ... ماهو ذلك ؟ اعتقد انهم يتعلمونه فى المدرسة فى الصف السادس . ان لم يكن فى سنة اولى ، لكننى لم اعد اتذكر .... نعم : تبديل . ها هى . الم تكن الا شىء من هذا القبيل فحسب . تعرف : كأنها خلايا او اى شىء آخر ، تتعلق بطريقة ما ، ثم تتخلل ، وتسقط ترابا . فتاتا . لتتجمع ثانية بطريقة اخرى ، بشىء من التعديل الطفيف ، ذرة ميكروسكوبية اكثر او اقل ، لكنها دائما نفس الشىء بما انها تعيش . اذن ؟ » .

كنت انظر اليه (كنت قد عدت الى المدينة لكى أقضى فيها بضعة ايام وكنا نجلس فى شرفة مقهى ، فى وسط البلد ، نتأمل النخيل المترب بطول الطريق ، مثل نباتات خضراء مرصوصة وقد نسوا تنظيفها ، مثلما يحدث فى البيت ، او فى صوبة مهملة - او كأننا جالسان دون حراك امام اكوابنا ونحن نشعر بالعرق الذى ينساب ببطء علينا . لكنه كان اشبه بصوبة من ايام سنة الف وتسعمائة ، والنباتات المتربة الخضراء ، ونحن محبوسان بداخلها : كان صامتا الآن . بوجهه الحزين ، الجامد ، وملامحه المشدودة ، وفجأة اعترانى غضب لايمكن كبح جماحه ، غضب طاغى وغير عادل ، بسوء نية ان امكن القول ، مثل ذلك النوع الذى نشعر به احيانا امام مريض نجاهد لالقاء اللوم عليه باصابته بالمرض . لا كما ندعى التعبير عنه ، لانه اهمل ، لكن لأنه اخطأ بتجسيد المرض امامنا . بتذكيرنا بالمرض ، بالمعاناة ، او بالوجود الازلى للمرض وللمعاناة . فقلت اذن :

« يا الهى ! ما الذى تنتظره لتدخل فى الدير ؟ » .

هو : « دير ؟ » .

انا : « نعم . تخيل . لقد اخترعوا الاديرة من اجل ذلك . لحماية امثالك من الناس ، ليضعوهم فى حمى من الأزية .... أه ، ثم قلت بسرعة : وتفوه بالحماقات ! انه الجو . انه ذلك الحر العاهر . ذلك الصيف اللعين . انه يصيب الانسان بالبله تماما . من الافضل لك ان ترحل من هنا ، ما الذى ....

ـ أرى ؟ هل قلت : أزى ؟

ـ يا الهى ! كنت افرح . انه سبب ذلك الحر اللعين . انت تعلم تماما انك غير قادر على ازية ذبابة ، حتى وان اردت ذلك . انك .... انه ذلك الحر . لماذا لاترحل ؟ لماذا لاتعود الى بلدك ؟ الآن وقد نجح الاشخاص الذين دفعت لهم المال فى ان يخلصونك من تلك الكروم اللعينة ! ـ لا امزح . كم دفعت للمحامى لتقنعه بان يجعلك تخسر القضية ؟ لا شك انك دفعت الثمن المطلوب فالمحاميين لايحبون خسر قضاياهم . ان ذلك يمثل دعاية سيئة بالنسبة لهم . لذلك .... » .

لكننى لم افلح حتى فى ان اجعله يبتسم . لم يكن ينصت الىّ . لا لم ينظر الى اكثر مما اهتم بالذهاب الى المحكمة فى ذلك اليوم الذى كانت قضيته ضد المسجل تنظر فيه ، لأنه كان مرتبطا فى ذلك الصباح او فى فترة بعد الظهر بشىء اكثر اهمية ، كأن يظل جالسا على الاريكة فى الميدان او ان يجلس فى المكاتب الادارية على امل ان يلحظ وجوده احد الموظفين . لذلك لم يحدثنى عن هذا الموضوع . على اى حال ربما لم يكن يعرف شيئا ، او حتى لم يهتم بالسؤال عما حدث ، واكتفى بأن سمعه من المحامى وهو يخطره به مساءً (او ربما فتح الخطاب الذى ارسله له المحامى ليقرأه فى اليوم التالى) قائلا انه خسر القضية ، فاكتفى بقول : « أ ـ ! » او « حسنا ! » ثم يدفس الخطاب فى قعر حقيبة اوراقه ، لينضم الى رزمة الاوراق التى تملأ الدوسيه وينساه ليسرع الخطى الى مكتب أخر ، بحيث لم اعلم التفاصيل الا من الموثق ، اى ان المسجل قد قدم فى الوقت المناسب عدة اوراق موقعة من والد مونتيس ، وبها مرتبات مؤخرة ، متراكمة عدة سنوات ، بالاضافة الى اعتراف بخدماته الحسنة الامينة والذى قالت عنه ألسنة السوء ان والد مونتيس قد كتبها خطأ فى لحظة اضطراب عقلى جعله يضع اسم الأب بدلا من الابنة ، اذ ان نوع الخدمات الذى كان ينوه عنها لا يقصد بها عادة مايتم خلف المحراث او منحيا على الأرض التى لا تنتهى لكن تتم فى ذلك الوضع الافقى حيث العرق والزفرات وتعد عكس حركات العمل انها اعمال يعد الحقل المحروث فيها ليس الا ذلك المثلث المشعث الداكن ، ذلك الشق المفتوح دواما ، المشغول بلا هوادة ، لا يقفل ولا يشبع ابدا . غير ان المسجل (او ذلك الثالوث الغريب : الرجل ذو الوجه الترابى الشبيه بالجثة . والمرأة

المتشحمة بالسواد ، والابنة الصارخة المساحيق ، يحضرون المرافعات ، وهم جالسون فى نهاية القاعة ، بلا اى تعبير ، مكتئبين قساة ، كأطياف انتقامية ، مهانة ، تدفع عن الحق والبراءة المنحلة) قد كسب القضية ، ولم يكسبها فحسب بل وحصل على تعويض فقد وجد طريقة يبلغ بها مستشارى مونتيس (رجال القانون الذين تركوه ينتظر الساعات الطويلة على كراسى او ارائك فى ردها تهم لكى ينعموا عليه بهذا الرأى السديد) الذين خدموه بان اطلعوه على النتيجة بارسالها مع احد السعاة : بل ولقد حصل المسجل على اكثر من ذلك لأن مونتيس وجد نفسه فى نهاية الأمر فى مأزق يتضاعف مع نتيجة المحصول المقبلة (محصول بضعة عناقيد العنب او بضعة الحبات التى نجت من اعاصير الربيع) بحيث رضخ الى الشىء الوحيد الذى بقى له ان يفعله ، واول شىء كان يجب عليه ان يفعله فور مجيئه ، اى ان يبيع ، وقال الموثق : « وان لا سألك ان كان هناك أى داع لاثارة كل هذه الروايات لكى يصل ، فى نهاية الامر ، الى هذا الوضع ؟ بالاضافة الى وقع هذا عل ..... » .

ثم قال لى : « لأنه كان هنا ، يجلس ثانية على نفس هذا المقعد الذى جلس عليه اول مرة منذ حوالى ستة اشهر ، بنفس ذلك الشكل السارح فى مجال آخر بينما هو مهتم بما ، أقوله وكأننى احدثه عن ملكية شخص آخر ، واعمال شخص آخر ، بل ولم يناقش حتى السعر الذى عرضته عليه ، ولم يقاوم ، وانما قال : « حسنا . موافق .... » دون ان يكف عن النظر الى هذه اللوحات القديمة التى تمثل البلدة والتى تركتها هنا لأنها كانت دائما فى ذلك المكان ، بحيث قلت له فى نهاية الأمر : « ان كانت تروق لك الى هذا الحد ، فاننى اهديها لك . وستعطينى صورة فوتوغرافية لأضعها مكانها . اتفضل .... انها لك ....

ثم قلت : اتفضلها كهدية مقدمة من المكتب .... وانطلق ضاحكا : « جائزة ! على حد قولك ! وفى النهاية كنت قد مللت النظر اليه هنا . ها ... ها .... ها .

فقلت : ظريفة منك ان تفكر فى ذلك . اننى واثق انك اسعدته .

فقال ـ هل تسخر منى .

فقلت ـ اننى جاد فيما اقول لاشك انك اسعدته بأكبر قدر من السعادة . انه يعشق كل ماهو ثابت ، وبما ان تلك الاحياء من المدينة قد تهدمت تقريبا جميعها ، فلا يخشى ان يراها تختفى ..

ـ ها ها ها ! ها ها ها ! ها ها ها ! .. »

والآن أجلس بجوار مونتيس فى شرفة ذلك المقهى فى بعد ظهر ذلك اليوم المترب من شهر سبتمبر ، كنت صامتا ايضا ، كنا جالسين دون ان نقول شيئا ، هو بذلك الوجه المحبط الذى لايمكن تبين مشاعره ينظر دائما الى الجانب الآخر (ترى تجاه اى شىء ؟ : لم يكن ينظر الى النخيل الثابت الرمادى ، المعلق بعناء

فى الهواء الثقيل ، الذى لايمكن استنشاقه ، ولم يكن ينظر الى المارة او الواجهات ، ولا الى حركة الشارع ، ربما كان ينظر الى كل ذلك فى أن واحد ، ليس وهو شارد وانما بالعكس بشىء من الشغف ، او النهم ، وكأنه يتوقع ان يجد الاجابة على احدى هذه التساؤلات اليائسة ، الهذيانية ، المتسلطة) . وعند ئذ تركته وانصرفت ، لكننى استدرت لأراه مرة اخيرة ، كان ما زال جالسا امام كوبه الذى ماكاد يلمسه بشفتيه ، وكانت أخر رؤية احتفظ بها منه ، وكأنّ ذكراه ماكان يجب ان تكون الا ذلك : هذا السؤال بلا اجابة ، وهذا التعبير المتوسل المركز وغير المصدق فى أن واحد . نفس التعبير ، نفس النظرة التى لابد وان تكون اكتشفتها الراهبة بينما كان واقفا امامها (كان اول خميس فى الشهر التالى) ، يتهته . وتكررها له للمرة الثالثة ماسبق له وسمعه مرتين وكأنه لم يفهمه ، او يرفض فهمه (واقفا ممسكا بحقيبة يد اوراقه المليئة بالحلوى واللعب ، وعلبة الجاتوه التى تقطر ببطء ، يحاول النظر الى الردهة من فوق كتف الراهبة ، تجاه غرفة الاستقبال ، وكأنه تخيل انها تخفى عنه الطفلتين ، تكذب ، او تمزح ، تساومه ، وتواصل هى ابتسامتها ، ملوحة بيديها الممتلئتين الناصعتين الشبيهتين بأيد من الشمع بينما وجهها الممتلىء ، الهادىء ، الغبى يبتسم بعناد ، وراح هو يصرخ تقريبا الآن قائلا :

« ليستا هنا ! تقولين : ليستا هنا ؟ » ، وتكرر هى بنفس ذلك الصوت المدندن ، المتلاعب النواح المميز للراهبات : « نعم ، لكن لاتد ... لقد اخذوهما . لقد رحلتا ، لا ، لا استطيع .. لا نعرف .. انهما بصحة جيدة ، لاتقلق ، انهما ... لا ، الراهبة الرئيسية لاتعرف اكثر منى . انها الادارة ، ارجوك ، ليست منا ، لقد اخذوهما ... » ومازالت يدا الدمية تخبط فى الهواء كالاجنحة امام بطنها ، امام صليبها المعدنى الضخم المتدلى على صدرها المغطى بالتيل المنشى الناشف كالكرتون » .

وقد كتبت له ، دعوته عندى ، ليسترح قليلا ، ليغير الجو ، والافكار . لكن ربما كان لايرغب فى ذلك فيه بالتحديد . لانه تهرب ، اجابنى باعتذارات مبهمة . ولاشك انه كان لديه ماهو اهم من الراحة ، يود الحصول عليه اولا ، قبل ان يتمكن من التفكير فى الراحة ، ولم يكن فى وسعه ان يصل اليه الا عبر نفس هذا الشكل . شىء لم يستطع اكتشافه الا هناك ، وهو جالس على تلك الاريكة حيث كان يمضى ايامه دون حتى ان ينتظر اول خميس للشهر التالى ، وربما دون ان ينتظر اى شىء مطلقا ، دون البحث عن اى شىء ، ولا حتى عن اجابة ، مكتفيا بالبقاء هناك ، فى نفس تتابع الساعات البطىء المتماثل ، وتتابع الايام ، ونفس الديكور ، الثابت ، تلك الأرض العتيقة المبجلة ، ذلك العالم القديم الملوث الذى يشرأب مع كل شروق بعذريته الاولية تحت الضوء الساطع ، بلا غموض ، جلى : السماء ، البيوت ،

الصدى الأزلى للدلاء المتخبطة ، الاطفال المتلاحقة ، العرب المتضورين جوعا الجالسين بطول الجدران ، عربة بائعة الچيلاتى التى تستبدله فى الشتاء بلقمة القاضى ، ومعادن الدراجات المتداخلة بطول الازقة الضيقة ساعة الظهيرة ، ورائحة السردين المشوى فى الهواء الطلق امام كل باب ، وجماعات الغجر بخطبهم الطويلة وقمصانهم الناصعة البياض . واسنانهم البيضاء الناصعة ، وقبعاتهم الداكنة ومناديل رقبتهم الحريرية الوردية ، الخضراء الباهتة ، السماوية ، والجدران المخربشة التى تعلوها الرسوم برءوس تتضور جوعا شبه ميتة منقوشة بالمسمار على الجص الهش ، ورسوم النذور على هيئة قلوب ، ورسومهم الصخرية القضيبية ، وقطعان الحيوانات الباهتة الوحشية ، الحمير الوحشية ، افيال هانيبال ، نمور تقفز خارج الاعلانات الممزقة من السيرك ، واعلانات الاضراب ، والاجتماعات ، والشعارات الثائرة الغاضبة التى لاتكل ، والآمال التى لاتكل ، والوجوه الشعثة الشعر ، والشعور السوداء الطويلة المزينة المتدلية من النوافذ بين قصارى الزهور المصنوعة من علب المحفوظات القديمة ، والاصوات الحادة المنادية .

مارسيييييييل ! او باكيييييتا ! ، بصراخ متصاعد ، مموج ، يمتد ويخبو ، والكلاب اللينة الخطى ، العمودية ، التى تتشمم اكوام البقايا والنفايات عند نواصى الأزقة حيث تغوص فيها الشمس كالوتد ، دعامة من الضوء المنقط بنقط الذباب البيضاء ، والذبابة الواقفة ، على الوجه المتسخ لاحد الاطفال ، والشبان الذين يميلون بمقاعدهم بعدم اكتراث فى شرفة المقهى الصغير امام الموائد الصغيرة الخالية من المشروبات ، يصفرون رغبة عند مرور فتاة او سيارة ، يتبعونها بعيونهم ، واضعين ايديهم فى جيوبهم ، وجفونهم نصف مغمضة ، والرءوس مائلة قليلا لتفادى الدخان المتصاعد من السيجارة الملصقة فى ركن الفم ، دون الكف عن التأرجح الى الامام والى الخلف ، ولاعبى الكرة الارضية الازليين ، وتغريد طائر وحيد فى قفص يأتى من أخر الفناء عبر الاسطح ، وعبر الزمان والصمت : شىء يعود فى النظام الرتيب ، الذى لايقهر ، حتى الريح نفسه ، يعود ثانية ، اولى هبات ريح الخريف تهز تندة المقهى برتابة منقطعة ، تلويها ، تنفخها وتخفضها بطرقعات جافة ، مثل الطلقات النارية .

وبعد فترة وجيزة ، ستحل الريح ثانية ويظل حتى الصيف القادم ، وعما قريب ستعود ثانية وتعصف على الأرض المنبسطة ، لتقتلع آخر الاوراق الحمراء للكروم الاحمر ، ويعرى الاشجار المنحنية ، تحت عصفه الجامح ، بلا هدف ، وكأنه محكوم عليه ان تظل يهلك بلا نهاية ، بلا اى امل فى نهاية ، يعوى ليلا فى انات طويلة ، وكأنه ينتحب ، يحسد الرجال النائمين ، والمخلوقات العابرة الفانية على امكانية النسيان ، والسلام على تمتعها بمزية الموت .

تمت

كتاب الهلال يقدم :

رحلاتى حول ألعالم

بقلم

د . نوال السعداوى

يصدر فى : ٥ فبراير ١٩٨٦

روايات الهلال تقدم :

بنت من شبرا

بقلم

فتحى غانم

تصدر فى : ١٥ فبراير ١٩٨٦


مجلة
الهلال
مرآة العقل
العربي
خلال قرن
من الزمان
أول
كل
شهر
رئيس التحرير : مصطفى نبيل

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٨٥/٧٦٤٨

الترقيم الدولى : ٨ - ٢٠٤ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN